سلسلة آفاق عربية
130

لغة السِّر

رواية

نجوى بركات

الهيئة العامة لقصور الثقافة

لُغَةُ السِرّ

رواية

نجوى بركات

- ولماذا قالوا " كَلَم " للجُرْح و كلم للكلام ؟

- ذلك أنه سببٌ لكلّ شرّ وشدّة في أكثر الأمر.

(ابن جنّي - "الخصائص")

إهداء

إلى كل الذين أخذتُ عنهم:

الشيخ الأكبر، محي الدين ابن عربي في "فتوحاته المكّية"
الشيخ عبدالله العلايـلي في "مقدمته لدرس لغة العرب"
أحمد بيضون صاحب "كلمن"
وكل الذين لا يتسّع ذكرهم هنا من علماء اللغة والحروف...

١

اعلموا أيّدنا الله وإياكم، أني فيما كنتُ سائرا وقعتُ في طريقي على حرف النون ملقىً على الأرض مقلوبا ونقطته تبعط في داخله حتى الاختناق، فانحنيتُ أُصلِح من حاله بعد أن استعذتُ وبسملتُ وصلّبت...

– صلّبتَ يا سَرّاج ؟

أجل. رسمتُ إشارة الصليب بيد مرتجفة، ثم انتقلتُ بطرفة عين فرأيتُ نفسي واقفا في مواجهة حائط المبكى أتلو صلاتي وأنا أتهادى بوتيرة متسارعة. وما أن ابتعدتُ كي أتابع تقدّمي، حتى تعثّرتُ بحرف العين. كان فاتحا فاه على أقصاه يوشك أن يُطبق فكّيه كالثعبان على رجلي. أمسكتُ بجذعه الملتوي، ثم شددتُ بكامل قواي ورميته عنّي وطفقتُ أعدو كالمسعور وأنا أستجير ربَّ الملكوت، سيّدَ الجبروت والهلكوت، أن يهديَني إلى الخلاص ممّا أنا فيه، فيرسم لي منفذاً يخرجني من هذه المتاهة حيث قادتني قدماي الآثمتان.

هدأت الأمورُ من حولي مسافةً فخلتُ الربَّ وقد استجاب لدعائي ورأف لشكواي. اقتعدتُ الأرضَ بالقرب من غدير ألتقط أنفاسي المجفلة وأعالج ما هطل منّي غزيرا. وما أن استراح فؤادي يسيرا، حتى طالعتني الياءُ سابحة على وجه الماء، تحمل على متنها ما تيسّر لها حمله من إخوتها وأخواتها. رأيتُها تتقدّم مجدّفة قبل أن يقوى السيلُ فيدفعها إلى الصخور فيتكسّر جسدُها بمن فيه ويغمرها الزبدُ المتعاظم فتطفو أشلاؤها وأشلاءُ من معها من غرقى الحروف، في مشهد يدمي القلوب.

أشحتُ نظري وهببتُ واقفاً لإدراكي أن المسألة لا تحتمل تسويفا وأنها على درجة من الخطورة لن أتبيّن حقيقتها ما لم أتوجّه من فوري إلى مقرّ مجمع الحروف، استوضحه الأمر وأشاوره الرأي بعد أن أُطلعه على ما صادفني وعاينت.

حين وصلتُ، انكشف عليّ مشهدٌ ليتني لم أبصره، بل ليتني ما رأيتُ النور البتةَ لأراه. على يوم الآخرة وقعتُ وقد صمّ عويلُ الحروف أذنيّ، بين العنين والطنين والأنين والقرع والرطْن والصدْم والفحيح والزعيق، فيما ذال الذكورة تجامع تاءَ التأنيث دونما حياء وعلى مرأى من الجميع، وبقية الحروف تتخالط غير عابئة بما تسقطه من معانٍ وتحرّفه من ألفاظ.

استفسرتُ، فقيل لي إن مَلِكَ ملوك مَدْيَن، " كلمن "، قد هلك مع قوم شُعَيْب وبقية حروف الهجاء بعد أن انقلب عليه إخوتُه: ملك مكّة والحجاز "أبجد"، يعينه ملكُ الطائف "هوّز" وملكُ نَجْد "حُطّي". وما أن أدركت العامّة ما جرى، حتى عصيت وتخلّت عن طاعتها للحرف، فراحت تتلاعب بأحرف الكَلَم التي هي أحرف المُلْك أيضا، إلى أن عمّت الفوضى وتألّبت الغوغاءُ وأُسقِطت حروفُ اللغة المثبتة في أسماء ملوك.

هدر صوتٌ راح يتعاظم ويتفاقم إلى أن لفّ الأرجاء، فإذا بوابلٍ من حركات التشكيل ينهمر بزخم هاتفا: كنّا في الأصل حروفا صغيرة، لكننا خُصينا كالعبيد وكُبّلنا كالجواري وحُكم علينا أن نكون تابعات وخادمات للحروف حتى الممات. وها إن ساعتنا قد حانت بعد طول انتظار !

تلفظت الحركاتُ بهذا، ثم استباحت أجسامَ الكلمات وجعلت تحشر نفسَها ما بين حروفها كيفما اتفق، فتضعضعت المعاني واختلّت الأوزانُ وانحرفت الاشتقاقاتُ واضطربت المضامينُ وتشوّهت المفرداتُ وصارت تنطق بلغةٍ أين منها لغط بابل وخلائطها من لهجات مختلف الأمم والجنسيات.

خبّأتُ وجهي بطرف خِرقتي، ثم صَمَمْتُ أذنيّ وقلتُ: لا أرى ولا أسمع وإنما أغادر للتوّ علّني أصل سالما فأنبئ قومي بما يتهدّدهم من أخطار فيحتاطون من الثورة الهائجة خلف أبوابهم.

وعندما قدّرتُ أني ابتعدتُ ما يكفي وأصبحتُ في مأمن ممّا يجري على الهضبة المقابلة، استدرتُ بنظرة استطلاع أخيرة، فرأيتُ ألفا عملاقة مرسلة من الغيب تنزل على مجمع الحروف حادّة كالسيف، تجتثّ رؤوس الفاء والقاف والواو والميم والعين، تطعن الصاد والضاد، تقطّع أوصالَ الباء والتاء والراء والثاء والزاي، وتدقّ أعناقَ ما تبقى من الحروف، تبتر سيقانَها وتبقر بطونَها وتفقأ أعينَها... إلى أن ارتمت الحروفُ جميعها قتيلة، مهشّمة، مدلوقة الأحشاء، فتقدمّت الألفُ وأوقدت فيها النارَ، فانتشر حريق هائل. ثم هبّت عاصفة، تبعها إعصار. ثم وقع طوفان. ثم كان عدم.

- ثم ؟
- ثم استفقتُ.

مدّ سَرّاج يده إلى القِدْر الكبيرة التي تتوسّط الحلقة حيث اجتمع الإخوانُ للعشاء، يبحث عن بقية طعام يعالج بها انقباضَ حلقه من هول ما رآه في حلمٍ لم يفلح نورُ الصباح من تبديد حلكته. جالت يدُه على حوافي القِدْر وعلى قعرها وحين لم توفَّق بما تعود به، آبت إلى مستقرّها فوق فخذه، خائبة، منهكة، منحلّة الأصابع.

تخاطَبَ الجالسون في صمت، متبادلين نظرات اعتذار ولوم موجّهة إلى بطونهم الرعناء التي نسيت، لنهمها، مبادئ الأخوّة والتعاضد والاقتسام بعدل ومساواة.

استقام الشيخُ الأكبر في جلسته وقال: عذرا يا سَرّاج. هو وقعُ كلامك علينا ما جعلنا ننكبّ بنهم على الأكل فننسى أنك لاضطرابك مما رأيت، لم تمدد يدَك البتة إلى القِدْر. سأجلب لك شيئا تُسكت به جوعَ بطنك، فلم يزل في القفة بعض من جبن وزيتون. أتريد معها كوبا من الشاي ؟

تبسّم سَرّاج وقال مداعبا بأسى: حسنا فعلتم. فربما جنّبتني البطنُ الفارغة رؤية كابوس آخر. هلا صببتَ على يدي شيئا من الماء، فأنا متعب ويعزّ عليّ النوم باكرا هذا المساء.

امتثل الشيخُ الأكبر وغسل يديّ سَرّاج وجفّفهما، ثم أفسح له كي يقف ويغادر الجلسة مهتديا بعصاه. تأمّله يبتعد في الرواق المعتم بظهره المنحنية وكتفيه الموهنتين. لقد شاخ. عساه لا يفقد اتّقاد ذهنه بعد أن شحّ بصيصُ عينيه. وذاك الحلم المروّع الذي رواه، أهو من ضروب الكشف أم أنه مجرّد وهم في مخيّلة عجوز بدأ دودُ اللبْس ينخر عودَها ؟ بودّه لو يفاتح إخوانَه في الأمر، لو يشاورهم الرأيَ فيما سمعوه. لكنه عدل عن فكرته تلك لمعرفته أن الحوار سيطول مشرّعا البابَ أمام رتل من تعليقات وتفسيرات لن تنتهي إلا قبيل الفجر بأحسن تقدير، إذ ستنطلق المخيّلاتُ من عقالها، تتوالى رواياتُ هذا أو ذاك، وتمرّ الساعاتُ سريعة، رشيقة، غير عابئة بما ينتظرهم في الغد من مهام.

نظر إليهم يتعاونون في دلق الماء على أيدي بعضهم للاغتسال من الزفر وبقايا الطعام، فاستبان في ملامحهم كلاما مبيّتا لموعد ارتشاف الشاي. إن لم يقم من فوره، أحاطوا به وأوثقوه بحبال أسئلتهم، فوقع أسيرَ خجله من عدم الاستجابة لمطلب سَرّاج الضمني بخلع رداء الأهمية على حلمه الغريب والاستفاضة في تقييمه وتفسيره والتعقيب عليه، ذلك أنه حتما إشارة إلهية مرسلة من عالم الغيب، إلى عبدٍ مؤمن صرف حياته في التنسّك والتعبّد والورع وقراءة الكتاب.

غدا نهار آخر، همس الشيخُ الأكبر لنفسه، ثم قام مودّعا بتحية المساء قبل أن يلتهم قامتَه الفارعة المدثرة بخرقة من الصوف، سوادُ الرواق المعتم الطويل، المفضي على جانبيه إلى غرف الإخوان.

٢

تحت جنح الظلام، نهض خلدون بعد أن تأكّد من رتابة أنفاسها المقطّعة بشخير يتعالى كالموج الصاخب قبل أن ينساب رتيبا، هادئا، متساويا كصفّارة إبريق الشاي. شقّ البابَ بتؤدّة، فأنّ هذا الأخير كأسدٍ يفتح فاه ويتثاءب ملء شدقيه. جمّد فكّي الباب والتفت إلى أمّه التي تقلّبت في فراشها مرتين أو ثلاث، قبل أن تستهدي إلى وضعية مريحة تُغرقها مجددا في غطيط سباتها العميق.

زجر نفسَه على إهمالها هذا التفصيل المهمّ، ثم صالحها ووعدها بمعالجة صدأ المفاصل بشيء من السمن أو الشمع، في صباح الغد على أبعد تقدير. جمع أنفاسَه وكتمها دفعة واحدة بعد أن دلف إلى الخارج، وبحركة مقتضبة وحاسمة، أغلق وراءه الباب. استدار متخفّفا مما احتبسه صدرُه من هواء، ووثب في اتجاه ليلٍ سارع في ضمّه إليه.

ألقى نظرة سريعة إلى السماء، ثم خفض بصرَه إلى حيث كان يسير. ما حاجته إلى التحقّق مما تأكّد منه بعد طول حساب وتدقيق ؟ هي الليلة التي تسبق ظهور الهلال. ليلة تستريح فيها السماءُ وتوهن نجومُها كقناديل شحّت من الزيت.

وصل إلى بئر الماء. من هنا يستدير يمنة، ثم يتقدّم نحو خمسين خطوة ينبغي أن يقع بعدها على حجر كبير، يكفي أن يرفعه قليلا ليسحب من تحته ما خبّأه في كيس منذ أيام.

قفز قلبُ خلدون في صدره فجأة، فازداد خفقانا وأشعره بما يشبه الدُوار. مهلا. ما زال الوقتُ أمامه فسيحا. فما الذي يدفعه إلى السير حثيثا كأنما هو على موعد مع قطار؟

أبطأ السيرَ قليلا. لكن، ما هي إلا ثوان حتى أفلتته قدماه فاستأنفتا المشيَ سريعا كأنهما لشخصٍ آخر دخل في سباقٍ معه بعد أن تحدّاه. لا بأس، فكّر خلدون، أضع الوقتَ إلى جانبي، أتواطأ وإياه، ومن يدري ؟ فربما فاجأني طارئ أو ما لم يكن في الحسبان...

لم يكن الحجرُ ثقيلا بالقدْر الذي اعتاد عليه. أم هو تيقّظُ حواسه واستنفارُ أعضائه اللذان أشعراه بأنه يرفع ما يشبه حصاة ؟ فتح الكيسَ على عجل وأخرج منه الأغراضَ واحدا تلو الآخر، فوضعها جانبا وانحنى يخلع حذاءه وملابسه ويوضبّها بعناية، ثم يعيدها إلى الكيس ويعيد الكيسَ إلى مكانه تحت الحجر.

كما خلقتَني يا ربّ، وقف خلدون. وداهمته رغبة البقاء هكذا، عاريا، متلذّذا بغبطة رمته بها نسمةُ هواء مفاجئة راحت تتمسّح عليه كقطّ أليف. فتح ذراعيه على مداهما وباعد ما بين فخذيه كي يعبره الهواءُ المنعشُ على هواه. لو رآه أحدٌ الآن، لفرّ مذعورا ظانّا أنه ضرب هذيان، أو لحظة تخلّ كتلك التي يرودُها أهلُ الجنّ والعفاريت. احتضرت نسمة الهواء على وجهه، فأدرك أن عليه التحرّك في الحال. التقط طرفَ الحبل الطويل وراح يلفّه حول وسطه. هكذا تبقى يداه طليقتين بانتظار حاجته إليهما...

ضربت أمّه رأسَها تندب حظَّها على سرقة الحبل الذي تربط به الدلوَ الذي ترفع به الماء من البئر. غدا يعيده إليها مختلقا ذريعة ما، فتطبطب على صدره وتقبّل وجهه وتدعو له بطول العمر، شاكرةً الربّ لأنه رزقها بولد هو خير الرجال. هكذا هي أمّه. يومٌ له ويومٌ عليه. بل أيامٌ عليه. حين تفرغ خزنة الطعام ولا يجد هو ما يعود به إلى البيت أو عملا يسترزق به ليعين والدته الأرملة التي لا معين لها سواه، يصبح خلدون دليل حظّها العاثر وولدها العاق ووصمة العار على جبينها وجبين والده المرحوم:

وما نفع أنك تعلمّتَ القراءة والكتابة سوى ما تصرفه كل ليلة من زيت القنديل وما تضيعه من الوقت مضطجعا على الفراش، متأمّلا في فتوق السقيفة تخلّعت أخشابُها، أو في اللهو والعدْو خلف حَرار، طائر الشؤم، صقرك المخبول الذي تدّعي تدريبه على اصطياد عصافير لم نضع تحت أضراسنا منها يوما ما يتعدّى الاسم أو الريش؟

ولو كان فيكَ أدنى خير، لكانوا اختاروك في أخوية الوفاء. ولكنتَ نجحتَ في الامتحان فرفعتَ رأسي واصطفيتَ لتحلّ مكان الحارس المتقاعد، فتقف مثله على باب المزار، ساهرا على صندوقه المحرّم، حافظا لوح القضاء والقدر وما يحويه من عظيم أسرار منّ الربُّ بها على قريتنا، قرية "اليُسْر"، فجعلها تحتلّ أعلى المراتب وتصبح قبلة الأنظار، يؤمّها الناس ليتبرّكوا بمزارها ولينعموا بما تغدقه عليهم أخويةُ الوفاء من أحجبة وعزائم وأدعية وتمائم وعقاقير.

ولو أخذوك حارسا، لكنتَ الآن تأكل شبع بطنك. ولكانت أمّك هي الأخرى ممتلئة الكرش مما يمنحونها إياه من معاش، بعد أن أخذوا ولدها الوحيد وعيّنوه حارسا على باب المزار. ولكانت منفوخة الصدر اعتزازا وفخرا لأنها أم الحارس الذي يملك حقّ التصرّف بحياة هذا أو ذاك، هو الذي يعلو الأعيان والأشراف مرتبة، والوحيد القادر على إمرة مَلِكٍ بحاله، لا بل على قتله حتى إن عصى التقاليدَ والأعرافَ فسولّت له نفسُه المَلكية أن يتجاوز العتبة، فيدخل حيث يُحفظ الصندوق المحرّم، حاوي علوم قراءة الغيب واكتشاف الأسرار...

انقطع نفَسُ خلدون وشعر بالضيق. ثم انتبه إلى أنه شدّ وثاق الحبل بقوة حول وسطه، فأعاد حلّه، ثم تزنّر به مجدّدا حريصا على جعله على شيء من رخاوة تتيح له التنفّس على راحته. تبّا لهذه الأفكار تنخر دماغَه كالسوس وتُقلق لياليه منذ شهور طوال، منذ ذلك اليوم المنحوس الذي تقدّم فيه للامتحان.

من ضمن عشرات، بقوا هم الثلاثة، هو وسَعْد وحسام، وكان على يقين أنه الأوفر حظا بينهم وأنه لا ريب، سيكون من سيقع عليه الاختيار. في التهديف ورماية السهام جاء أوّل. وفي رفع الأثقال حلّ ثالثا. لكنه تساوى مع الاثنين في ركوب الخيل والمبارزة بالسيف. يبقى اللقاءُ مع رئيس أخوية الوفاء. يسمّونه الشيخَ الأكبر وهو الذي سيطرح أسئلة على المتنافسين الثلاثة يقرّر إثرها، من يكون الحارس الجديد.

مذ كان صغيرا وأم خلدون ترضعه وتغذيه وتقوّي عظامه، ثم تتحدّى نساءَ القرية مُفاخِرة: من أصلب عودا وأكبر جسارة وأكثر رشاقة وأشد ذكاء من ولدها خلدون، كي يُعيّن حارسا ؟ هكذا كان خاله من قبله. خاله الذي قضى في نوبة قلبية وهو في ريعان الشباب. خاله الذي أمّن بمعاشه بعد مماته حياة والديه حتى وفاتهما. وخاله الذي دفع مهر

أمّه قبل أن تصبح أمه وتسمّيه باسم أخيها الشاب المرحوم. ألا يقال بأن الولد ولو بار، يبقى ثلثاه للخال ؟ وقد صدق من قال !

وقف خلدون في باحة الأخوية ينتظر حلول دوره بفارغ الصبر. دخل سَعْد وما هي إلا دقائق معدودة حتى خرج. كان مشتعل الوجنتين، مغسولا بالعرق، جاف الحلق، مرتجف الشفتين. تراقص قلبُ خلدون فرحا لمرآه: إنه راسب لا محالة ! كان قد توقّع له ذلك أصلا، إذ اكتفى بالنقاش معه لثوان كي يفهم بأنه بسيط العقل، محدود الذكاء، له جسد ثور ودماغ دجاجة ! سَعْد يا سَعْد، أما كان أحرى بأهلك أن يسمّوك "سَعْدان" ؟ همس خلدون في سرّه متبسّما، قبل أن يقطّب حاجبيه معيدا نظره إلى الأرض، لسماعه أحد الأخوان يخرج للمناداة على حسام بأن: اتبعْني !

تأمّل منكبي حسام العريضين وشعر بشيء من الغيرة. حسنا، أنتَ الأقوى بيننا. لكنك ثقيل الحركة، غليظ العنق، قصير الساعدين. باستطاعة طفل أن يفلت منك، قزم حذق أن يتغلّب عليك. إذا كان في عينيّ الشيخ الأكبر شيء من البصر، لأدرك بلمحة خاطفة مكامنَ الضعف في بدنك المصبوب كجذع سنديان ـ صلب بالفعل، لكنه هشّ حين تقتضي الحاجة معرفة أصول الليونة والمرونة والالتواء ـ ولفضّل عليك خلدون حتما، بلا تردّد ومن دون أدنى شكّ، لأنه رشيق، حيّ الحدقتين، ملفوف العضلات، ممشوق الساقين، كمهر يبرز كلّما خطا صكَّ أصالته الموروثة أبا عن جد...

أدخل خلدون رأسه في الخِرقة، ثم انزلق فيها دفعة واحدة فأجفل بدنُه لقشعريرة دفعت الدماءَ في شراييه وخبطتها بعنف. كان قد سأل عدلى أن تخيطها له، فمانعت في البداية ثم، حين عقد حاجبيه وهمّ بالانصراف، قامت إليه وضحكت: هكذا تريد رداء صوفيا كالنساء ؟ ماذا لو صنعتُ لك عباءة وطرزتُها بخيط حرير ؟

أطال في الشرح والوصف، ثم أخذ عود فحم ورسم على أرض غرفتها، فقالت: ما هذا يا خلدون ؟ كأنه زيّ أهل أخوية الوفاء ! رجل بمثل قامتك وبهائك، وتطلب كيسا لا شكل له، لا قبة ولا قلنسوة ولا أزرار ! أفقدتَ عقلك يا صبيّ ؟ ! ألحّ خلدون عليها فقبلتْ

بعد أن وعد بإطلاعها لاحقا على خفية الأمر، وبعد أن انتزع منها قسَما مما يختفي وراء نهديها البضّين النديين، بإبقاء قصة الخِرقة سرّا بينهما...

داس خلدون الحجرَ الكبير بقدمه العارية ليتأكّد من ثباته فوق ما يخفيه. عَفَرَ الترابَ من حوله تمويهاً، ثم تقدّم غير عابئ بحصى صغيرة راحت تغرز أسنانَها في لحمه كأنما للتخلّص منه، أو لدفعه للذهاب أخيرا صوب ما ينتظره.

٣

أغرق الإخوانُ ما اضطرب في نفوسهم وما ألحّ عليهم من تساؤلات في لهيب أكواب الشاي التي دارت عليهم كعادتها من كل مساء لدى الانتهاء من وجبة العشاء، وقد رأوا الشيخَ الأكبر يتحيّن فرصة لهوهم عنه للحظات كي يغادرهم على عجل، مكتفيا برمي بضع كلمات. تصبحون على خير قال، بل همس، وكانوا اعتقدوا أنه وقف لقضاء حاجة ما، أو لجلب ما يقرأه عليهم ممّا يكتبه في أوقات خلوته التي تطول أحَيّانا، وقد دامت هذه المرة ما جاوز أسبوعا بحاله.

في مثل تلك الأماسي، يجلس بينهم وعلى محيّاه إشراقة من لفح هواءُ البحر وجهَه زمنا، من رأت عيناه عجائبَ الدنيا السبع، ومن زار بطنَ الأرض وعاد منها بأبهى وأغلى ما اكتنزته من ثمين. يستقبلونه كمن يرجع من سفر طويل، ويفرح هو بملقاهم يتطايرون من حوله كالفراش، فيعوّضهم عن غيابه بالسهر معهم حتى طلوع الفجر والاستماع إلى أسئلتهم والردّ عليها فيما هم مستلقون تحت أشرعة الأحاديث، تدفعها ريحُ السَمَر وما حلا وطاب من عناقيد الكلام.

يشتاقونه كالأهل، كحبيب، وها هو قد تخلّى الليلة عنهم دونما عذر أو أدنى وعد بتأجيل مجالسة تتوق إليها أيامُهم العابرة برتابة، رغم ما يكتنفها من عمل وجدّ وتحصيل علمٍ يضعون الجزءَ اليسير منه في خدمة النفوس وتطبيبها لتأمين قوتهم وما يحتاجون لصون حيواتهم المكرّسة لدراسة علم الحروف والأعداد، وللسهر على لوح القضاء والقدر وعلى حرمة المكان.

قال جابر ـ وكان الأصغر سنّا مع جابر الذي جلس كالعادة ملاصقا له بحيث كان الإخوان يمازحونهما بإطلاق لقب التوأمين عليهما أو بسؤالهما إن صدف ورأوهما منفصلين، "هه، أين ظلّك يا حَيّان" ؟ أو "هل فقدت نصفك يا جابر" ؟ ـ : ربما كان الشيخ الأكبر متعبا أو مصابا بوعكة. لذا تراه غادرَنا على عجل.

وعقّب حَيّان: أجل، هو هذا في أغلب الظنّ. لكنه سيتعافى غدا، أليس كذلك يا جابر ؟

نظر جابر إليه شذرا، ثم أشاح بوجهه ممتعضا، فسارع الحكيمُ إلى طمأنة هذا الأخير بأن قال: لا بأس عليك. الشيخ الأكبر على خير ما يرام. هي حالة أخينا سَرّاج التي جعلته يغادرنا على وجه السرعة. ظنّي أنه سيسهر عليه أو يبقى متيقّظا لأدنى إشارة تصدر عنه، بما أن غرفتيهما متجاورتان.

لم يقتنع شمس الدين بما تقدّم به الحكيم من تفسير. لكنّه آثر الامتناعَ عن التلفظ بأي تعليق حفاظا على راحة بال إخوانه، والصغيرين منهم تحديدا، جابر وحَيّان. أترى الشيخ الأكبر وجد مشقّة في التحدّث إليهم عمّا وصلت إليه أعمالُه، أم أن الكشف امتنع عليه فاضطرب وجدانُه وأنف مكاشفتهم بالأمر ؟ إن نضبت روحُ الشيخ الأكبر وما عادت قادرة على الاتصال وعلى سبر سرائر المعاني والألفاظ والحروف، ما سيكون مصيرُهم ومآلُ معجمهم السرّي ؟

لا تعدّ أخويتُهم كثرة من الإخوان. ولكن ما همّ، ما داموا يعملون ليل نهار. منذ الصباح الباكر، تستقبل الأخوية الزوّارَ من قرية "اليُسر" ومن القرى والبلدات المجاورة والبعيدة، حتى تبلغ الشمسُ أعلى قبّة السماء. يصطفّون بالعشرات صامتين، تخيّم عليهم رهبة المكان. حتى البهائم التي يصطحبونها للتبرّك أو لتركها عند باب المزار، يستولي عليها الجمود. هو سَهْل ـ سَهْل الربّ أموره ـ من راح إلى الشيخ الأكبر ونقل شكوانا:

كيف ننصرف للدراسة ولوضع معجم سرائر الحروف، إن كنّا مقتحَمين ليل نهار؟

وما تقترح، سأله الشيخ الأكبر، أن نقفل بابنا في وجه من يسأل وهو في حاجة إلينا ؟

لا، أجاب سَهْل. بل نحدّد موعدا للزيارات فلا نجحف بحق أحد ولا نظلم أنفسنا.

أطرق الشيخ الأكبر ساهما ثم قال: حسنا. أمهلك يومين تعود إليّ من بعدهما بما تقترحونه من تنظيم جديد.

ولم يمضِ يومٌ كامل إذ نادى علينا سَهْل منذ خروجه لإطلاعنا على ما أفضى إليه نقاشُه مع الشيخ الأكبر، فاجتمعنا للتوّ وتقدّم كلّ منّا بفكرة:

قال سَرّاج وكان الأكبر سنا بيننا: يجيئون أفرادا لا عائلات، إذ ما حاجة الأم إلى اصطحاب أولادها جميعا إذا كان ولدٌ وحيد لها هو المحتاج علاجا ؟

وقال ابن مسرّة: نمنع عليهم تقديمَ البهائم من بط وإوز ودجاج...

ضحك الإخوان وضحك ابن مسرّة ثم تابع: أتعلمون ما أصرفه وجابر وحَيّان، من وقت في إعداد الطعام ؟ ماذا لو سألناهم أن يكتفوا بتقديم ما يسَهْل حفظه وتحضيره. وما يفيض عنا نوزّعه على المعوزين والفقراء، كما نفعل بأموال النذور.

وقال ابن عطا: تبقى الأحجبة والتعاويذ والعقاقير و...

فقاطعه سَهْل مطمئنا: لا عليك. هذه وجدتُ لها حلا بعد طول بحث وتفكير. قلّما رام الزوّارُ ما لم نعتد سماعَه مئات المرات. فما عدا الأمراض على أنواعها، وما عدا مسائل الزواج والطلاق والحَمْل والوضْع وعودة الغائب واسترجاع الضائع وتأمين الأرزاق والحماية من الحسد والعين وحلّ المربوط...، هل جاءنا من فاجأنا بطلبٍ حادَ عن توقّعنا حتى الآن ؟

لا، أجاب الإخوان جماعة وأفرادا، فتابع سَهْل: حسنا، نحضّر إذن مسبقا حجابا أو تعويذة أو عقارا في كل باب من الأبواب التي ذكرت، ونترك فارغا المكانَ حيث ينبغي إضافة حروف اسمي السائل وأمّه !

دُهش الإخوانُ لغرابة الاقتراح، فما كان من حَيّان إلا أن وثب من مكانه هاتفا بحماس: ونكتب الأسماءَ على الأحجبة والتعاويذ والعقاقير، ثم نضعها على باب المزار كي يتعرّف إليها أصحابُها حين يعودون لأخذها !

هزئ جابر وقال ممازحا: ومن يعلّمهم القراءة يا حَيّان، أنت !؟

فضرب حَيّان رأسَه بكفّه متداركا: آه، نسيتُ ألا أحد منهم يجيد فكّ الحرف !

ثم بادر الحكيم إلى نجدته إذ قال: لا بأس، يجلبون معهم ما يساعد كلا منهم على التعرّف على حجابه الخاص، خيطا أو قماشة أو حتى عيدان نوثقها إلى الغرض الذي نضعه أمام باب المزار. هكذا يتبرّكون، يأخذون حاجتهم ويمضون !

ونكسب نحن وقتا ثمينا لا يقدّر، عقّب سَهْل.

استمرّ النقاشُ وتوالت الاقتراحات، فحُذفت نقاط من هنا وأضيفت أخرى من هناك. علّق شمس الدين، تبعه الحكيم، ثم سَهْل وابن مسرّة وابن عطا من بعدهما. وعقّب سَرّاج وجابر وحَيّان مجددا، إلى أن اكتمل التنظيم، فدوّنه سَهْل على ورقة واتجّه به مباشرة إلى الشيخ الأكبر الذي قرأه بتمعّن قبل أن يجيب:

ما دام هذا رأيكم، فليكن. على أن نختبر سلامة التنظيم لوقت نقرر من بعده اعتماده على الدوام، أو تعديل وحذف ما يتضح أنه مصدر إقلاق لنا وللآخرين...

وثبت حسنُ التنظيم الجديد.

واستقرّت المواعيد.

واستمرّت الزيارات.

وارتاح الإخوانُ بعد أن اقتصدوا وقتا خصّصوه للبدء في وضع معجمهم الكبير. أجيالٌ تعاقبت من أهل أخوية الوفاء على دراسة كل ما وُضع من أعمال، على المقارنة فيما بينها والتدقيق في مضامينها والتعليق عليها، وصولا إلى جماعتهم، فكّر شمس الدين، وقد خصّها الربّ بحلول الشيخ الأكبر فيها، بئر العلم الذي لا يفوقه أحد في سبر سرائر الكلمات وفي التماس باطن الحرف.

حين أطلعهم على نيّته البدء أخيرا في تأليف معجم سرائر الحروف، لم يصدّقوا للوهلة الأولى: هل يُعقل أن يكونوا هم، دون سواهم، من اصطُفوا ضمن من تقدّم عليهم من جماعات في أخوية الوفاء، لتُحِلّ بينهم ذاك الذي ستمنّ عليه بنعمة كشف معاني الحروف، واسطة التأمّل بين الخالق والمخلوق ؟ سألوه ذات يوم: ماذا لو سبقتنا أعمارُنا فانقطعت قبل أن نتمم ما اختُرنا له من مهمّة ؟ فأجاب: يُكمل من يجيء من بعدنا. فهذا عمل لا يكتمل إلا على مدى أجيال.

سنوات ولم يتجاوزوا في معجمهم حرف الحاء (ح). والشيخ الأكبر يغيب. ثم يظهر. ثم يغيب. إلى أن سمعوا صراخه يوم انتهاء امتحان الحراسة فهبّوا إليه ووجدوه ملقيا على الأرض في دار خلوته مرتعدا، مزبد الفم، غائم العينين. قال لهم سَرّاج وكان الأدرى بينهم: إنه في حالة انتقال. دعوه واخرجوا وسأبقى أنا معه أرقبه من بعيد.

غادروا وتجمّعوا في البهو، إذ عزّ عليهم أن يستأنفوا عملَهم وشيخهم الأكبر في حالة غياب، بل في طور جذب وانشداه. بقوا هكذا مكبّلين بسلاسل القلق والانتظار حتى خيّم المساء، فعاد إليهم وما عرفوا كيف يحتفون به ويعبّرون عن فرحتهم برجوعه إليهم. وحده سَرّاج بقي حالك الوجه لأيام. ولم يفهموا ولم يحظوا منه بردّ، بالرغم ممّا حاصروه به من أسئلة وانهالوا عليه به من استفسارات. بقي مطبق الشفتين، مضطرب الملامح، لأسابيع. ثم رجع النطقُ إليه. لكنّ عينيه أخذتا تنطفئان وراح لسانُه يروي ما يختلط عليهم، وصولا إلى ما طالعهم به هذا المساء من حلم هو أشبه بكابوس.

يخاف عليه الشيخُ الأكبر ويداريه لطول العشرة بينهما، وهما الأَخَوان الأقدم حضورا في أخوية الوفاء. يخاف عليهم جميعا ويحنو كأب رؤوف. وكالأب يؤنّبهم في أحيان، ويحنق في مرات، فيخرج عن طوره إلى نوبات غضب تعكّر مياه الهدءة والأمان حيث يسبحون. ثم يداعبهم حتى تفترّ شفاهُهم عن ابتسامة، فيغادر مطمئنّا إلى أنهم استرجعوا طيبَ المزاج.

ثم يغيب. ثم يظهر. وفي جعبته أعقد العِلم وأبهى الكلام. ألم يردّد على مسامعهم مرارا وفي عدة مناسبات: طبعُ الكلمة الغدْر. تنظر إليها لسبر مكنونها، فتتزيّن كالأنثى حتى يلتبس عليك الأمر. تتغاوى حائلة بينك وبين معناها الحقيقي، معناها الباطني، كي يمتنع عليك جوهرُ الكلام، كنهه الذي لا ينتظم خارج معنى كل حرف.

بواطن الحروف ! ذلك هو ولعه وسبب وجوده والشمس التي تنير روحَه وتمدّها بالحياة. الشيخ الأكبر بئر علم ومستودع إيمان ومحيط يقين وغابة تواضع. ومع ذلك، فهو يربكهم أحَيّانا كيوم ظهر عليهم بغتة ثم قال: اشطبوا كل ما أعددتموه عن حرف الباء !

ماذا ؟! نشطب عشرات الصفحات ونرمي ما دوّناه خلال شهور كاملة وما قضينا في جمعه سنوات ؟!

اعتذر الشيخُ الأكبر وطفح العرقُ منه وهو يقول: ما حضرني الليلة أشار عليّ بالتحقق مما أدركتُه خطأً. احذفوا حرفَ الباء، أردف ثم غاب.

بكينا جميعا. سالت دموعُنا غزيرة كالسيول. ثم تعانقنا ورحنا نشهق ونختنق بنحيبنا كالأطفال. وقف سَرّاج على حنق وأفتى: تخرجون جميعا، الآن وفي الحال ! اذهبوا إلى الواحة خلف المزار واصطحبوا ما استطعتم من حبال. انصبوا بين أشجار النخيل أراجيحَ وتأرجحوا فيها حتى يرحل الغمُّ عنكم، ثم عودوا مساء وأنا سأهتمّ بإعداد العشاء.

امتثل الإخوان. كانت صدورُهم مثقلة بأكثر ممّا يُعينهم على فتح أي نقاش. هما جابر وحَيّان اللذان بدآ، تساعدهما على ذلك طراوةُ سنّهما. تراشقا بالماء حتى ابتلا كجرذين صغيرين وراحا يتمسّحان بالآخرين إلى أن انتشر الضحكُ بيننا وتعالت الصيحات، فيما الأراجيحُ تحملنا إلى السماء وتعيدنا إلى الأرض، كوريقات يلاعبها النسيم.

شيئا فشيئا، تخفّفنا من كدرنا وعدنا كما أمرَنا سَرّاج بعد أن غابت الشمس عن وجه السماء. كان الشيخ الأكبر أمام الباب في انتظارنا. عانقنا فرداً فرداً وقبّل رؤوسَنا، ثم تبعَنا إلى البهو حيث اجتمعنا لتناول العشاء. مازحَنا طويلا وحين جاء موعدُ ارتشاف الشاي، صمت لحظاتٍ بادر بعدها إلى إطلاعنا على بواعث قراره ذاك:

لكل حرف طباعه ومقوّماته، كما هي حال البشر الذين يتوزّعون على مختلف الأمزجة وأصناف السلوك. لكن، من ذا الذي يقرّر للعباد الطباعَ والمسلكَ والمصير، ويهبُ الكلامَ روحَه وجوهرَه ومعانيه ؟ أليس هو السامي المتسامي، مالك الأسرار، الكلّي المقتدِر القدير؟ اللغة الآدمية هي تجلّي اللغة الربّانية، لأن الوجود هو كلمات الربّ. لذلك تملك الحروفُ ظاهرا وباطنا، الأول متصل بما وُضع من تعريفات لغوية لمعاني الألفاظ يُبيح تجاوزُه إدراكَ الثاني، أي باطن الحرف، من خلال انخلاع حجاب الغفلة عن القلب والاتصال بالغيب عن طريق الكشف، لكي يحصل الإلقاء والتلقّي، التداني والترقّي. فاعلموا أن مراتبَ الحروف متّصلة بمخارج الحروف، وأنها موزّعة بين عامّة وخاصّة، وأن الخاصّة منها مقسّمة على عدة درجات تتبوّأ الحروفُ الرُسُلُ أعلاها، وأن الفرق بين حروف التكلّف وحروف التحقّق يحدِّد بالتوازي الفرقَ بين أهل الأنوار وأهل الأسرار، استنادا إلى تنويعات قيمة الحروف الرقمية. فحروف الهجاء ثمانية وعشرون. وهي بعدد منازل دورة القمر. ولكلّ منها فلكُه وسني حركة فلكه وعدده ومرتبته وبسائطه وأطباعه من

البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة، وذلك ارتكازا إلى قول ابن عربي، حين كتب في معرفة الحروف ومراتبها والحركات:

" إن الحروف أئمة الألفاظ شهدت بذلك ألسنُ الحفاظ
دارت بها الأفلاك في ملكوته بين النيام الخرس والأيقاظ
ألحظتها السماء من مكنونها فبدت تعزّ لذلك الألحاظ
وتقول لولا فيض جودي ما بدت عند الكلام حقائق الألفاظ ".

عالج الشيخُ الأكبر جفافَ ريقه بجرعة ماء، قبل أن يختم حديثه بالقول: إن تجاوز حرفٌ حرفَه، أي حدّه وحدوده، أفلا يُخشى أن نقع كمن سبقنا في متاهة التخريف والتحريف ؟ أفلا تغفرون لي إذن خطأي، إن كنتُ قد أسأتُ تحديدَ دلالات حرف الباء ؟

بلى ! أجابوا جميعا. ثم قاموا إلى محترف الكلام فجمعوا ومزّقوا كل ما سوّدوه في حرف الباء من أوراق.

استتبّت الأمورُ في اليوم التالي.
وعاد كل شيء إلى مجراه الطبيعي في ما تلاه من أيام.

يحبّونه بأكثر ما يفوق الحبّ بكثير. ذلك أنهم على يقين بأنه حلقة الوصل بينهم وبين من يختصر كل الأسرار والمعاني في حرف واحد من أسمائه. ولكن، ماذا لو أُقفل بابُ التلقّي والكشف في وجه الشيخ الأكبر، فما عاد قادرا على رؤية أشياء الغيب ومحاكاة أرواح الحروف ؟

أفلتت هذه الجملة من فم شمس الدين على غير إرادة منه، فالتفت إليه الإخوانُ مصعوقين، مرتبكين، حائرين فيما يعلّقون أو يجيبون. هو ابن مسرّة من قضى على الذهول الذي اعتراهم، إذ انتصب فجأة وقال: نأوي إلى النوم وقد تقدّم الليلُ بنا كفايةً يا إخوان !

٤

أوى أهلُ قرية "اليُسر" إلى النوم مطمئنين إلى صباحٍ سيرجع إليهم بما اعتادوه، غافلين عمّا يبيّته لهم الغدُ وقد قرّر خلدون اختطافَه وتمويهَ ملامحه.

عبَر الأزقة وهو يتلفّت إلى شقوق النوافذ والأبواب يتسرّب من بين أهدابها بقية نورٍ أثقل دفءُ النعاس بصيصَه، ثم ولج شارعَ الحوانيت فاستقبلته ستائرُ مسدلة في وجه فئران تعبث هنا وهناك، وكلاب داشرة تلوب على ما تُسكِن به وجعَ بطونها. مرّ من أمام حانوت زيدون الورّاق، فتمهّل قليلا يتأمّل ستارته التي لن ترتفع كجاراتها في كل صباح. رحمك الرب يا زيدون. ما زال حانوتك مقفلا منذ شهور. لا وريث يرث من بعدك، ولا أهل ولا

أقرباء. غريبا كنتَ عن قرية "اليُسْر" وغريبا متَّ، وما عرف أحد حقيقة أصلك وفصلك، ولا من أين أتيت...

يمرّ الصبيُّ خلدون أمام حانوت الورّاق، ثم يقف في الباب من دون حراك. يلتفت إليه زيدون مرة، أو اثنتين، قبل أن يستأنف وضعَ عينيه الزجاجيتين في صفحات كتابٍ يرفعه بمحاذاة وجهه كي تسهل قراءته. هكذا. على هذه الحال. خلال أسابيع. الصبيّ خلدون في الباب، وزيدون في حانوت يغصّ بورق أصفر لا حاجة لأحد به، إذ ما تفعله قرية لا تملك مدرسة أو ما يشبه الكُتّاب، بحانوتي غريب مهووس بالأوراق ؟

ومع ذلك، تتناقص كدسُ الأوراق حتى يفرغ الحانوتُ منها تماما، ثم يختنق بها من جديد. والصبيّ الذي يجيء كل نهار ليقف في الباب متأمّلا جانبا من وجه الحانوتي يضع على عينيه دائرتي زجاج ويحدّق خلال ساعات في كتاب، لا يفهم سرَّ اختفاء الأوراق أو معاودة ظهورها، وجمودَ هذا الرجل الذي لا يطرده من أمام بابه كما يفعل الحانوتيون في شارع الحوانيت.

إلى أن وضع على العتبة ذات يوم، كوبَ لبن وبعضا من حبّات التمر. نظر إليها الصبيّ وكان جائعا، فانحنى يلتقطها منتظرا التفاتة الورّاق إليه، وهو يبتلع لعابَه المتدافع تحت لسانه كي لا يفاجئه الآخرُ في لحظة ضعف، متلبّسا بجريمة شطط الريق والاشتهاء. كان في نيّته التأمّل فيها لثوان، ثم إعادتها بازدراء إلى حيث كانت، على مرأى منه. لكن، ما التفت زيدون، فهرس خلدون التمرَ تحت نعله ورمى بكوب اللبن بكل ما أوتي من قوة على أرضية الحانوت، ثم طفق يعدو حتى أصبح في مأمن من أي عقاب. وحين استدار ليتأكّد من أنه نفذ، لم يجد الحانوتي في أثره، بل في حانوته على وضعيته نفسها، هو وكتابه بين كدس الأوراق.

ثم غاب خلدون أياماً. لم يغب تماما إذ كان يختبئ مراقِبا من بعيد، مستغربا تصميم الورّاق على وضع التمر واللبن على عتبة حانوته كل نهار. هل هو فخّ تنصبه لي كي تستدرجني فأقترب فتمسك بي وتعاقبني ضربا على ما فعلتُ ؟ أم أنها راية بيضاء ترفعها كي أثق بأنك غير حاقد ولا تريد بي شرّا وقد صفحتَ أيها الحانوتي ؟ لو أراد معاقبته لفعل

ذلك مباشرة، فكّر الصبيّ. ولكان على الأقل أتى بردّ فعل، انتفض أو زعق أو أبدى غضبا أو أطلق شتائم أو نعوتا بأسوأ الأوصاف. لكنه لم يفعل شيئا من هذا، بل بقي جامدا كأنه عرف مسبقا ما دار في ذهن خلدون، حين رماه بما رماه وفرّ هاربا.

دجّنه الورّاق. كحيوان برّي. بصبر ومكر. إلى أن اجتاز الصبيّ يوما عتبة الباب فاقتعد الأرضَ في مواجهته، نزع عن أنفه الزجاجتين ووضعهما على عينيه، ثم أخذ الكتابَ من يديه وفتح حدقتيه على اتساعهما وهو يبحلق فيه. ابتسم زيدون، فقام خلدون إلى كوب اللبن فشربه دفعة واحدة، ثم التهم التمر وهو يتلاعب بتعابير وجهه كي تقارب في شبهها ملامح القِرد.

دجّنه. فتبنّاه خلدون بعد أن قرّر أن يجعل منه في سرّه أباه الذي توفي وهو على ثدي أمّه. دجّنه وربّاه وعلّمه ما ينبغي لرجل أن يعلّم ولدَه الوحيد. أمسك بيده الصغيرة مُطبقا أصابعه على قلم، ثم خطّ على ورقة وهو يتهجّأ: خـ لـ د و ن ! أرايتَ ؟ لقد كتبتَ اسمك يا صبيَّ ! وطار الصبيُّ فرحا وظلّ محتفظا بالورقة لأسابيع، إلى أن امّحت حروفُها وتمزّقت طياتُها، فعاد إليه بعينين دامعتين. لا بأس، قال له الورّاق، أعلمّك كيف تخطّ اسمَك على ورقة جديدة. لا بل أعلمّك حتى كتابة حروف الأبجدية بحالها وفكّ رموزها واصطياد قلوب الكلمات !

حتى جاءت أمُّه ذات صباح. تبعته على غير دراية منه لتتبيّن سببَ غيابه المتكرّر عنها. دخلت الحانوتَ وانفجرت كبركان. أرْخَتْ حمولتَها من الصراخ والزعيق والشتائم والاتهامات، ثم صفعت خلدون وجذبته بعنف لتعود به. وقف لها زيدون في الباب مؤكّدا أنه لا يريد بولدها أي سوء، وأنه إنما يعلّمه القراءة والكتابة لأن الصبيّ شعلة ذكاء وتربة غنية ستُنبت أفضلَ الثمار. وأمّه تنقل بصرَها بينه وبين الحانوتي وهي لا تفهم ما علاقة كل هذه الخصال الحميدة والأوصاف المجيدة بولدها الشقيّ المتّسخ العاق، سفّاح القطط والكلاب الشاردة، قاتل الحشرات وكل ما دبّ على الأرض !

حتى وجد زيدون المفتاحَ إلى قلبها وعقلها فعرض عليها أن يأخذ ابنَها صبيّا له يعمل في الحانوت، لقاء أجرٍ يدفعه لها كل أسبوع. كتمت أمُّه ابتسامة، ثم عقدت حاجبيها

وسألت: كم ؟ فأجابها الورّاق: ما أردتِ. فحدّدتْ مبلغا. وقبل هو. فيما خلدون واقف بينهما يمسح أنفَه وما سال على وجهه من دموع. وحين غادرت بعد أن سوّت ملابسَه وأوصته بإطاعة أوامر "المعلّم زيدون"، جلس الحانوتي منهكا يجفّف عرقا أغشى بصرَه ولوّث زجاجتي عينيه. فما أمهله خلدون وقتا كي ينتهي، بل ارتمى عليه يعانقه حاشرا رأسه الصغير ما بين فسحة العنق والرداء.

رحمك الربّ. كم كنتَ واسع القلب، عميق الرحمة، أصيل النُبْل. يتّمتَني بوفاتك عشرات المرات، إذ فقدتُ برحيلك الأبَ والأخَ والمعلّمَ والصديقَ والأهل. أتذكُر يوم حملتُ إليك طائرا جريحا وجدتُه أرضا، كي أثبت لك أني على عكس ما ادّعته والدتي، لستُ سفّاح حيوانات، فأخذتَه ومسحتَ شعري ثم ساعدتَني على تجبير جانحه الكسير. وحين شُفي، أعدتَه لي وقلت: هو صقر صغير يا خلدون. أتريد الاحتفاظ به ؟ فنظرتُ إليك، ثم خفضتُ عينيّ، فأجبتَني: أعرف. ولا حاجة إلى إقلاق أمّك. نبقيه في الحانوت حتى يكبر، فتدرّبه على الصيد والطيران، ثم نفلته كي يعود إلى أهله. أتختار له اسما ؟ حُرّ ! أجبتُك على الفور، فقلتَ: حسنا، نسمّيه إذن حَرار.

وكبر حَرار. أصبح صقرا يحلّق عاليا في السماء. أطلقتُه مرارا فما عاد إلى أهله. وحاولتُ تدريبَه على الصيد فما أراد. بل بقي يبيت في الشجرة أمام الحانوت. يلاقيني صباحا حين أجيء إليك، ويغادرني حين أعود إلى أمّي. أسألك: كيف يكبر ونحن لا نطعمه إلا مرة في اليوم، إن كان لا يصيد ؟ وتجيبني: إن في الحياة ألغاز لا نقدر دوما على حلّها. فأغتنمُ الفرصة قائلا: كلغزك أنت وما تخفيه من أسرار ؟ وتبقى صامتا. وأعتذر منك ككل مرة أطرح فيها عليك أسئلة عن ماضيك ولا تردّ. ما الذي أخفيتَه وذهب معك إلى القبر ؟ ...

توقف خلدون يحكّ جلدَه تحت خرقة الصوف. تبّا لك أيها الشيخ الأكبر ! أما كان بإمكانك أن تختارني حارسا فتبعد عنّي كلّ ما أنا الآن فيه ؟ عشر سنوات من عمل يقوم على الوقوف على باب المزار ليل نهار لحراسة صندوقه المحرّم الحاوي لوح القضاء والقدر، أُحال من بعدها على التقاعد وأظلّ أقبض معاشا إلى نهاية العمر. هذا ما أضعتَه عليّ أيها اللئيم لأنك فضّلتَ الأسوأ بيننا، ذلك "السَعْدان" سَعْد. لو اخترتَ حسام مثلا، لكنتُ

فهمتُ دافعَك إلى رفضي بالرغم من كل ما أمتاز به من كفاءات. لكن، أن تختاره هو بالذات ؟!

وأمّي التي ركضت إليّ وهي تملأ الأرجاء بالزغاريد، وهي تمطرني بالأسئلة وقد عدتُ من امتحان دام أياما: هه، متى تبدأ ؟ وأين بذلة الحراسة والعمامة والسيف ؟ وهل أفهمتهم أن خالك كان حارسا من قبلك ؟ وهل عرفتَ بوفاة المسكين زيدون ؟...

دفعتُها عنّي وطفقت أعدو حتى وصلتُ الحانوت. كان فارغا منك. وما استقبلتَني. وما ابتسمتَ لي خلف نظّارتيك المتّسختين. وقعتُ على ركبتيّ وأنا أشهق شهيقَ الأولاد. لا أعرف من كنتُ أبكي وماذا. أفقدانك أنت، أم فشلي في امتحان الحراسة، أم أشعوري بالارتياح من عدم مواجهتك بعد كل ما صرفتَه معي من وقت وجهد ؟ كنتَ تعرف كل ما سأمرّ به، في أدق التفاصيل. وحين تعجّبتُ وسألتُك إن كنتَ قد تقدّمتَ بدورك للامتحان، ضحكتَ وأجبتني: أضفْ هذا اللغزَ إلى قائمة ما جمعتَه عنّي من ألغاز !

خرج حسام ووقف يتأمّلني وأنا معلّق بشفتيه. ماذا ؟ سألتُه، فلم يتلفّظ بحرف حتى كرّرتُ عليه السؤال. فقال: دورك الآن، ينتظرك في البهو. ثم ابتعدَ قبل أن أتمكّن من الاستفهام كيف أجد البهو ومن يدلّني إليه. تريّثتُ قليلا علّ أحد الإخوان يأتي لاصطحابي كما حصل للآخريْن. إلا أن أحدا لم يظهر، فأصابني هلعٌ وقلتُ ربما اعتقد الشيخُ الأكبر أني انسحبتُ أو ظنّ أني أتلكّأ أو أتردّد أو أتحادث مع حسام، لأعرف أي نوع من الأسئلة أو الأحاجي طرح عليه. وازداد خفقانُ قلبي وأنا أشعر الثواني تمرّ مسرعة، بينما أنا أسيرُ موقفٍ سخيف سيفوّت عليّ فرصة العمر.

حزمتُ أمري وعبرتُ الباب، فواجهني رواقٌ معتمٌ طويل وعددٌ من الأبواب الموصدة على جانبيه، احترتُ في أيّ منها أختار. سعلتُ مرة. ثم مرتين. ثم تنحنحت آمِلا أن يتنبّه أحد إلى وجودي. غير أن الصمتَ استمر مطبقاً، كما هي حال كل تلك الأبواب الصمّاء.

انتهى بي الرواقُ إلى غرفة فسيحة أشبه ببهو. قلت هي حتما هذه، فقررت دخولها وأنا على يقين أني سأجد الشيخَ الأكبر متربّعا بانتظاري على الحصيرة التي تغطي أرضَها. أعددتُ الجملة الأولى التي ستلي سلامَ التحية، حريصا على الاعتذار مباشرة لمحو ما قد يكون داهمه من سوء انطباع. لكني وجدتُ نفسي واقفا في البهو، فاغر الفم كحمار. يا الله ! ما هذا الكابوس ومتى أفتح عينيّ ؟ لا بأس. تنفسْ عميقا يا خلدون، وحافظ على رباطة الجأش. ها أنت في الأخوية وشيخك ينتظرك اللحظة على بعد أمتار، لا بل على مقربة خطوات !

تركتُ البهوَ واتّجهت إلى حيث أخذتني قدماي. رأيت بابا مشقوقا فقلت هو هذا حتما. ففتحته فأطلّ عليّ درج أخذته حتى أفضى بي إلى ما يشبه ردهة ضيقة، معتمة، تبيّنت بصعوبة امتلاءها بشتى أنواع الأغراض أخفى الغبارُ وخيوطُ العناكب هويتها. استدرت لأعود على أعقابي مدركا أني أخذت وجهة خاطئة. وما أن وطئتُ الدرجة الأولى، حتى تناهت إلى سمعي أصواتٌ متأتية من طرف الردهة إلى حيث اتجهتُ حريصا على تفادي الاصطدام بما اجتمع من ركام هنا وهناك. مددتُ يدي أتحسّس الحائطَ أمامي، فإذا هو لوح خشبيّ انصاع ملتفا على نفسه بحركة دوران دفعتني إلى الداخل حيث انكشف عليّ مشهدٌ جمّد الدماءَ في عروقي، كما جمّد حدقاتِ الأعين التي التفتت مصعوقة تحدّق بي.

بقدر ذهولي كان ذهولهم. ولبثنا هكذا نتناظر للحظات، قبل أن تبدأ عيناي باستكشاف طبيعة المكان وتفاصيله، لتبيّن سبب اجتماع الإخوان ها هنا، في ما لا يترك أدنى شكّ بأنه سرداب سرّي. تشاوروا في صمت، قبل أن يقرّروا في شبه إجماع ضمني، الانقضاضَ عليّ مرفوعي الأذرع كأنما لإخفاء ما ينبغي ستره، ولمنعي من رؤية ما هو فاضح، ما هو أقرب إلى حالة عُرْي.

دفعوني إلى الخروج، ثم أمسكوا بي لظنّهم أني سأهرب، واصطحبوني إلى حيث كان الشيخ الأكبر متربّعا في البهو حيث مررتُ قبلا ولم أجده. أطلقوا كلاما سريعا متسارعا ضمّنوه عبارة "محترَف الكلام"، فيما أنا أسترجع تفاصيل ما رأيت، مركّزا على كدس الأوراق التي احتلّت رفوفا بأكملها، وقد تعرّفتُ فورا إلى صفرتها ورائحتها التي تملأ خياشيمي عندما ألج باب الحانوت كل صباح. هذا هو إذن سرّ اختفاء الأوراق ومعاودة

ظهورها ! ولكن، ما سبب كل هذا التستّر يا زيدون حول اتجارك بالورق مع أخوية الوفاء ؟ هل هي طبيعة أعمالهم التي فرضت عليك الكتمان، أم أنها الطلاسم والأحجبة التي تنتمي إلى عالم السرّ ما منعك من البوح، ما أخافَهم حين رأوني، وما يجعلني اللحظة أرتعد كطفل ؟

رفع الشيخُ الأكبر كفّه، قاطعا سيول الكلام: دعوني وحيدا معه وعودوا إلى أعمالكم. قال ذلك وافترّت شفتاه عمّا يشبه ابتسامة لم أعرف أهي لطمأنتي، أم لطمأنة الإخوان. منذ البداية ولا أدري لماذا، لم أرتح له. كان فارع القامة، جليل المنظر، طويل الأصابع نحيلها، يداه على نعومة وبياض ذكّراني بأيدي من نصادفهنّ أحَيّانا من نساء البلدات البعيدة اللواتي يأتين لاستيفاء النذور، أو للتبرّك والصلاة على باب المزار. تأمّلتُ طويلا في رأسه الحليق يعلو لباسَه الصوفي الخشن الشبيه برداء الرهبان، لا يتلاءم مع ما ظهر من نعومة على جلد أطرافه العارية، وأنا أفكّر في لحظة مغادرتي ومسارعتي لإطلاعك على ما جرى لي.

وتخيّلتكَ تصغي إليّ وتقول: مهلا، أمامنا وقت فلا تستعجل الكلام. وتصوّرتُ سلفا تعليقك الأول: أتريد إقناعي بأنك نزلت الدرجَ معتقدا البهو هناك ؟ وإجابتي: بالطبع لا، بل أني كنتُ مدركا حتى تمام الإدراك حجمَ المجازفة وما تكتنفه من أخطار. ما تريد ؟ أن يغيّر خلدون طبيعته في لحظة فيتخلّى عن فضوله وما تمارسه الألغازُ والأسرارُ من غواية عليه ؟

قطع الشيخُ الأكبر حواري الوهميّ معك حين سألني: ما الذي أخذك إلى محترَف الكلام يا بنيّ ؟

فأجبت: لقد تهتُ !

فقال الشيخ الأكبر: غريب تيهك هذا الذي حملك على النزول إلى تحت الأرض. عمّا كنت تبحث ؟

فقلت: عنك ! هو حسام من قال اذهبْ إلى البهو ولم يدلّني كيف أصل إليه.

قال: لكنّ البهو كما لاحظتَ، هو أول ما يطالعك بعد اجتياز الرواق.

قلت: وقد دخلتُه وانتظرتك أيها الشيخ الأكبر، ولم تكن فيه.

فقال: أجل. خرجتُ لترطيب حلقي بجرعة ماء.

فقلت: خفتُ أن أطيل انتظارَك، فخرجت أبحث عنك لظنّي أن البهو الذي دخلتُ، غير الذي تنتظرني فيه.

فسألني: هل أخافكَ ما رأيتَ ؟

لم أفهم قصدَه بادئ الأمر ولم أدرِ بما أجيب، لكني تذكرتُ امتحانَ الحراسة فسارعتُ أقول: ولِمَ أخاف ؟

معك حق، أردف ثم أطرق ساهما قبل أن يضيف: هم الإخوان الذين خافوا من ظهورك المفاجئ عليهم في مكان يُحرَّم دخولُه على غريب.

أنهى جملتَه تلك، والتفت إلى ورقة موضوعة على الأرض بجانبه مضيفا: تدعى خلدون. وأنت وحيد لأمّ أرملة لا معيل لها سواك. أفلن تعزّ عليك مفارقة والدتك، وحراسةُ المزار تقتضي تكريسَ وقتك وحياتك للسهر عليه طوال عشرة أعوام ؟

قلت: تأتي إلى زيارتي بين الحين والحين. فوالدتي تسكن على مقربة، في قرية "اليسر".

قال: ماذا عن النساء ؟

فاشتعلت الحمرة في وجنتيّ ودارايتُ خجلي بأن أجبته شبه حانق: لا هواية لي بهن !

ألهذا الحد ؟ قال مبتسما ثم أردف: لا بأس عليك. ستُحال إلى التقاعد ولمّا تبلغ بعد سنَّ الثلاثين. فتتزوج حينذاك وترزق بما طاب لك من أولاد، وقد اطمأننت إلى ما يوفره لعائلتك ولك، المعاشُ من راحة بال.

تململ خلدون في قعدته لظنّه بأن الشيخ الأكبر قد فرغ من استجوابه، غير أن الأخير بادر إلى السؤال: وممّا كنتما تسترزقان والدتك وأنت ؟

فأجاب: كنت أعمل صبيا في حانوت زيدون.

فقال الشيخ الأكبر: زيدون، ومن يكون ؟

فقال خلدون بنبرة لا تخلو من التحدّي: هو ذاك الذي يزوّدكم بالأوراق !

عرفتُه ! علّق الشيخ الأكبر. هو الورّاق الذي تتعامل الأخوية معه. فاتني اسمُه لأن الإخوان يدعونه الورّاق، ولأني لم أتعرّف به أبدا حتى الآن.

أنا أيضا لم أتعرّف إلى أيّ من الأخوان رغم أني أمضي جلَّ نهاراتي في الحانوت ! أطلق خلدون مبارِزا. فنظر إليه الشيخ الأكبر موارِبة كأنما ليقول: هه، صرتَ أنت من يطرح الأسئلة الآن ؟ لكنه أجاب: هما جابر وحَيّان من ينزلان إليه مرة أو مرتين في الشهر، للتزوّد بالأوراق. ولا عجب في أنك لم ترهما أبدا، إذ يخرجان ليلا لتجنّب لقاء الناس... وهل يكون الورّاق هو من دفعك إلى التقدم إلى امتحان الحراسة ؟

لا، ردّ خلدون. هي والدتي التي كان لها أخ أ²□ل اسمَه، بقي حارسا على باب المزار إلى أن قضى بنوبة قلبية بعد خمسة أعوام.

أجل، فهمتُ الآن، قال، ثم صمت متفكّرا قبل أن يعاود السؤال: وما عمل صبيّ في حانوت ورّاق ؟

الحقيقة، هي بدعة اختلقها زيدون لكي يعلّمني فكّ معاني الحروف، إذ كان يرى في عينيّ بريقَ حبّ المعرفة. هذا ما قاله، أضاف خلدون مبتسما بحياء.

تجيد فكَّ الحرف ! علّق الشيخُ الأكبر عابسا، مغضّن الجبين، فيما راحت حدقتاه تلوبان مضطربتين على ما يستوقفهما. تناول الورقة التي على الأرض فطواها، قبل أن ينهض مستأذنا ومتعجّلا بالانصراف.

والنتيجة ؟ سأل خلدون. فما التفت ظهرُ الشيخ الأكبر وما أعار سؤالَه الأخيرَ أدنى انتباه.

٥

سمع سَرّاج الإخوانَ يأوون إلى غرفهم، فتصوّر مقدارَ خيبتهم لانسحاب الشيخ الأكبر باكرا ولبقائهم على جوعهم وتوقهم إلى أخباره متى غادر دارَ خلوته بعد احتباسه فيها لأيام. عساه لا يكون قد تذرّع بحالتي وبالقلق عليّ، وعساه يتركني في حالي كما فعل حين وقف على باب غرفتي مصيخا السمع، فتظاهرتُ أنا بالنوم متحكّما بإيقاع أنفاسي التي خالطتُها بحرف الخاء.

هل يكون خدعنا طوال هذه السنين، أم أنني أنا من تسرّبت الظنونُ إلى قلبه فأصبح يأتمر بالريبة بعد أن احتضرت روحُ الثقة بين أضلاعه ؟ ليته فاتح الشيخَ الأكبر فاستفسره عمّا رآه ودكّ ركائزَ عمرٍ من الإيمان المطلق الأعمى بما يزعم أنه رسالته اليوم ورجاؤه في الآخرة ؟ هراء ! بمَ سيفيدني سؤالُه إن كنت سأشكّك سلفا بما سيقول ؟ أم هو جبنك يا سَرّاج وخوفك من ردّ فعله ما منعاك من البوح بما يضطرب في داخلك، له أو لأي مخلوق سواك ؟ أجل، هو ذاك. ولا حاجة بك إلى مراوغة نفسك بالمزيد، كما تفعل مع الإخوان حين تزعم انطفاءَ البصر وتلقي إشارات ربّانية عبر ما يجيئك في المنام.

ما رواه في البداية من أحلام كان تلفيقا، إنذارات ضمنية وجّهها إلى الشيخ الأكبر علّه يخاف، فيتعقل. باستثناء ما أطلعهم عليه هذا المساء عن مصرع الحروف، وكان رؤيا أشبه بكابوس... الشيخ الأكبر يأكل مستمِعا، معتقدا بأن سَرّاج لا يراه، والآخرون شاخصون

إليه كحيوانات البهلوانات ! أنقذه ادّعاءُ العمى، وإلا فكيف كان سيتمكّن من الانسحاب ممّا برحوا يصرفون أيامَهم في وضعه، استنادا إلى ما يمطرهم به الشيخُ الأكبر من علم تلقّاه عن طريق الجذب والحلول المفضيين إلى باب التلقّي والكشف ؟

هراء ! إذ كيف يأتي الكشفُ لمن ساءت نفسُه فحملته على عمل ما تحرَّم ممارستُه على أهل الأنوار ؟ أوَلم يكن أوّلُ عهد قطعوه على أنفسهم حين دخلوا الأخوية، هو الوفاء لقسَم وضْعِ معارفهم في خدمة الخير وتسخير علم الحروف والأعداد لمساعدة المظلوم وشفاء المريض وعودة الغائب والحفظ من المكروه والنصر على الأعداء وزيادة الرزق وتسهيل المحبة وإرجاع الإلفة وحلّ المربوط ؟ فكيف يستمرّ سَرّاج على إيمانه بمن نقض العهدَ وحنث الوعدَ فأراد إنزالَ مكروه بمن هم أقرب الناس إليه، مستخدما علمَه في غير مطرحه ومطوّعا معارفه لأذية من يربطه به يمينُ أخوّة ووفاء ؟ أجل، هذا ما كان من الشيخ الأكبر ! ولو لم تصبه حالة إغماء في ذلك النهار المشؤوم، بعد انتهاء امتحان الحراسة، لاستمرّ سَرّاج على عماه بأكثر مما يدّعيه اليوم من عمى !

علا صراخُ الشيخ الأكبر في دار خلوته، فهببنا إليه مذعورين حتى وجدناه مطروحا على الأرض، مزبد الفم، غائم العينين، مصطكّ الأسنان. قلتُ للإخوان وكنتُ الأخبر بينهم: دعوه واخرجوا، إنه في لحظة تلقّ، في حالة انتقال. هراء ! ليتني ما أمرتُهم بالخروج وأبقيتهم معي ليبصروا ما أبصرته عيناي من إثم وسوء أعمال.

بقي يتخبّط في الأرض، فدنوتُ وتربّعت عند أعلى رأسه الذي ألقيتُه على حُجري كي لا يرتطم بالبلاط، ثم حشرت طرفَ خِرقتي بين فكّيه خوفا من قطع لسانه بين أسنانه. هدأت نوبتُه بعد لحظات، وانحنيت أضع أذني على مقربة من شفتيه كي أطمئنّ إلى أنه لم يفقد الروح، فبانت لعينيّ عبر قبّة خِرقته بقعة داكنة مرتسمة على الصدر. خلتُها كدمة زرقاء في البداية. لكن، ما أن أمسكتُ القماشَ ورفعتُه حتى بان لي أنه أثر حِبر امتزج بالعرق داخل وشم على شكل مثلّث تحتلّ الحروفُ زواياه والأعدادُ قلبَه المقسّم إلى مربّعات. ما هذا ؟ وما فهمت حتى قمتُ من خلفه واستدرتُ لكي أتمكّن من قراءة المكتوب بعد أن استوى لناظريّ واستقام...

إنه طلسم ! اضطرب قلبي فخفق سريعا لإدراكي أنّ ما يوضع منه على الجلد مباشرة هو أقوى الأنواع وأمضاها أثرا على الإطلاق، ولخوفي من أن يفيق الشيخُ الأكبر من إغماءته قبل أن أتمكّن من الفهم. والأكثر من ذلك كان هلعي من أن يقبض عليّ وقد فاجأتُه متلبّسا بالجرم.

ورأيتُ ما رأيت. وقرأتُ ما قرأت. وأدركتُ ما أدركت. وكان الطلسم يتضمّن حروفا نارية نحْسة يُعمل بها من الأعمال ما يختصّ بأمور الدنيا والفساد وسفك الدماء، وقد عُمل في وقت كانت الحكماءُ تسكن عن الحركة وتمتنع عن النوم لكي لا ترى ما يفزعها ويكدّر أخلاقها. في وسط الطلسم دائرة، وفي مركز الدائرة خيطٌ من صوف كذاك الذي نصنع منه خِرقنا، مغروز في اللحم الحيّ ومعقود. لربط مَن هذا ؟ تساءلت، حتى طالعني اسمُ سُلَيْمى، والدة المقصود به الربط. ومن يكون ابن سليمى هذا لتريد به كل هذا السوء أيها الشيخ الأكبر ؟ أمعنتُ النظرَ علّني أقع على أحرف اسمه بين الحروف التي سال حبرُها فامّحت...

هه، هل عدتَ ؟ سألتُه وكنتُ قد شعرتُ بتململه بين عالم اليقظة وعالم الغيب، فابتعدتُ عنه بلمحة عين وجلستُ القرفصاء على العتبة مدّعيا تلاوة ما يبعد عنه شبحَ الموت. ليتَني اختفيتُ قبل أن يصحو ويراني، قلتُ لنفسي، ثم تراجعتُ عن خاطرتي تلك لافتكاري بأن الإخوان سيطلعونه على قراري البقاء معه، فتثار شكوكُه إن صحا فوجد أني اختفيت.

لمّ أعضاءه وكانت منحلّة، ثم استقام وهو يُصلح من حال لباسه، مستطلعا ردَّ فعلي بين الحين والحين. لا أدري ما أصابني، قال. فأجبته ووصفت تفاصيل ما انتابه من أعراض. بقي مطرقا وصمتُّ أنا. ثم بادرني بالسؤال الذي توقّعتُ: أتكلّمتُ في إغماءتي ؟ لا، أجبتُه على الفور، ثم أردفت: ما عدا ما كرّرتَه ثلاثا: يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ ! هنيئا لك أيها الشيخ الأكبر، فقد انفتح عليك بابُ الكشف على أقصاه هذه المرة، وهنيئا لنا لأننا سنفيد مما رأيتَ وتلقيت !

صدّقني.

ونجوتُ.

وحين اجتمعنا في البهو مساء، حار الإخوانُ فيما يفعلونه احتفاءً به وتعبيرا عن فرحتهم برجوعه إلينا. أنا أعدّ الثواني والدقائقَ التي تفصلني عن موعد الخلود إلى غرفتي كي أفكّ الحبلَ الذي أوثقتُ به صدمتي مما رأيت، فتنفلت مشاعري على مداها ويضطرب فؤادي ما طاب له ؛ وهو يحكي وهالة إشراق تنير ملامحَه، فيما أنا جالسٌ على نار الأسئلة التي تغرز لهيبَها في لحمي. تتناوب عليّ المخاوفُ والظنونُ، فأطردها وأقول: إهدأ يا سَرّاج. فكّر في سلامتك وثبّت عينيك في شفتيه مدّعيا عمقَ التركيز وحسنَ الإصغاء. انتظرْ كي تصبح وحيدا، وعندها يكون لكل حادث حديث !

قام. فقمنا. وانتهت المجالسة وخلدنا إلى النوم. هراء ! أي نوم وأنا لم يغمض لي جفنٌ طوال الليل. بل طوال ليال بحالها، والسؤال إياه يقضّ مضجعي ويمنعني من التفكير بما عداه: من يكون ابن سليمى ذاك ولِمَ يريد به الشيخُ الأكبر شرّا كهذا ؟ والإخوان يحاصرونني باستفساراتهم علّهم يُنطقونني بما تنطبق عليه شفتاي، حتى شرحتُ لهم انشغالي بحالي لما أشعره من انطفاء النور في مقلتيّ. كنتُ على قدْر كاف من العمر وفي حوزتي رصيد كبير من سنين صرفتُها في القراءة والنسخ والورع والصلاة، وهو ما أضفى صدقية على ما اختلقتُه من زعْم.

على هذه الحال. ليلة إثر نهار، وساعة إثر دقيقة إثر ثانية... إلى أن تذكّرتُ ! صباحَ خروجي إلى الواحة لتنسّم هواء يطفئ حريق روحي... أجل، هو العَلايِليّ ! وكان قد غادرنا فلم نفهم سببا لرحيله عن أخويتنا سوى ما تقدّم به الشيخُ الأكبر من تفسير: بعد أعوام من معاشرتنا، اكتشف أخونا العَلايِليّ ألا قدرة له على احتمال ما تفرضه علينا حياتُنا من مفارقة الدنيا وزهد بالملذات. هراء ! ابن سليمى هو العَلايِليّ، وكل ما استنبطه الشيخُ الأكبر عن دافع رحيله، كذب ونفاق !

هي الواحة التي أنارت فكرَ سَرّاج وأعادت الذاكرة إليه. لم يكن الخطأ في ذاكرته، بل في تقليدٍ درجت عليه أخوية الوفاء ويقضي بإطلاق اسم أحد كبار علماء الحروف والأعداد، على كلّ مُريدٍ ينتسب إليها ومنذ اليوم الأوّل. هكذا توزّع الإخوانُ أسماءَ أحمد ابن

عطا، الحكيم الترميذي، سَهْل التُسْتَري، ابن مسرّة الجبلي، وشمس الدين البوني. الصغيران اقتسما كتوأمين اسم جابر بن حَيّان، بينما اختار العَلايِليّ اسمَه هذا عن غير هدى، بانتظار اهتدائه إلى شيخ يتكنّى باسمه عن اقتناع. أفليس المبدأ هو نسيان حياتهم الماضية، الموت فيها، من أجل ولادة أخرى تحت اسم جديد يعلن انبعاثَ أرواحهم وتخففها من كل ما يمتّ بصلة إلى وجودها الدنيوي ؟ هي الواحة التي أنقذت الذكرى فيه، وهي الصدفة التي جعلته يطّلع ذات يوم على اسم والدة العَلايِليّ، إذ قلّما عرف الإخوانُ أسماءَ بعضهم البعض، وقد نسي معظمُهم حتى اسمَه الأصلي.

وجد العَلايِليَّ في الواحة حيث كان يمضي معظم أوقات راحته، ممدّدا على بطنه وجسمه ينتفض بالبكاء. أسرع سَرّاج إليه وانحنى يربت على ظهره ويطيّب خاطره ويستفسر منه الأمر. ماتت سليمى، أجابه من بين دموعه. فأدرك سَرّاج من الورقة داخل كفّه المطبقة بأنه استلم رسالة تفيده بخبر وفاة قريب. وحين سأله: ومن تكون لك، رحمها الله ؟ ازداد نحيبُ العَلايِليّ وبصعوبة فائقة أضاف: آخر من تبقّى من الأهل... امرأة عجوز لم أشفقْ على وحدتها فهجرتُها طلبا للعزلة وللعلم... أمي يا سَرّاج، والدتي التي لم يكن لها سواي !

ما الذي أتاه العَلايِليّ أيها الشيخ الأكبر، وكان هادئا، ناعما، خجولا، طريا كزهرة أقحوان ؟ وما الذي يستطيع إتيانه أصلا رجلٌ في مثل طباعه، كي تُهلك روحَك بسببه، فتتعاقد مع إبليس وترتكب معصية وتدنّس بأعمالك حرمة هذا المكان ؟ ما الذي ذكّرك به وقد مضى على رحيله عنّا سنوات طوال ؟ أبمثل تلك الخطورة كان ؟ هراء ! كل ما مرّ به عرفناه أنتَ وأنا، حين كنّا مثله في طور الشباب. منذ متى نعاقب نحن أهلُ علم الحروف إخوانا لنا على ما يرتسم في نفوسهم من نقاط استفهام ؟ ومنذ متى يُمنع أهل أخوية الوفاء من سلوك درب الشك، وهي أفضل الدروب قاطبة فيما تفضي إليه من إيمان؟ ألسنا المحقِّقين مهمّتنا فهمُ ما كشفه لنا المكلَّفون المرسَلون ؟ وكيف نفهم إن لم نستفهم ونتساءل ونستقصي ونناقض ونحاور ونحتار ؟

جلس سَرّاج في فراشه مستندا بظهره إلى الحائط، بعد أن أيقن أن النوم جافاه. صبّ ماء من القربة التي في جانبه، فشرب ما صبّ وأعاد الكرّة ثلاث مرات. من أين يجيئه كل

هذا العطش وهو لم يُدخل في جوفه ما يتسبّب بحريق الأحشاء ولم يقرب عشاء قضى الإخوانُ عليه فيما كان منشغل اللسان برواية حلمه عن مصرع الحروف ؟ ألم يكن حلمُه ذاك إشارة وافاه الغيبُ بها إنذارا وتوعّدا بما ينتظرهم إن استمرّ الشيخُ الأكبر على ممارسة ما يرتكبه في الخفاء من أعمال ؟ ومن قال بأنه يواصل أعماله تلك ؟ هل لاحظتَ أدنى ما يشير إلى ذلك بعد أن ادّعيتَ انطفاءَ العينين، فأفلتَّ من مراقبته لك وارتحتَ في مراقبتك له ؟ لا والله، أجاب سَرّاج نفسَه، مع أني أرقبه منذ شهور. إذن، لِمَ تعذيب الذات على هذه الشاكلة ولمَ كل هذه الافتراضات ؟ ومن يضمن بأن العَلايِليّ لم يكن على براءة ووداعة ظاهرتين، وهو في العمق اشدّ قسوة وبطشا من إبليس ؟ وإلا فما مبرّر ما حاكه الشيخُ الأكبر من أكاذيب وما ارتكبه من سوء أعمال، إن لم يكن حماية نفسه وصوننا ممّا أراده بنا العَلايِليّ من شرّ ؟ ألم تفاجئه ذات يوم في الواحة حيث كان يطيب له الجلوسُ وحيدا في أوقات الراحة، مُلصِقا أذنَه في الأرض، خابطا بكفّه عليها، معيدا الكرّة مرات ومرات ؟ وحين سألته: ما تفعل أيها العَلايِليّ ؟ ألم يرتبك لوقت قبل أن يجيب: أتثبّتُ من أن صوت حرف الباء يشبه قرعَ الكفّ على الأرض ؟

لم يفاجئني ذلك بادئ ذي بدء وإن استغربتُ ما بدا في صوته من ارتباك، إذ لطالما عرفنا عنه ولعَه بقراءة المعاجم، بحديثها وقديمها، وأصغينا إليه مرارا متحدّثا عن طرق وضعها وما اتبعته من نظم ومدارس على مرّ العصور... وحين دخلنا في نقاش حول أي المناهج نعتمد لوضع معجم سرائر الحروف ـ وكان ذلك بعد أن غادرنا بزمن طويل ـ متسائلين أي الأنظمة نتبنّى: النظام الصوتي عبر ترتيب المواد حسب مخارج الأصوات ابتداء بالحروف الحلقية وأولها (ع) وانتهاء بالشفوية وآخرها (م)، وهي طريقة الخليل بن أحمد في كتاب "العين" ؛ أم نظام التقفية الألفبائي المبنيّ على آخر الكلمة بحيث نسمّي الحرف الأخير من الكلمة بابا والحرف الأول منها فصلا، استنادا إلى مبتدعه الجوهريّ في "الصحاح" ؟ حين دخلنا في ذلك النقاش، أطال سَهْل في شرح المدارس المعجمية لإفهام من يجهل تلك المعلومات من ضمن الإخوان ـ إذ لم يبقَ ممّن زامَن العَلايِليّ، إلا أنا والشيخ الأكبر وشمس الدين وسَهْل ـ، إلى أن باغتنا الشيخُ الأكبر بأن حسم الخلاف مفتيا بضرورة اعتماد نظام ألفبائي بسيط، وهو ما استغربه الآخرون لما بدا في نبرته من تعجّل واستياء، ما عدانا نحن الثلاثة وقد عادت إلى مخيّلتنا سرّا ذكرى العَلايِليّ...

نظرتُ إذن إلى العَلايِليّ الملصق أذنه في الأرض وهو يخبط عليها بكفّه للتحقق ممّا تصدره من صوت شبيه بصوت حرف الباء، وقلت: لِمَ تفعل ذلك ؟

فأجاب: هكذا. ثم صمت ونظر إليّ.

قلتُ: ثمة ما يشغل بالك يا بنيّ. قاسِمْني إياه فيهون عليك.

فتردّد وقتا قبل أن يحزم أمره ويسألني: هل اللغةُ توقيف ؟

قلتُ: طبعا هي توقيف ! إنها من صنيع الربّ سبحانه وهي وحي !

فأردف: وما قولك بالذين يذهبون إلى أنها اصطلاح فيقولون بالتواضع في اللغة على الأصلح، وبأنها من صنيع الإنسان ؟

هزّت جسدي قشعريرة عبرتني كالبرق، فتمالكتُ نفسي وسألتُه: من أين لك هذا الكلام يا بنيّ ؟

فقال: هو كلام ابن جِنّي في "الخصائص"، وكلام آخرين كثر سواه !

قلت: وأين وقعتَ عليه ؟

فأطرق قليلا قبل أن يجيب: كنتُ قد شريتُ كتاب "الخصائص" من مكتبيّ جارنا قبل دخولي الأخوية.

هل ما زال في حوزتك ؟ سألتُه. فألهمهَ الربُّ بقول الحقيقة بعد أن ألهمَني بطرح السؤال. جلستُ قبالته واستفضتُ في تبيان خطأ من يدحض ما لا يقبل الشكّ، مستشهدا بما تملكه الحروفُ من أثرٍ سحريّ وقدراتٍ روحانية ومعانٍ باطنية، داعِما النظرية بالتطبيق عبر ذكر أمثلة لا ينضب معينها على ما نمارسه نحن الإخوان من كتابة التعاويذ وصنع الأحجبة، مُنهيا مداخلتي الطويلة بسؤال:

أتكون الحروف من صنيع الإنسان إذن، ولها قدرة شفاء المرضى وفكّ المعقود وقراءة المستقبل وكشف المستتر ومطالعة الغيب ؟ أتكون من صنيع البشر وقد أوجدها الربّ قبل أن يوجِد آدم، بل حتى أن أصل الوجود كلّه وسببه هما حرفان تلفظ بهما الإله إذ قال للكون: " كُنْ "، فكان ؟!

لا، أجابني العَلايِليّ. إنها وحي وتوقيف !

حسنا، أردفتُ، وقد اطمأنّ قلبي إلى أن ردّه ذاك لم يجئ من قبيل المراوغة أو من باب المسايرة، بل عن كامل إيمان واقتناع. ولكي أزيد قلبي ثقة، سألتُه: وابن جِنّي، هل أمنّا شرَّه بشكل نهائي ؟

فنهض وأشار أن اتبعه إلى أقصى الواحة حيث خبّأ الكتابَ في جذع شجرة نخيل هرمة غادرتها الحياة، فتناوله ثم رفع يده إليّ. تبسّمتُ وهززتُ رأسي: لا، لن آخذه منك. لكَ أنت أن تفعل به ما تشاء. فما كان منه إلا أن حفر في التراب تجويفا انحنينا فوقه وأحرقنا الكتاب.

شكرني، فعانقتُه وشعرت أني أعانق ابناً لي. ثم سألني ونحن نغادر الواحة للالتحاق ببقية الإخوان: يبقى سرّا بيننا ؟ فأجبتُه وأنا أربت بكفّي على ظهره: لا وجود للأسرار بين أهل الأخوية. لكن، يبقى سرّا بيننا. أعدك بذلك أيها العَلايِليّ...

وحتى اليوم، لم أحنث بوعدٍ قطعته منذ سنوات طوال ! وما أخال العَلايِليّ، أو المدعوّ ابن سليمى، أطلعَ الشيخَ الأكبر على سرّنا، أو على سرّه بالأحرى. وما أخال ذلك باعثا لرحيله عنّا، أو دافعاً لطرده من الأخوية، أو سببا لإيذائه بطلسم مكتوب على الجلد مباشرة، بعد مضيّ أعوام وأعوام !

٦

عند أسفل الهضبة التي تنهض عند أعلى قمّتها بالمزار ـ تمتدّ من خلفه حديقة يدعونها "الواحة" لأنها مسيّجة ربما بأشجار النخيل ـ وبما يجاوره على بُعدٍ كاف من بناء يُسمّى "الخانقاه" ويضمّ دُورَ الإخوان المنقطعين إلى التنسّك في أخوية الوفاء، وقف خلدون يلمّ أنفاسَه ويشجّع قدميه الحافيتين على قطع المسافة الأخيرة المتبقّية أمامهما.

أيامَ تقدّمَ لامتحان الحراسة، صعد هذه الهضبة مرات ومرات، إذ كان الإخوان قد نصبوا عند أسفلها خيمة للمتبارين الثلاثة يبيتون فيها لتعذر عودتهم إلى قراهم كل مساء. ولم تكن تلك حال خلدون. لكنه آثر عدمَ الرجوع إلى أمّه لما ستغدقه عليه من استفسارات وتعليقات حول سير الأمور، وطلبا لمزيد من التركيز واستجماع القوى التي يقتضيها اجتيازُ مختلف مراحل الامتحان...

"عندما تكبر، ستأتي عملا عظيما تضجّ به الأرجاء" ! قال له زيدون ذات مرة. فسأله الصبيّ: وما يكون ؟ فأجاب الورّاق: هو الحساب ما أفاد بذلك، لكنه لم ينبئ عن طبيعة ما ستأتيه. ثم مزّق ورقة سوّدتها الحروفُ والأرقامُ، قبل أن يضيف نادما: إنسَ ما قلتُه يا خلدون...

لم ينسَ الصبيَّ، بل عاد للسؤال بعد سنوات ليفهم بأن الحانوتي اعتمد حسابَ الجُمّل في نبوءته تلك، وهو حساب مبنيّ على جمع القيم الرقمية للحروف التي يتألّف منها اسما الشخص ووالدته، يضاف إليها ما مضى من الشهر العربي بحيث يؤخذ فاضل العدد كله ويُسقط ٣٠، ٣٠، حتى يفضل ٣٠ أو دونها...

"ستأتي عملا عظيما تضجّ به الأرجاء". لو تعرف يا زيدون أيّ عمل عظيم سآتيه عمّا قليل ! ووالدتي التي حشرت نبأ موتك بين زغاريدها واستفساراتها الساذجة، ولم تفهم

كيف دفعتُها عني ورحتُ أعدو حتى وصلت الحانوتَ فوجدته أسود من آثار الحريق وقد نظّفه جيرانُك بعد أن صلّوا على روحك فيه، وجمعوا بقايا الأوراق وما يفترض أنه عظامك، ودفنوها في مقبرة "اليسر"...

استعلمتُ: كيف حصل هذا ؟ فقالوا: هو حتما ولعك بالقراءة على ضوء القنديل. قلت: لمَ لا يكون صنيع من جاء للسرقة أو للاعتداء ؟ فأجابوا بأن لا، ثم أضاف أحدُهم: هي عدلى التي وافتنا بهذا التفسير. ومن تكون عدلى هذه ؟ سألتُ. فقالوا إنها كانت قد خرجت كعادتها في كل ليلة لتنسّم الهواء، فرأت ستارتك مسدلة وقنديلك مضاء... شططت بذهني عمّا يروون وأنا أتساءل من تكون المرأة الغريبة الطباع تلك، والنساء في قريتنا قلّما خرجن في وضح النهار، فكيف بهنّ ليلا وفي شارع خلا من الخلق !

ثم عرفتها عدلى تلك ! بل لم يطل بي الوقتُ كثيرا حتى عرفتها. وكنت قد قررّت ليلتها المبيتَ في الحانوت على فراش أعارني إياه حانوتي، في الخلفية حيث كنتَ تعدّ الشاي وطعامَنا وتبيت، هربا من أسئلة أمي ومن زعيقها ولطمها ونواحها حين ستكتشف فشلي في الامتحان. استلقيتُ منهكا من البكاء ومما صرفته من طاقة في لعن الشيخ الأكبر ووالدتي وخالي الذي كان ذات يوم حارسا ومثله أدعى أنا خلدون، إلى أن ضربني النعاسُ على رأسي فغفوت في ما يشبه الإغماءة. استيقظت على حركة في الحانوت، فظننتها روحَك لم تغادر وعادت إلى الظهور رحمة بي. لكن، هي عدلى التي ظهرت عليّ أو ظهرتُ أنا عليها، لأنها اضطربت عندما رأتني فبسملت مستعيذة من الرجيم وهي تتراجع حتى ارتطمت بالباب.

ناديتُ سائلا: عدلى ؟ فأجابت: وأنت، خلدون ؟

ولم تكن عدلى كما خلتُها امرأة عجوزا ذهب عقلها أو أصابها مسّ كي تخرج وتجول تحت جنح الليل. كانت صبية على جمال لا لبس فيه، ينجلي واضحا للعين ما أن تراه، لها من العمر ما يتجاوز سنيّ أنا بأقل من عقد على أبعد حد، وقد قررتُ أن سنّها تقرب الثلاثين.

تبسّمت وجلست وقالت: كان خير الرجال ! فتلاطمت الأسئلة في ذهني وهاجت كصخب الموج: منذ متى تعرفينه وكيف وأين ؟... قاطعت زائرة الليل صمتي وأضافت: جئت إلى الحانوت أتفقّدك ولم أكن أتوقّع وجودَك فيه، إذ لطالما أوصاني زيدون أن أطلّ عليك إن حدث ووقع له مكروه. لا تحزن، كان يحبك بأكثر مما تتصوّر وعلى لسانه كلمة وحيدة تتكرّر هي اسم خلدون. هه، هل نجحت في امتحان الحراسة ؟ سألتني، فهززت رأسي نفيا، فأردفتْ: لا بأس. ربما كان هذا خيرا لك. ثم وقفتْ وتابعتْ: أسكن في حيّ النعام، فوق حانوت العطّار. مرّ بي ذات يوم !

ولم أنتظر، إذ مررت بها صبيحة اليوم التالي وأنا أنوء تحت حمل ما يثقل عليّ من أسئلة تلكم رأسي، محيطة عينيّ بهالتي زرقة أشبه بكدمتين.

ولم تُفاجأ حين رأتني في الباب وما تعجّبت من بقائي صامتا أحدّق فيها دون أن أنبسّ بحرف. أجلستني ثم عادت بصينية فطور. أكلتُ بنهم لا عهد لي به، أسكِت جوعَ أيام وأسابيع وشهور، أردم هوّة انفتحت في داخلي فجأة فأشعرتني للمرة الأولى بأني يتيم وضئيل. عدلى في مواجهتي على أريكة في الأرض. مرفقها مسنود إلى ركبتها المثنية وخدّها متكئة على راحة يدها، بينما الأخرى تلهو بخصلة شعر.

أكلتُ. لا كغريب أو ضيف أو متسوّل أو متطفّل أو دخيل. وشربتُ. كمن هو من أهل الدار، لا بل كربّ البيت وسيّده ومالكه ومعيله. وكأنّ عدلى أختي وجارتي وقريبتي وأهلي وحبيبتي وامرأتي ولي. إلى درجة أني نسيتُ حضورَها وحضوري في حضرتها كغريب... كانت ذابلة العينين لتلذّذ في التفرّج عليّ، أو لحزن ونقص في ساعات النوم، وقد جئتها مبكِرا وكانت قد غادرتني متأخّرة ليل أمس.

مسحتُ فمي بظاهر كفّي. فقامت ورفعت صينية الفطور وعادت بكوبين وإبريق شاي. وما أن حرّكت شفتيّ كي أباشر بطرح أسئلتي، تلك التي عن زيدون ومن أجلها جئت، حتى أعدتُ كلَّ ما دخل أحشائي، دفعة واحدة ومن دون سابق إنذار. هبّت تربت على ظهري وتسند بيدها جبهتي التي أصبحت بين ركبتيّ، فيما هي تردّد: لا بأس عليك ! وأنا

ضائع بين معدتي التي صعدت إلى فمي فخرجتْ من بين أسناني، ومقلتيّ اللتين عادتا تجودان بالماء.

عاملتني كأني بعضٌ منها، فما قرفتْ منّي ومن قيئي الذي ملأ وجهي وثيابي وأرضية الدار. بل راحت تمسحني بفوطة مبلولة بالماء والصابون، كأنما تزيل عني غبارا أو آثار طين. ولم أخجل. وما اعتراني حياء أو ندم لمجيئي إليها. كأنّها أمّي وأنا ولدُها، وهي بي ملزمة وأنا بها موصول طوال العمر.

نظّفتني وخلعت ملابسي وأخذتني إلى السرير. مدّدتني وجلست عند رأسي الذي ألقته على حضنها. ثم وضعتْ راحتَها على صدري، فسرى دفؤها في روحي فغفوتُ. لا أدري كم من الساعات أو من الأيام غبت. وعندما استفقتُ وجدتها جميلة وطيّبة، فصرتُ أعودها كما تفعل بقية الرجال. إلى أن قال الناس: ها هو خلدون لم يرث الحانوت، وإنما ورث عدلى عن الحانوتي ! ...

بلغ خلدون مشارف أعلى الهضبة، فانبطح حيطة، متظلّلا بليلٍ أَلْيَلَ لفراق قمره. تطلّع إلى نوافذ الخانقاه، فوجدها مطفأة كما توقّع لها أن تكون. التفت يمنة، فظهر له طيفُ سَعْد منطرحا على الأرض بجواره، وقد رسمه نورُ المشعل المعلّق على باب المزار حيث... يقف ؟! ومنذ متى يبقى الحارسُ سَعْد ناهضا حتى مثل هذه الساعة ؟ راقبه مرارا من قبل وفي كل مرة، كان يتهاوى كحُطام بعد أن تمتلئ كرشُه بأصناف الطعام ويكون الإخوانُ قد أووا إلى النوم. إلا اليوم يا سَعْد ؟ تبّا لك ! وهنيئا لي تحسّبتُ لغادر لم يكن في الحسبان.

زحف خلدون حتى وصل الخانقاه. وما أن توارى خلف جدرانه، انتصب ينفض عن خرقته ما علق بها من حصى صغيرة وتراب، حريصا على كتمان أي صوت ينبّه الحارسَ إليه أو يوقظ أحدا من النيام. عبّأ رئتيه وحبس الهواء فيهما كي يبطئ خفقانَ قلبه الذي تسارعت ضرباته وعلت كأنها لطبل. يتقدّم بضع خطوات، فيبان لعينيّ سعد. ماذا لو تعرّف الحارسُ إليه فدبّ الصوتَ وأيقظ الجميعَ فانقضّوا عليه ؟ من على هذه المسافة وفي ليلة لا تأهلها سوى نجوم نائية محايدة أدارت ظهرَها للسماء ؟! هيا يا خلدون، لا تخف هذا

"السَعْدون" الذي له دماغ دجاجة في جسم ثور. فهو ما أن يلمحك في لباسك الصوفي، حتى يظنّ بأنك أحد الإخوان خرج لتنسّم الهواء، للترويح عن همّ، أو لمراوغة أرق يقصي عن أجفانه الرقاد.

مشى ثم وقف حين أيقن أنه أصبح في مرمى نظر سَعْد. استدار نحوه ورفع يده بالتحية، فبادله الحارسُ بالمثل. ممتاز ! هيا، سِرْ الآن بشكل مستقيم وكأنك متجه إلى الحديقة ـ الواحة. لا تتردّد ولا تلتفت البتة إليه. تصرّف كسيّد المكان لا يحتاج إلى استئذان أو إلى تقديم ذريعة تبرّر رغبة طارئة عليه. أجل، هو هذا ! أرأيت ؟ لقد استند بظهره إلى الحائط وهذا معناه أنه اعتبرك أحد الإخوان، وأنك لم تخطئ أبدا حين سمّيتَه "السَعْدان " !

٧

تأفف المأمور من زيارة معاونه المفاجئة.

كان الوقتُ مبكرا وقد جلس لتوّه إلى مائدة الطعام بعد أن أعدّها بعناية وجبةَ الفطور كما يفعل كل صباح، مردّدا لنفسه ولمن يحبّ أن يصغي: وجبة الفطور هي أهمّ الوجبات على الإطلاق ! وما الطارئ إلى هذا الحد كي يقلق المعاونُ ساعتَه المقدّسة تلك، وما الذي حدث أو يحدث في هذه البقاع أصلا مما يستحقّ العجلة أو الاستنفار ؟ مضى عليه أكثر من خمسة عشرة عاما في هذه الخدمة، وما من مرة وقع شيء أثار فضولَه أو أيقظ حواسَه أو تحدّى عقله وذكاءه اللذين كان يفاخر بهما، إلى أن تبلّدا وترهّلا لنقص في الممارسة ولتفاهة ما يُرفع إليه من ترّهات. هذه رمت النفايات أمام باب ضرّتها، وتلك صفعت ابن فلان. هذا أضاع شاته، وذاك رفسه حمارُ الجار. شكاوى حفظها عن ظهر قلب وقد أثارت فيه مللا ونفاد صبر جعلاه يوكل معظمها إلى معاونه، منصرفا هو إلى تهذيب بدنه وعقله عبر مطالعة كل ما يقع تحت يديه من مؤلفات، وإلى ممارسة أحبّ الهوايات إلى قلبه: الطهو !

كسر المأمورُ البيضة ثم أفرغ محتواها في كوب الحليب. أضاف ملعقة عسل ورشتي قرفة وبضع نقاط من ماء الزهر. حرّك بالملعقة الخليط وشربه دفعة واحدة، مسترقا النظر إلى معاونه الذي راح ينقل وزنَه بين قدم وأخرى، كمن ضاق ذرعا أو كمن داهمته مثانتُه برغبة تلحّ عليه.

مسح فاه بطرف الفوطة المعلّقة على صدره، ثم تراجع إلى الوراء ملقيا ظهره إلى الكرسي، معلنا لمعاونه بذاك أن بإمكانه الإفصاح أخيرا عن غرض مجيئه. رفع المعاون مظروفا أسمر وقال منفعلا: إنه من باب الولاية وعليه ختم الحاكم بنفسه ! عقد المأمور حاجبيه وكاد أن يهبّ واقفا في تحية احترام، لكنه استدرك فجعل حركته تبدو وكأنها لتعديل جلسته، صونا لما يتمتّع به من هيبة ووقار في نظر مرؤوسيه. رمق ما افترش المائدة من بقية فطور وفكّر بمواصلة طقسه الصباحي، لكنه افتقد الشهية وقد طردها ما ألمّ به فجأة من فضول. رفع ذراعَه، فتقدّم المعاون يسلّمه المظروفَ ويتراجع منحنيا، واضعا يده على رأسه في تحية سلام.

" من حاكم باب الولاية في ضَمَران

إلى مأمور إدارة الأمن في قضاء الكَرْب "

قرأ المأمور الجملة مرة، فقامت تدور في ذهنه زيزا انفلت بعد طول أسر. مزّق أعلى المظروفَ بتأنّ حريصا على الزاوية التي دوّن فيها اسمُه بالكامل إلى جانب الختم الرسمي، ثم أدخل يده يسحب رزمة رسائل مطوية داخل رسالة أخرى. أزاح ما أمامه على المائدة، رفع الفوطة عن صدره ومسح بها آثار الفطور، ثم وضع المظروف جانبا، الرزمة فوقه، وباشر قراءة الرسالة الأولى:

" من حاكم الولاية، أدامه الله وأطال بعمره،

إلى حضرة مأمور إدارة الأمن في قضاء الكرب:

أما بعد، فيرجى التوجّه فورا إلى قرية "اليُسر" التابعة قانونيا لقضاء "الكرب" من أجل التحقيق في قضية المزار وتوضيح ملابسات ما ورد في البرقيات المرفقة هاهنا وتشير إلى وقوع حوادث واضطرابات، على أن يُرفع تقرير يفيد بنتائج التحقيق كي يُعمد إلى اتخاذ تدابير إعادة الأمن وحفظ النظام... " .

كاد المأمورُ يقفز فرحا. " الملابسات... التحقيق... رفع تقرير "... يا الله ! بعد كل هذا القحط والملل والتحايل على الوقت والانتظار ؟ تبسّم ونفخ صدرَه بشهيق يخالطه اعتزاز وحماس، ما لبث أن تبعهما توجّس وخشية ألا يكون على المستوى المطلوب، فيفشل في تنفيذ مهمّة لن تُعوَّض عليه ثانية إن هو تركها تفوت. لا ريب في أن "القضية" معقّدة تتعلّق بحادثة استثنائية أدّت إلى ارتكاب جنح ووقوع اضطرابات، "قضية" كتلك التي حلم بها طويلا في أول سنيّ خدمته، قبل أن تضربه الرتابة بشتى أنواع العلل، فيستفحل فيه داءُ الملل والكسل وصولا إلى فقدان الثقة بالذات.

طرد المأمورُ هذه الأفكارَ السوداء ومعاونَه مشيرا عليه بالانصراف. تناول رزمة الرسائل فحلّ رباطها وبدأ بمطالعتها مستكشفا ما تتضمّنه من معلومات. ألقى نظرة سريعة إلى أسفلها، فوجدها تحمل كلّها توقيعَ خفير قرية "اليسر". نظر إلى حيث دوّنت التواريخ، فرآها محصورة بنحو ثلاثة أسابيع. لمَ إضاعة كل هذا الوقت ؟ تساءل، فما كان منه إلا أن أجاب: هكذا هي الولاية، الساعة بيوم واليوم بأسبوع والأسبوع بشهر، إن لم يكن بشهور !

مسكين ذاك الخفير. لا بدّ وأنه كابد لكتابة برقيات تعجّ بالأخطاء الإملائية ويرتبك فيها الخطّ أحيانا إلى حدّ الرمز. عشرون برقية في ظرف ثلاثة وعشرين يوما. إنه بالفعل لإنجاز، إذ يعني ذلك أنّ الخفير كتب ما معدّله برقية كل يوم ! واللهِ إنك لخفير نشيط ! نشيط أو مذعور، واحدة من اثنتين. مذعور حتما، إما من هول ما جرى، وإما من عاقبة محتملة عليه. وما كثرة البرقيات في هذه الحال وتكرارها، سوى من باب رفع المسؤولية وإثبات براءة الذمّة.

قرأ المأمورُ البرقيات بتركيز وانتباه، ثم أعاد طيّها وترتيبها في رزمة وضعها مكانها داخل المظروف. ينبغي أن يقوم الآن فيتجّه إلى الدائرة لتنظيم كمّ هائل من الأمور. أخرج ساعة الجيب. لا بأس. ما زال أمامه متسّع من الوقت لإعداد فنجان قهوة، قبل مباشرة الدوام.

دخل المطبخ فملأ الركوة النحاسية ماء ووضعها على النار، ووقف ينتظر سماعَ صوت بعينه ينذره بأن السخونة بلغت حدّها المطلوب، ذاك الذي يسبق لحظة الغليان بثوان وينبغي تحيّنه لوضع ما يلزم من البنّ وفوقه السكّر دون استعمال ملعقة أو ما شابه، ثم مراقبة صعود الماء حتى انغمار الكتلة السوداء ونزولها باتجاه القاع، مع الحرص على رفع الركوة سريعا عن النار وإبقائها على مسافة كافية كي ينقلب المزيج مرتين أو ثلاثا على الأكثر، قبيل الفوران.

جلس يحتسي قهوته وهو يستعيد ما طالعه في البرقيات من تفاصيل، فهاله أن يلحظ مدى اختلاطها عليه لتشابكها وتداخلها في حشد منفّر، لا نكهة له ولا رائحة، لا شكل ولا اسم. مهلا، تحتاج المسألة إلى إعادة ترتيب وإلى تفنيد الأحداث بحيث يأتي سياقُها متراتبا، منطقيا، فينتظم المجموع في النهاية وتتوضّح أعقد الأمور. أيضا، ينبغي له أن يدوّن في عامودين منفصلين الحدثَ الرئيسي وما يتصّل به من أسماء وأمكنة وتفاصيل من جهة، ومن الجهة الأخرى ما تلاه من حوادث جانبية أو ثانوية قد تكون على صلة به وقد لا تكون.

نهض فجأة وقد شعر أن ميله المفرط إلى تنظيم الأمور عن بُعد مضيعة للوقت تستدرجه إلى الوقوع في مطبّ افتراضات وتكهّنات لا تستند في الواقع سوى إلى مجموعة برقيات تدقّ نفيرَ الخطر دون أن تفيد بما يتعدّاه.

اتجّه إلى مدخل الدار حيث تنتظره قبّعته الرسمية على مشجب مجاور للمرآة. سوّى شاربيه الرفيعين وتراجع خطوة كي يتأكّد من امتياز مظهره. لولا هذا الحَوَل البسيط في عينه اليمنى، لخافه الحاكمُ نفسه إن رآه ! فتح الباب ودلف إلى الخارج، فوجد المعاونَ في انتظاره، مقرفصا حاسر الرأس وقد حميت عينُ الشمس عليه.

سار فشعر بالمعاون وراءه وقد خرق الاتفاقَ السرّي المعقود بينهما منذ سنوات: أن يحترم البقاءَ من خلفه على مسافة كافية لا تُظهر المأمورَ على القصر الذي لقامته، ولا تُظهر معاونَه أطول هامة منه بما يتعدّى اللزوم ويثير الفضول. توقف متلفتا حوله للتأكد من عدم وجود شهود، فاستدرك المعاونُ خطأه وتقهقر حتى بلغ البُعدَ المناسب، ثم استأنفا السيرَ بانتظام.

٨

كانت طريقا وعرة لم تدسْها عجلاتُ سيارة منذ سنوات، بل ربما منذ عقود، وقد بدت متعرّجة بطيئة كأنّها لن تنتهي في قرون.

حاول المأمور في البداية أن يتفرّج على ما يحفّها على الجانبين. لكنه ما لبث أن يئس سريعا بعد أن اقتنع أن نصيبَه من الفرجة لن يعدو سحبَ الغبار الكثيف التي تكاتفت عليه، فملأت عينيه وخياشيمه وتمكّنت منه إلى درجة أنها نزعت عن زيّه حتى ملمحَه الرسميّ.

أقفل النوافذَ وركّز نظره إلى الأمام. ما همّه المناظر طالما أنه قدم مكلّفا بمهمة وليس في رحلة استجمام. أعجبته الفكرة هذه فهنّأ نفسه عليها، قبل أن تطردها واحدة أخرى كانت تقف لها بالمرصاد: ما أن يصل المخفرَ حتى يبادر إلى الاستحمام أولا، والاستحمام ثانيا والاستحمام ثالثا، والبقاء تحت الماء لعام ! هذا إذا وجد غير التراب في قرية "اليسر"، فلم يتضح أنها بالأحرى قرية "العُسْر" !

ضحك المأمور من نفسه وازداد تفاؤلا حين أيقن أنه سلك الدربَ الصحيحة، وأن شكوكه بالتيه لم تكُ سوى وهْما دام مع ذلك سبع ساعات. فها هو المخفر قد ظهر أخيرا. وذاك الرجل الجالس أمامه بمعطفه الكاكي وبندقيته المعلّقة على كتفه هو الخفير "النشيط". أما سرب الأولاد المنتشر حوله، فهو حتما أطفال القرية يعلمون دائما قبل الجميع كلَّ مستجدّ جديد.

أوقف سيارته، فركض الخفيرُ يؤدي التحية ويفتح له البابَ كي يترجّل، مغدقا عليه عبارات الترحيب على أنواعها، ممزوجة بزغاريد امرأة بانت في باب المخفر فجأة، مطلِقة نفيرَ لسانها على مداه. لم يفهم المأمور بادئ ذي بدء، حتى دخل وداس على بسط مزركشة مفروشة هنا وهناك، عليها أرائك ومساند محشوة بالقشّ بعضها مبقور البطون، تقابلها غرفة أخرى تحوّلت إلى ما يشبه القنّ تسرح في زواياها قطط وديكة وإوزّ، حول مكتب زُرع في الوسط تعلوه بضعُ ملفات مغبرة، دواة حبر، ختم رسمي وملفات. تلفّتَ يبحث عن الدرج المفضي إلى الطابق الثاني آملا أن يجد فيه المخفرَ بمعناه الرسمي، فأشار عليه الخفيرُ وقد فهم مرادَه أن يتبعه، مرفقا عبارته بكل المفردات اللائقة بمكانة الضيف الرفيع.

قفف وسلال وصناديق وإطارات وحجارة طوب وحبال وصرر قماش وقضبان حديد، بعضها مكوّم على الدرجات وبعضها الآخر معلّق في السقف أو على الجدار. ومن

ثمة الغرفة التي كانت فيما مضى زنزانة وقد أُعدّت على ما يبدو لاستقبال المأمور، إذ عُلّقت على النافذة ستارة بيضاء هي ولا ريب طرحة ضحّت بها من أجله امرأةُ الخفير، وفي الزاوية فراشٌ تغطيه ملاءة يفترض أنها كانت بيضاء، بالإضافة إلى حبل يصل الجدارين عند الزاوية استنتج المأمورُ أنه هنا إما لنشر غسيله وإما لتعليق الثياب. والأولاد ! سرب الأولاد الذين خالهم أطفالَ القرية، هم في الحقيقة ذرّية الخفير الذي حوّل المخفرَ إلى دار له.

وقف المأمور يتفكّر فيما يتوفّر أمامه من خيارات، فبان له أنه لا يملك في الواقع أي خيار. لا حاجة به مثلا أن يتكلّف عناء البحث عن نزل في قرية "اليسر"، كما ليس واردا أن يعود وقد قضى على الدرب ما يفوق سبع ساعات ! حسنا، وما الذي يتبقى والحال هذه ؟ أن يسلّم أمره للربّ فيبيت الليلة هنا، والصباح رباح كما يقال. ربما وجد الحلَّ غدا في استئجار دار "طبيعية"، إذ ستدوم إقامته هنا. المسألة متوقفة على ما سيُظهره التحقيقُ وعلى حسن تنظيمه لسير الأمور.

نادتهما امرأة الخفير تعلن جهوز العشاء. تحلّق الأولادُ بعددهم الذي لا يُحصى حول ما فرشته أمّهم من أطباق مملوءة بحساء تسبح فيه الشعيرية إلى جانب قطع الخبز، واقتيد المأمورُ إلى طبلية وُضعت على حدة تتصدّرها إوزّة محشوّة، صلصة طحينة بالبقدونس، خبز بيتي وبصل مشرّح متبّل بالسُمّاق. أشار الخفيرُ على المأمور بأن تفضّل: لك أن تفسخ الطيرَ فتختار منه القطعة التي تشاء، فأنت الضيفُ وتكريمُ ضيف بمثل مقامك واجبٌ وامتياز وشرف عظيم !

مال المأمورُ برأسه يبحث عمّا يقطّع به اللحم. ضحكت امرأة الخفير وقامت تعالج بأصابعها الإوزة. حشرت يدَها تخرج ما في الأحشاء من أرزّ راكمته على حوافي الصِدر، وراحت ترفع قطعَ اللحم التي انفصلت عن العظم بانصياع، وتُكثر من وضعها ناحية الزائر.

داعبت رائحة زكية أنفَ المأمور وتعرّف إلى رأس الحانوت والقرفة والكزبرة وإلى البصل المفروم ناعما والمقلّى بالسمن البلدي، فغادرته مشاعرُ الأنفة وما خالطها من نفحة اشمئزاز، ومدّ يده إلى جيبه الداخلي يسحب ملعقة موثقة بخيط قنّاب. علا ضحكُ

الأولاد وكركرت ألسنتُهم بقهقهات عذبة ضاعفت من طيب ما جعل المأمورُ يلتهمه بتلذّذ واستمتاع، وهم يتناولون الحساءَ ولا يضيرهم أن الضيفَ أتى على نصف الإوزّة وما يرافقها من أرزّ وتوابل وخبز.

أحضرت امرأة الخفير وعاء وقربة وفوطة، فصبّت الماءَ على يديّ زوجها وما التفتت إلى المأمور وقد اعتبرت أن ملعقته تغنيه عن الاغتسال. وقف الخفيرُ واصطحب المأمورَ إلى الخارج حيث وضع إبريق شاي على موقد نار، ودارت امرأته على ما تبقى من وجبة العشاء توّزعها بينها وبين الأولاد، وترمي ما اجتمع من عظم وفتات إلى من فضُل من أهل البيت من قطط وديكة وإوزّ.

صبّ الخفيرُ الشايَ وقدّمه مرفقا بلفافة تبغ، فشعر المأمورُ بشبع فيه من الامتلاء والغبطة ما يفوق الوصف. وهذه السماء التي تظلل رأسَه بنجوم دانية، حانية، ترتعش بالوهج. وهذا السكون الرائع الذي تلا رقادَ الأولاد. وكل هذا الصفاء الذي انقشعت عنه سحبُ الغبار التي رافقته طوال الرحلة وجعلته متشائما عكر المزاج. وفاجأ المأمور نفسَه حاسِدا الخفير، بل مغمورا بشعور هائل بالامتنان إزاء حفاوة يمليها القلبُ فلا تعير انتباها لمظاهر الغرابة في عين حولاء، في ملعقة تخرج من الجيب، أو في قامة لا تتناسب بالضرورة مع ما تلتهمه من طعام. غدا يغادرهم، فكّر، هذه المرة من باب ردّ الجميل ومبادلة المعروف بأحسن منه، إذ لا يصحّ لمن كان مثله شهما رفيع الأخلاق، أن يُثقل على خفير مسكين مستواه المعيشي على هذا القدر من تواضع الأحوال، وطباعه على درجة من الكبرياء ستشعره بالمذلّة والإهانة حتما، لو عرض عليه ضيفُه تعويضَه بشيء من المال.

قال المأمور بعد أن قدّر أنه احترم بما يكفي حريةَ الخفير في ممارسته لأصول التكريم: لو تخبرني الآن بما لم تطلعني عليه البرقياتُ. فتنهّد الخفيرُ من قاع الصدر وطويلا، قبل أن يبدأ الكلام:

قرية "اليسر" كاسمها، كانت أبدا ميسّرة الأمور. لم تعرف خلال كل تاريخها أي اضطراب. أحوال أهلها متواضعة أجل، لكنهم أثرياء بنزاهتهم وتقواهم وتعاضدهم في السرّاء وفي الضرّاء. لم تسمع الولاية بهم يوما لوداعتهم، وما سمعوا هم بها إلا فيما ندر

من أحاديث وأخبار يأتي ببعضها أحَيّانا من يمرّ بهم عابرا، قادما من قرى مجاورة أو بلدات بعيدة لا يعرفون لها أسماء. إلى أن جاء ذلك اليوم المشؤوم، ليلة احتجاب القمر قبل ظهوره كهلال، فسُرق المزار وحلّت بنا اللعنة وانقلبت أحوالنا من بياض إلى سواد، بعد أن غادرتنا البركة وتركتنا ضائعين نلوب على أنفسنا متخبّطين بما يحلّ بنا من كوارث ويصيبنا من مصاب. أبدا لم يعرف المخفرُ إلا زيارات من يعوده من أقارب وأصدقاء وجيران، وهو منذ أسابيع بات مرتعا لزوار يلغطون بغريب الكلام، تتشنّج أوداجُهم وتصدح أصواتُهم بالسباب والشجار والقذح والتظلّم والنواح واللطم والتهديد والوعيد. هذا يشكو جاره الذي دسّ سُمّا لقطيعه فأباده عن بكرة أبيه، وذاك أقسم أن يقتل أخاه إن سوّلت له نفسُه الاقترابَ من عين الماء التي تخرج من أرضه هو، لا من أرض أخيه. هذه نتفت شعر ضرّتها وأنزلتها ضربا مبرحا حتى أسقطتْ ما في بطنها، وتلك هربت من دار زوجها لتلتحق بغريب، بائع جوّال قدم القرية يبيع قماشا... كل يوم، شكوى أو اثنتان وأحَيّانا أكثر، وقصص غريبة يقف لها شعرُ الرأس وترتعد منها الأوصال. ومؤخرا، عملية السطو ليلا على شارع الحوانيت ونهب محتوياته بعد خلع الأبواب وما يزينها من أقفال... جُنّ الناسُ سيدي المأمور، أقسم بالعليّ العظيم، وأنا ما شهدت يوما مثل هذا ولا شهد أجدادُ أجدادِ أجدادي جزءا يسيرا ممّا يقع على رؤوسنا حاليا من حوادث واضطرابات... وجعلتُ أرسل البرقية تلو الأخرى إلى باب الولاية وأطلب عونا وعساكر وإمدادات. ولا من مجيب. حتى وصلت برقية البارحة تفيد بخبر قدومك إلينا واستلامك القضية لمباشرة التحقيق... هذا كل ما في الأمر سيادة المأمور. فعسى الرب يأخذ بيمينك ويساعدك على نصرة الحق وإرجاع الناس إلى الصراط المستقيم.

امتنع المأمورُ عن أيّ تعليق. إذ ما كان بإمكانه أن يُضيف وقد فهم أن الخفير أعاد على مسامعه شفهيا ما كان قد رواه في البرقيات. ومعناه أن هذا هو كل ما أدركه، يُزاد عليه شعورٌ بأن ما يحدث لقرية "اليسر" نوع من العقاب الإلهي، أو لعنة حلّت بها وجاءتها من الغيب في أحسن تقدير. أطرق عابسا وقد استوعب أنّ القضية لا تخلو من تعقيد. فإذا كان الخفيرُ، وهو ممثل الولاية الرسميّ الذي يفترض أنه على درجة ولو متواضعة من العلم، يفسّر المسألة بلعنة وبركة وما شابههما من العبارات، فما الذي يتوقعه إن صحّت ظنونُه من أهالي القرية، وكلّهم حسبما فَهِمَ أمّي لم يرَ في حياته كتابا أو ما يتجاوز حدودَ

قريته التي تبعد عن عاصمة القضاء مسافة سبع ساعات في السيارة، مضروبة بألفٍ ركوبا على الدواب أو سيرا على الأقدام ؟!

هل أُعدّ لك إبريقا آخر من الشاي ؟ سأل الخفيرُ بنبرة تشي برغبة ملحّة بالخلود إلى الفراش. ألف شكر، ردّ المأمور. اذهب إلى النوم، وسأتبعك أنا عمّا قليل.

وقف الخفيرُ مستأذنا، فسأله المأمور قبل أن يختفي في عتمة الدار: بماذا تنصح بداية ؟ بزيارة أخوية الوفاء، أجاب الخفير. فرأى المأمورُ أنه بالفعل مصيب. هكذا يمسك بالخيط من أوّله ويبدأ من المكان الذي انطلقت منه الأحداث. أجل، من أصل العلّة، باتجاه أعراضها، وصولا إلى إيجاد الدواء. قضية معقّدة، ردّد في سرّه بشيء من الفخر والاعتزاز، قبل أن يعتريه قلق مفاده: عسى اللعنة لا تنزل به، وقد سلّموه قضية يعرفون حلّها ربما من ضروب المحال !

٩

وما نفع الصلاة والأدعية والابتهالات، والولد يذوب أما عيني كقرص صابون ؟ وأين أذهب به وماذا أفعل وقد أوصد الإخوانُ بابَهم في وجهنا فامتنعوا عن مدّنا بالأحجبة والرقيات والعزائم والعقاقير، قبل أن يعاد إلى المزار ما سُرق منه ؟ ومن قال إن السارق من أهل قريتنا ؟ وما لزوم عقاب يضاف إلى ما نزل بنا من مصائب حتى الآن ؟ وكيف يسمّون أنفسهم إخوانَ الوفاء وما من وفاء في قلوبهم أو رحمة على الأرامل واليتامى والمرضى الذين يعودونهم لكي يرجعوا خائبين محبطين ؟ إلى أن قرّروا منعَنا من تسلّق الهضبة ! حتى أن الحارس رمى بالحجارة وفدا كان متوجّها للقاء الشيخ الأكبر، وهدّد بقطع رِجل من تسوّل له نفسُه الاقتراب من المزار بعد اليوم !

أفرغت الجارة حمولتَها من الغيظ والاستنكار والقلق على طفلها الرضيع أمام عتبة الباب، ثم مالت تتفقّد إن كان من في الداخل يسمعها، فخفضت صوتها وسألت: هه، وخلدون ؟ أفضل حالا إن شاء الله ؟ فما كان من أم خلدون إلا أن هزّت رأسَها نفيا، قبل أن تضيف: ألا تدخلين قليلا فنشرب سوية كوبَ شاي ؟ اعتذرت الجارة وانصرفت على عجل، بعد أن شكرت ووعدت بإرجاع علبة عيدان الثقاب بعد قليل.

عادت أم خلدون إلى مكانها على الأرض، تقطّع ورقَ الملفوف ثم تُسقطه لثوان معدودة في المياه الغالية، قبل أن ترفعه وتلقيه في المصفاة. تبّا للملفوف ! رائحة كريهة وريح تكاد تمزّق البطن ! بل تبّا لها هي تنعي وتشكو وبعض الناس جائع ما عاد يذوق القوت ! ستضيف إلى الأرزّ ملعقة سمن لا أكثر، هكذا تعوّض غيابَ اللحم. ثم تُكثر من الثوم والبهار والفلفل، فيزكى الطعم. لمن تطبخ أصلا ما دام خلدون على هذه الحال منذ أسابيع، مكوّم في الزاوية على فراشه لا يفتح فاه لا للكلام ولا للأكل ؟ هل هو فشله في امتحان الحراسة، أم موت زيدون المفاجئ، أم اللعنة التي أصابت أهل القرية، ما أخذ من ابنها قابليتَه على الحياة وجعله يمتنع حتى عن اللهو مع حَرار ؟ آه لو يتركها فقط تذبح هذا الطائر اللعين فتُعدّ به طبقا ملوكيا بلحم الصقور ! لو فعلت، لقتلها ! لو. إذ كيف يطيعها قلبُها على كسر خاطره، وروحُها تدمى كلما رأته ساهما صامتا وقد التهم الحزنُ عينيه وضاقت به الدنيا...

فداك الامتحان يا خلدون ! وهم العميان يا ولدي لأنهم فضّلوا عليك ذاك البغل سَعْد ! قالت ذلك وكررته مرات، فلم يأتِ خلدون برد فعل وما أُلقيت عن صدره تلك البلاطة التي ترزح عليه...

ارتاح الورّاقُ يا بني، رحمه الله. وبالفعل كان مثل أب لك. وصدّقني، لقد انفطر قلبي حزنا عليه. وكلنا إلى الزوال يوما. وهذه هي حال الدنيا، غادرة لا يؤمَن لها. وغدا تنسى وتنشغل بحالك عندما تلتقي بابنة الحلال ! هذا أيضا لم ينفع، إذ بقي خلدون مطبق الشفتين صامتا كقبر...

ورأيت ؟ يستأهلون أكثر من ذلك بكثير. وربما اتّعظ الإخوانُ ففهموا أخيرا أنهم أساءوا الاختيار. بل هو هذا حتما لأنهم سيطرقون بابنا عمّا قريب ويتوسّلون إليك كي تكون الحارسَ الجديد... الحاصل، جرّبت أم خلدون كل ما في حيلتها من الترغيب إلى الترهيب، ومن الحنان إلى التأنيب، وخلدون ينظر إليها بعينين لا تريانها وبأذنين موصدتين. ما الحل ؟ لا حلّ سوى أن تنساه لوقت فتتصرّف وكأنه ركن من أركان البيت، غرض مُلقى في الأرض ولا حاجة بها إليه، على الأقل لحين...

نظر خلدون إلى أمّه لحظة، ثم أعاد تعليقَ عينيه في السقيفة. لو تفتح البابَ أو النافذة ! يكاد يختنق من رائحة الملفوف. لو يختنق ! أجل، يتوقف الهواءُ عن عبور ما فيه من ثقوب، فتفرغ رئتاه ثم تنطبقان وينتهي. كفقّاعة صابون. كذرّة غبار. ككلمة خاطئة. كحرف ممحوّ. ككل ما هو كذب ورياء ووهم انكشف في برهة، فمسح عالما بأكمله وحوّله إلى خواء...

طرقت الجارة البابَ ثم دخلت تُعيد علبةَ الثقاب. ولدها الرضيع على زندها وصوته يعلو بالصراخ. عساها لا تطيل المكوث. وأمّه التي تلحّ عليها بالبقاء. ودقائق وينضج الملفوف ونأكل سوية وضاق قلبي من السكوت ! واقتنعت الجارة وجلست.

لِمَ كل هذا الإصرار وهي كانت مقتنعة سلفا وإنما جاءت متذرعة بإرجاع عيدان الثقاب وفي نيّتها البقاء للعشاء. وأمه تعرف. والجارة تعرف بأن أمه تعرف بأنها تعرف. فلمَ المراوغة إذن وهذا اللفّ والدوران ؟ الجميع جاهل ويزعم أنه عارف. وهو الذي لم يكن يعرف، وقد عرف، ما تراه يفعل بمعرفته تلك ؟ وما لزوم المعرفة إن كانت سببا للشقاء والحيرة فيما يفعله بحاله وبما بات يعرفه ؟ ولو عرف أن الأمور ستجري مثلما جرت، لما ودّ أن يعرف أبدا. ولكن، من كان ليعرف بأنها ستؤول إلى ما آلت إليه. وهل ترى الإخوان يعرفون بأنه عرف، أم أنهم لا يعرفون بالأصل ما عرفه ؟ ولو قال ما يعرفه، هل سيصدقونه ؟ ولو صدّقوه، هل سيعترفون ؟ ولو اعترفوا، فهل ينجو ؟ وإن نجا، فلكي يفعل ماذا ؟...

أعرفتِ بأن الولاية أرسلت مأمورا إلى القرية للمباشرة في التحقيق ؟ قالت الجارة وهي تلعق عن أصابعها ما علق من مرق الملفوف: أتعرفين بأن الناس يقولون، نقلا عن لسان الخفير، بأنه سيأمر بتفتيش كافة البيوت بحثا عمّا سُرق من المزار، وبأنه سيفتّش الأرضَ أيضا والشجرَ والزرعَ والدواب، حتى يجد المسروقَ والسارقَ، وبأن عاقبة هذا الأخير ستكون قطع يديه ؟ وهل تعرفين بأن امرأة الخفير أعدّت وليمة لاستقبال المأمور، فذبحت إوزة وقدّمتها له بحالها كي تستميل قلبَه فيغضّ النظرَ عنها وعن عائلتها فلا يطردهم من المخفر حيث لا تحق لهم الإقامة فيه ؟ وهل تعرفين بأن المأمور على ما رُوِيَ عنه، شرسُ الطباع صارمٌ ثقيلُ الكفّ حتى قيل إنّ الأرض نفسها ترتعد لخطاه وإنّ من رآه يوما أو سمع صوتَه، ما نسيه طوال حياته وبقيت صورتُه تعوده كالكابوس ؟ وهل عرفتِ بأن هناك من سيغادرون القرية تحت جنح السرّ خوفا من مواجهته، وقد قرّر أن يعود إلى حاكم الولاية بمجرم يتلبّسه التهمة حتى ولو كان منها براء ؟ وهل تعرفين بأن الملفوف بالأرزّ والسمن والثوم أشهى مذاقا منه باللحم ؟ وهل تعرفين أن... وهل عرفتِ ما ؟...

يكاد رأس خلدون ينفجر ولسانُ الجارة لا يني يبعط في فمها بأسرع من خبط أجنحة الذباب، ووليدها على زندها يوقّع فسحات الصمت النادرة بين جملها المتدافعة، بزعيقٍ حاد لا ينقطع ما لم تنقطع أنفاسُه، فتسكت والدتُه للحظات، ثم تعطيه الثديَ فيهدأ قليلا إلى أن تنساه مجددا، غارقة في فيض الكلام.

لِمَ لا يقوم بدل البقاء في قنّ الدجاج هذا والتعرّض لأسوأ أنواع التعذيب على الإطلاق ؟ لكي يذهب إلى أين ؟ ولكي يفعل ماذا ؟ حتى حَرار لا جلَد له عليه وهو لم يتفقّده منذ أسابيع ولا يعرف إن كان ما زال على قيد الحياة. وما حاجته بصقر لا يجيد الصيدَ وهو ليس حتى بصقر حقيقي ؟ ولعن الربّ حظَّ خلدون لا يقع سوى على الغريب من الناس والأشياء والحيوان، ولا يميل سوى صوب ما يعقّد حياته فيجذبه كما يجذب المعدنَ المغناطيسُ ! ما الذي أخذه في تلك الليلة المشؤومة إلى المزار ؟ وكيف صوّر له عقله ولو للحظة واحدة، أن خطته على درجة عالية من الإحكام ستوصله إلى هدفه وتمكّنه من الانتقام من الشيخ الأكبر، سبب العلّة وأصل كل البلاء ؟ ليت "السَعْدان" كان أكثر دهاء فاكتشف الحيلة منذ ظهر له وحيّاه عن بُعد، فقبض عليه وسلّمه إلى الإخوان أو إلى الخفير. لو حدث

ذلك، لكان الآن نزيل السجن يمضي أيامَ عقوبته بشهورها أو بسنيّها، ولكان حتما أفضل حالا مما هو عليه الآن، أسير القضبان التي تسيّج عقله وتمنعه من التفكير بغير ما أدركه في تلك الليلة، فقوّض أركانَ عالم بأكمله.

لكن ما حدث حدث، ولا سبيل للعودة إلى الوراء. ورطة ووقع فيها، فحاصرته كما تحاصر أطرافُ الأخطبوط ضحيّة تروح تعصرها على مهل حتى تُزهِق منها الروح. ثعبان داسه سهوا، فلدغه بسُمّ ينتشر تدريجيا في الجسم، يُتلف شبكات الأعصاب ويشلّ الأعضاءَ، مبقيا على اتّقاد الذهن كي يبيح له مراقبة موته البطيء. أجل، الحقيقة التي اكتشفها أخطر من أخطبوط، أشد سمّا من ثعبان. فإن تخلّص منها ورماها عنه، اتّهمه الآخرون برغبة الأذى وبنوايا القتل والإساءة والتخريب. وإن حمى الآخرين منها، استمرّت تطارد روحَه وتُقلق عيشَه و تعذب ضميرَه حتى نهاية العمر. المعرفة شقاء، والجهل أمان وغبطة وسلام. فكيف يُطالَب كائنٌ سويّ بأن يبادل هذا بذاك، وكيف تجد السبيلَ لإقناعه بأن الشقاء وإن كان مصدرا للعذاب، هو مطْهرُ النفس من أوهامها وأدرانها وجراثيمها التي تفتك بالحياة ؟ بل من تراه يريد بطولة توقظ الماردَ الشرير وتستثير العالمَ ضده ؟ ومن يشنّ حربا لإنقاذ قتلى اهترأت لحومُهم وسرى في خلاياهم دودُ الزوال ؟

المعرفة شقاء، أجل، لكنّ الجهلَ بؤس، والفرق شاسع ما بين الشقاء والبؤس وإن تبدّى ألا قطيعة بينهما. ها أنت واقع بين الاثنين يا خلدون، تتأرجح فوق جسر معلّق في الهواء تتقطّع حبالُه كلما خطوتَ، متقدّما أو متراجِعا. الوقت يمضي، وما تبقى من الحبال قليل، والهوّة سحيقة من الجانبين، والعراء وحشيّ ممتدّ حتى أقاصي الأرض، والقحط هائل، ولا ظلّ لعابرٍ أو لمُقيم، وأنت تنتظر في خواء العدم مصادفة تقع عليك فتنقذك من التهشّم فوق صخور الوهم، أو من الانسحاق تحت قلاع الحقيقة. تقدّم، لكي تتعثر، فتتقطّع حبالٌ، ويبقى حبلٌ أخير يحمل جسرا ما عاد تفصله عن الهاوية أكثر من هنيهات...

كفى !!

صرخ خلدون بأعلى الصوت وهو يصمّ رأسه بيديه علّه يأتي على الصخب الذي فيه، فجمد سيلُ الكلام في حلق الجارة التي التفتت مصعوقة إلى أم خلدون التي سارعت

تطمئنها وهي تعتذر هامسة: ألم أقل لك ؟ "كفى"، هذا كل ما على لسانه منذ أسابيع. يصرخ بها حينا وهو نائم، وفي أحَيّان أخرى حين يكون وحيدا في الدار. مع من يتحدّث ؟ أمع ذاته أم مع من يسكنه من العفاريت ؟ ساعات الليل هي أكثر ما أخشاه، إذ يبقى يتقلّب في فراشه وهو يتصبّب عرقا حتى بزوغ الفجر. ومنذ يومين، سمعته يتحدّث إلى زيدون. أجل، الورّاق الذي قضى في حريق حانوته حين كان خلدون غائبا لتقديم امتحان الحراسة. أوَتعتقدين أن روحه تحضره في المنام ؟ ولمَ تعذب روحُه ولدي خلدون، وقد كان له بمثابة الوالد وهو منه في منزلة الابن ؟ ربما كان خلدون غرضَ عمل سوء أو عين شريرة أو حسد حسود، وإلا فما معنى فشله في الامتحان وما هو عليه الآن ؟ وذات صباح، ادّعيتُ تنظيفَ الدار وطلبتُ منه الجلوسَ خارجا، وقلبتُ البيتَ رأسا على عقب علّني أجد طلسما أو كتابا أو شيئا من أثره ملفوفا في قماشة أو في ورقة أو في جلد شاة، وداخله كبريت أو مسامير أو صابون أو رسم غريب أو حروف هجاء. ولم أعثر على ما يُصْدِق ظنوني أو يُسكِت مخاوفي. حتى عتبة الدار وإطار الباب حفرتهما. لا شيء سوى طحين كلس وكتل غبار. أحرقت كلَّ ما كان في حوزتي من بخور مع حبّة البركة، وطفتُ على زوايا البيت سبع مرات، وصلّيتُ ودعيت واسترحمت واستجرت واستعوذت، ثم تفقتُ على فراش خلدون وعلى متكّأ رأسه من حيث تأتيه الأصواتُ التي تذهب بعقله يوما بعد يوم. وتحسّست القطنَ وضربته وقلبته ونفضته، ثم بخّرت ودرت حوله سبع مرات. وما أتى كل ما فعلته بأدنى منفعة حتى سُقط في يدي ويئست. وفقكِ الربّ، ألا تتلين عليه رقيّة من العين الشريرة، فمن يعرف... ؟

١٠

قال المأمور: جيّد. فلنعد إلى اللحظة التي فاجأك من الخلف...

طفرت الدموعُ من عيني سَعْد، فسحب المأمورُ محرمة من جيبه، ثم وقف واتّجه صوب النافذة كي يتيح له أخذ راحته في التمخّط من دون حرج. هه، أتريد كوب ماء ؟ سأله، فهزّ الحارسُ رأسه بالإيجاب. وبعد أن صبّ له وانتظر أن يرتوي، قال: هل أنت جائع ؟ فلم ينل جوابا وإنما نظرات استغراب وحيرة مفادهما: تخضعني لتعذيب أسئلتك منذ ساعات مرغما إياي على ترداد الكلام نفسه للمرة الألف، والآن تنشغل بي وتعاملني كصديق ؟ هان الأمر، أردف المأمور. أقلّ من ساعة ويكون الخفيرُ معنا وفي صحبته سلالٌ تحوي أشهى المأكولات وقد أعدّتها لي زوجتُه، ولها نفَسٌ نادر الطيب ومراسُ أفضل المحترفين في فنون الطعام. ما رأيك أن تكون ضيفي على الغداء ؟ ابتسم سَعْد وقد نقره المأمورُ في الموضع الحسّاس. ثم بارحت الابتسامة وجهَه حين رآه يعاود الجلوس قبالته، متفحّصا ما دوّنه على دفتر خلال جلسة الاستنطاق.

رفع المأمورُ نظره عن الأوراق وقال: أرى أنك هدأت. سؤالان أو ثلاثة على الأكثر، وأطلق سراحَك وترتاح. لا لزوم للخوف أو للبكاء، فلستَ موضع شبهة ولا أحكم عليك بإهمال. إنما هي مقتضيات التحقيق، وما مطالبتك برواية الحدث نفسه عدة مرات، إلا من باب تقصّي معلومات قد تكون أعرضتْ عن ذاكرتك سهوا وقد يكون التكرارُ وسيلة تميط عنها اللثام.

قال المأمورُ ذلك شاعرا بأن كل ما قدّمه من تطمينات ووعود ومغريات لم ينجح في بلوغ الهدف، إذ عاد الحارسُ العملاق يرتعد كالولد الصغير وقد قُبض عليه متبوّلا في ثيابه. منذ رآه وقبل أن يتفوّه بحرف أو يطرح عليه أي سؤال، راح سَعْد يرتجف ويعرق ويلهث فيما هو ضائع على أية من عينيّ المأمور يركّز وبأيّة منهما ينظر إليه هذا الأخير. ثم نسي عينيه ما أن طرح عليه السؤالَ الأوّل، فثبّت بصرَه في الأرض وطفق يجيب كمن حفظ درسا، أو كمن لُقّن بالأحرى درس.

في البداية، لم يرتب المأمورُ بشيء، إذ ظنّ أن لعثمة الحارس وتعثّر ألفاظه وارتباك شفتيه عند رواية الفصل الأخير من الأحداث، أي حادثة الاعتداء عليه من الخلف وتفاصيلَ كمّ فمه وعصب عينيه وإيثاق يديه ورجليه، ناتجة عن حرجه وحيائه من افتضاح ما يتنافى مع مزايا الفحولة والقوة التي اختير حارسا بسببها، بحيث لا يُضيره أن يُنعت بالحمار مثلا لأن ظهور أحد الإخوان ليلا وتوجّهه إلى الواحة ـ وهو ما لم يحدث قبلا استنادا إلى شهادته الشخصية ـ لم يثيرا فيه أي فضول أو استغراب، بينما يستاء ويحنق ما أن يُنتقص من عظمة بدنه الجبّار ! إلى أن أدرك خطأ ما ظنّه، بعدما أجهش سَعْد بالبكاء. يُخفي أمرا ما ! هذا مؤكّد ولا ريب فيه. وما الذي يخفيه هذا الشابُ الذي يصيبه الكذبُ بكل تلك الأعراض ؟ ولمَ يخفي إن لم يكن قد طُلِب منه أو أوعز إليه أو وُضِع تحت تهديد ؟ ومن القادر على إرعاب هكذا فحل، غيرُ فحلٍ من نوع آخر يحقّ له الحلّ والربْط وقطع الأرزاق ؟

غامر المأمورُ وقال: لا تجزعْ يا سَعْد، فقد أطلعني الشيخُ الأكبر على خفية الأمر!
حقا ؟ أجاب الحارسُ وقد انتقل في ثانية من حال إلى حال، إذن تعرف ؟

أجل أعرف، عقّب المأمورُ. لكن، لا يجوز لي سوى تدوين ما ينطق به لسانُك لاستكمال شهادتك ووضع بصمتك تحتها كإثبات يفيد بأنها أقوالك. وها أنا أطمئنك بأن الشيخ الأكبر وعد بعدم طردك إن تلفّظ لسانُك بما كان قد نهاك عن قوله.

لمعت بارقةُ شكّ في عينيّ سَعْد، لكنه سارع إلى إخمادها رغبة منه بتصديق ما قاله المأمورُ، وبالتخلّص خاصة من حمل ثقيل يرزح عليه ويتسبّب في تعذيبه استنطاقا منذ ساعات.

عساه لا يبدّل رأيه، فكّر المأمور، ثم أمسك القلم ووضع يده على الدفتر رافعا نظره إليه... ونطق سَعْد ! فتح فاه وأسرّ أخيرا بما يعلق في حلقه منذ حين: بعد أن ضربه السارقُ على ثنية ركبتيه من الخلف، وقع فتهافت عليه المعتدي وبطحه أرضا ثم جلس فوقه. وبسرعة البرق أوثق يديه ثم ربطهما إلى قدميه. وبعد أن تأكّد من أنه ما عاد يستطيع الحراك، حشر في فمه فوطة، ثم كمّمه ولثم عينيه وأدخل في اللثام ناحية الصدغ لفافة الورق !

سكت سَعْد.

وسكت المأمور.

وبقيا يحدّقان في بعضهما. الحارس بانتظار سؤال، والمأمور خوفا من أن يفضح لعبتَه إن هو بادر إلى السؤال. لفافة ورق ! ما يعني بذلك ؟ هل كانت تحوي غرضا ما ؟ كيف يخرج من هذه الورطة قبل أن يتنبّه الحارسُ فيُذعر ويعود إلى ستر ما كشف بالكاد عنه...

دخل الخفيرُ محمّلا بسلال الطعام، فما عرف المأمورُ أيفرح بقدومه لأنه أنقذ الموقفَ، أم يستاء منه لأنه قطع حبلَ الاعتراف. وقرّر أن يعتبرها هدنة يستجمع خلالها أفكارَه، علّه يجد وسيلة أخرى تُعينه على بلوغ المُراد. ثم اتّضح أنها أكثر من هدنة، إذ أراح قدومُ الخفير سَعْد، بينما أكملت رائحة الأكل الزكية على ما تبقى لدى الحارس من حذر أو توتّر أعصاب.

فرش الخفيرُ ما حمله من أصناف الطعام وجلس الثلاثة يأكلون، فيما المأمورُ يُثني على براعة زوجة الخفير معتذرا عمّا يسبّبه لها من إزعاج، والخفير يعتذر بدوره عن قبول أجر لقاء ما يقدّمانه من خدمات مع أن الضيافة واجب، لكنّ الأوضاع للأسف على قدّ الحال. هكذا، بين أخذ وردّ وجُمل تُحكى لخلوّها من أي مضمون، إلى أن بدّل المأمورُ وجهة الحديث بأن قال وهو يصبّ للحارس المزيد من الطعام: أين وضعتَ لفافة الورق أيها الخفير ؟ تلك التي سلّمتك إياها بعد أن استلمتُها من الشيخ الأكبر ؟

لفافة الورق ؟! أجاب الخفيرُ وهو يكاد يختنق بلقمته، فغمزه المأمور خفية قبل أن يضيف: أجل، تلك التي وضعها السارقُ داخل اللثام حين عصب عينيّ سَعْد ! صمتَ الخفيرُ مدّعيا التفكّر ساعيا إلى كسب الوقت، فجاء المأمورُ إلى عونه إذ قال: أنظر إن كنتَ لا تجدها في أحد جيوب معطفك. وقف الخفير وراح يفتش في جيوب معطفه والمأمور يحثه على الإسراع وعلى البحث مجددا، فيما نبرة صوته تتصاعد حتى بلغت حدّا يجاور الصراخ: وتُضيع بإهمالك أدلّة ثبوتية ستعيق التحقيق ؟! وإن لم تجد لفافة الورق، اعتبر أنك مطرود، هذا إن لم تحاكَم بتهمة خيانة الولاية وإعاقة مهمّة مأمور انتدبه الحاكمُ شخصيا، لحلّ هذه القضية !

المأمور يوبّخ الخفيرَ، والخفيرُ يتضاءل، والحارسُ جالسٌ في الأرض ينقل بصرَه بينهما، وقد توقف عن الأكل فجحظت عيناه وفغر فاه. خرج المأمورُ وصفق البابَ بعنف، فانهار الخفيرُ على ركبتيه وهو يلطم على فخذيه وينوح: كيف أعيل الأولاد ؟ وأين سنعيش إن طُرِدنا من المخفر ؟ وما هذا الحظّ اللعين الذي لي ؟

ربما وضعتَها في المخفر، تذكّر. قال الحارس وقد انفطر قلبُه حزنا عليه.

فردّ الخفير: ماذا أتذكّر وأنا لا أعرف حتى عمّا يتكلّم !

قال سَعْد: عن لفافة الورق التي تركها السارقُ في عصبة عينيّ !

قال الخفير: ولماذا أخفيتَ عنّي الأمر، حين جئتَ تبلّغني بسرقة المزار ؟

قال سَعْد: لأن الشيخ الأكبر نهاني عن ذلك وهدّدني بالطرد إن أنا فتحتُ فمي وحكيتُ لأي مخلوق.

قال الخفير: وما كان في لفافة الورق ممّا يستوجب الكتمان والإخفاء ؟

قال سَعْد: لا شيء !

قال الخفير: كيف ذلك ؟ هل فلشتها لترى ما فيها ؟

قال سَعْد: أجل، عندما وجدني الإخوانُ فكّوا وثاقي، ثم تركوني وقد انتبهوا فجأة إلى سرقة المزار. أزحتُ عصبةَ عينيّ فوقعت لفافةُ الورق في حُجري، فأخذتها وفتحتها وما كان في داخلها شيء. وحين عادوا إليّ يسألونني عمّا جرى ومتى وكيف، أعطيتُهم إياها فغابوا ثم عادوا مع الشيخ الأكبر الذي طلب مني بداية، أن أتكتّم على الأمر. فاستغربت وقلت له: كيف ؟ ألا نرفع شكوى إلى الخفير وقد وقع اعتداء عليّ وخُلع الصندوقُ المحرّم وسُرق منه اللوح ؟! فأجاب أني محقّ. ثم انفرد بي وسألني، أمرني بالأحرى، بلهجة لا تخلو من ترهيب ووعيد، أن أروي ما شئتُ، شرط تغييب هذا التفصيل. والآن غيّر رأيه فكشف بنفسه للمأمور ما نهاني عن كشفه لك.

قال الخفير: ربما خاف أن أضيع ما اعتبرَه دليلا مهمّا. لكن، كيف تكون لفافة ورق على أهمية كهذه وهي فارغة بيضاء ؟

قال سَعْد: كانت فارغة أجل. لكن، لم تكُ بيضاء تماما.

تمالك الخفير نفسه وقال: معك حق، فلنقل أنها طحينية مائلة إلى الصفرة.

قال سَعْد: لا ! لم تكن بيضاء، بل كان عليها خطّ أشبه برسم !

قال الخفير: خطّ أشبه برسم ؟ وما يكون ؟

قال سَعْد: وما أدراني أنا !

قال الخفير: أكان فيها ما يشبه رسالة أو كلاما ؟

قال سَعْد: لا، كان فيها شكل واحد خُطّ بالحبر.

قال الخفير: أتذكر ذاك الشكل كيف كان ؟

قال سَعْد: أجل. ثم رسم بإصبعه في الهواء.

قال الخفير: ألا تريني الشكلَ على الأرض ؟

فرسم الحارسُ مربّعا ووضع في داخله شكلا يشبه الفاصلة...

دخل المأمورُ وقال: تعال يا سَعْد. لقد انتهيتُ من استجوابك. ضع إبهامَك هنا، أسفل الورقة. فبصم الحارس على شهادته ثم انصرف.

روى الخفيرُ ما جرى بينهما من حوار. ودوّن المأمورُ ما رواه وكان قد أصغى إليه من وراء الباب. قال الخفير ممازحا: انخلع قلبي لحظة سألْتَني عن لفافة الورق. ثم فهمتُ أن في الأمر لغز. فردّ المأمور: أجل. ولا أظنّه لغزا واحدا، بل ألغازا وألغازا. ثم نظر إليه فقال مبتسما وضاربا بكفّه على كتفه: أهلا بسيادة الخفير وقد أصبح معاونا لي ! إجلس، فنحن لم نكمل غداءنا بعد.

وفيما هما يأكلان، قال الخفير: وما معنى الشكل الذي يشبه فاصلة كبيرة ؟

فقال المأمور: اقلبها وانظر.

قال الخفير: بالطبع، هي حرف واو !

قال المأمور: وما هو برأيك ؟

قال الخفير: إنه حرف عطف.

قال المأمور: بل الحرف الأول من اسم !

قال الخفير: وهل يُعقل أن يكون السارقُ قد وقّع فعلتَه بالحرف الأول من اسمه ؟

قال المأمور: ولمَ يفعل ذلك برأيك ؟

قال الخفير: كي نستدّل إليه ؟

قال المأمور: أنا وأنت ؟

قال الخفير: لا أظنّ. فمن أين كان له أن يعرف مسبقا بأن القضية ستبلغ بابَ الولاية ؟

قال المأمور: وإذن ؟

فما أجاب الخفير، فتابع: وإذن أراد أن يستدلّ الإخوانُ إليه !

قال الخفير: وإذن يعرفه الإخوان ؟

قال المأمور: ربما.

قال الخفير: ولهذا لم يرغب الشيخُ الأكبر تبليغي بالسرقة بادئ ذي بدء، لأنه عرف من هو السارق وأراد حتما تغطيته. ألا يكون مثلا أحد الإخوان ؟

قال المأمور: ولمَ يقوم أحدُ الإخوان بسرقة مزار لا حجّة لوجوده من غير ما يحتويه، ولا مبرّر لوجود الأخوية في القرية أصلا من دونه ؟ ثم، منْ منهم على مثل تلك القوة ليتمكّن من فحل كسَعْد ؟

قال الخفير: وإن لم يكن السارق من أهل الأخوية ؟

قال المأمور: إذا لم يكن من الإخوان، فما هو دافعه إلى ترك ما يشير إليه ؟ وما باعثُ الشيخ الأكبر إلى إخفاء هوية السارق، إن كان يعرف من هو ؟ ذلك هو السؤال.

صمت الإثنان. فقال المأمور بعد تفكير: الأغلب أنه لا يعرف هويته. على الأقل، ليس بعد. أجل، أراد إخفاءَ الأمر لأنه اعتبر لفافة الورق بمثابة رسالة شخصية موجّهة إليه، رسالة أشبه بلغز ودّ حلّه من دون تدخّل خارجي. "قضية داخلية" بمعنى ما... لا أدري. ربما كانت هذه كلها تكهّنات. على كل حال، لن أفهم شيئا ما لم أستنطق الشيخَ الأكبر ومن معه من الإخوان.

١١

تنهّد سَرّاج، ثم أغمض عينيه مُلقيا رأسَه إلى الجدار.

كان قد لمح الخفيرَ عبر النافذة متّجها إلى حيث قرّر المأمور النزولَ وتحويلَ إحدى الغرف في أقصى الجانح الثاني من الخانقاه إلى مقرّ له، يزاول فيه عمله في النهار ثم يحوّله ليلا إلى دار لسكناه.

جاءهم في اليوم التالي لوصوله، باكرا عند الصباح، فجمعهم في البهو الكبير ثم أطلعهم على نيّته الإقامة بينهم. بقوا صامتين. إذ ما كان يمكنهم القول أو الفعل، وقد رأوا الشيخَ الأكبر بنفسه يعضّ على لسانه كي لا ينطق بما لا تحمد عقباه، مكتفيا بإيماءة من رأسه تشير بضرورة تهيئة المكان لاستقبال الضيف الدخيل. كان المأمور قد قام بجولة استطلاع. وحين خرج، وقف في الباحة التي يشكّلها جانحا الخانقاه الملتقيان بشكل عامودي في الزاوية حيث يقوم البهو الكبير، فتلفّت يمينا، ثم يسارا، وأشار إلى غرفة بعينها في الجانح الثاني تطلّ إحدى نوافذها على المدخل الرئيسي المفضي إلى غرف الإخوان، والنافذة الأخرى من الجهة المقابلة على المزار القائم مع مقرّ حارسه على نحو مائتين من الأمتار. هكذا يسيطر على تفاصيل المكان، فيرقب حركة نزلائه أو غرباء يأتون من أسفل الهضبة للتبرّك. أي غرباء وأي تبرّك، بعد أن منع الشيخُ الأكبر الزيارات منذ حدوث السرقة في ذلك اليوم المشؤوم، ثم نهاهم عن العمل في محترف الكلام إثر قدوم المأمور !

بإمكان سَرّاج توجيه اللوم إليه في كثير من الأمور، إلا في هذا، فهو مضطرّ للاعتراف بأن الشيخ الأكبر كان محقا، وإلا لكان المأمورُ حشر عينَه الحولاء فيما لا يعنيه، فانكشف عليه سرّ ما يعدّونه من معجم الحروف، زد عليه أن أخوية الوفاء لم تحظَ يوما برضى الولاية فعلا، وإنما حمتها إقامتُها في مكان له حرمته. ثم أن أهل أخوية الوفاء على مرّ الحقب والسنين، التزموا دوما حدودَهم فما تجاوزوها إلى ما لا يعنيهم أو يعرّض سلامتَهم التي اكتسبوها لقاء ثمن تكلَّفَه من سبقهم من أجيال. أفلا يكون الشيخُ الأكبر حكيما إذن في رضوخه الصامت وفي امتثاله لأوامر ممثل الحاكم، مأمور إدارة الأمن المكلّف بالتحقيق في قضية السرقة، حمايةً لأمن الإخوان وحفاظاً على حالة توازن حقّقها عقدٌ ضمنيّ بين الأخوية والولاية: لا تنشرون تعاليمَكم ومعتقداتكم، ونترككم نحن من ناحيتنا في سلام. أجلّت الولايةُ وَعْدَها بعدم التعرّض لهم أو المساس بهم، واحترموا هم عهدا قطعوه بالاكتفاء بتطبيب النفوس، متوسّلين علومَهم الباطنية التي يرفضون الكشفَ عنها بالأصل، ذلك أنهم يرون العلوم على مستويات: منها ما يناسب عامّة الناس كأحكام ما تُبتلى به العامّة من مسائل، ومنها لا يناسب إلا العلماء لأن مثل هذا لا تقدر على تحمّله وتلقيه وفهمه إلا الخواص.

لمح سَرّاج الحارسَ خارجا من مقرّ المأمور. لمَ أبقاه طوال هذا الوقت، وما الذي يعرفه هذا الشاب بعقله المسكين ليستحق احتجازا واستنطاقا خلال ساعات ؟ بالفعل، لا تنبغي الاستهانة بمن كان من أهل العاهات، وإن كان حَوَلُ العينين أخفها وطأة وأقلّها إعاقة، فهو صعب الاحتمال لما يثيره لدى الناس من استهزاء. فكيف الحال وصاحب العين الحولاء ذو منزلة رفيعة ومنصب رسمي يُفترض أن يستدعيا الخوفَ والاحترام ؟

سيقابلهم جميعا قال، أفرادا لا جماعة، لذلك قرّروا الاجتماعَ معا في البهو الكبير، بدلا من الانتظار منفردين كلاّ في غرفته. ما عدا الشيخ الأكبر. بقي في دار خلوته كما يفعل منذ أيام، متفاديا الاختلاط بهم بأكثر ما أوتي له. والإخوان ضائعون لا يعرفون كيف يقتلون الوقتَ الساري عليهم ثقيلا، بطيئا، بخطى سلحفاة. وسَرّاج الذي يرقّ لحالهم، لا يعرف كيف يشغلهم ويروّح عن أفكارهم القاتمة سوى بأسئلة يطرحها هنا وهناك، متذرّعا بعماه الذي بدأ يضيق به.

لماذا يتركهم الشيخُ الأكبر على هذا الوضع، وهو العارف بأنه الوحيد القادر على إثلاج صدورهم من حريق ما يتآكلها من تساؤلات حيال ما ينتظرهم في غد محتجب وراء سحب المفاجآت ؟ وما تراه يفعل في دار خلوته سوى الانكباب على فكّ رمز ما تركه السارقُ في لفافة ورقية، وقد نهى الإخوانَ عن التحدّث بأمرها أو الانشغال بها أو الإتيان على ذكرها، حتى في الجلسات التي تضمّهم بعيدا عن سمع المأمور. ولمَ التكتّم على ذلك أصلا، فكّر سَرّاج، إن لم يكن الشيخُ الأكبر يشكّ في شخصٍ بعينه، معتبرا أن المسألة تخصّه شخصيا دون سواه ؟ ومن يكون المشتبه به الأول في نظره، إن لم يكن العَلايِليّ، هذا إن كان على قيد الحياة، بعد ما خصّه به من سوء أعمال ؟ وخطر لسَرّاج أن كل ما أصابهم ويصيبهم ناتج عن انحراف الشيخ الأكبر عن طريق الخير القويم. ثم تبادر إلى ذهنه أن المسؤول بالأحرى هو العَلايِليّ بما أتاه من عمل سابق أجبر الشيخَ الأكبر على إبقائه طيَّ الكتمان، لخطورة عظمى تتهدّد حتما حياةَ الأخوية والإخوان.

عاد صدرُ سَرّاج يضيق بأفكار تتضارب فيما بينها ولا تستقرّ على رأي، بل تزداد ضراوة وشراسة كلما ازدادت حججُ إقناعها من هذا الجانب أو من ذاك، تضاف إليها فكرة طارئة جاءته للتوّ: ماذا لو وشى الحارسُ سَعْد بسرّ اللفافة الورقية، وأمرُ جرّه للاعتراف سَهْل على من كان في حنكة أحول العينين ؟ ليكن ! بل هو حتى ربما لخيرنا في نهاية المطاف، وإن بدونا جميعا كاذبين في نظر المأمور. فلتُفتضح الأسرارُ أيا كانت ولينكشف المستور، ولن تكون الحالُ أكثر سوءا ! وما يستطيعه المأمورُ إن اكتشف أنهم كذبوا ؟ أيودعهم السجن جميعا ؟ لا، هذا مُحال ! ولِمَ يكون ذلك مُحالا والولاية تترقّب ربما أدنى زلّة لكي تختم بالشمع الأحمر بابَ الخانقاه ؟ لماذا لا يواجه سَرّاج المأمورَ إن كان الحارسُ قد وشى بهم، فيقول: كما تأتمر أنت بأمر الحاكم وتُدعى مأمورا، نأتمر نحن بأوامر الشيخ الأكبر الذي أوعز إلينا بالكتمان !

ويخون أحدَ إخوانه ؟ وتخون يا سَرّاج أحدَ إخوانك الذي عايشتَ وعاشرتَ حتى أصبح أغلى منزلة على قلبك من الأهل ؟ أجل، أخون صونا لعهد يربطني بالأخوية وببقية الإخوان ! ولا، لا أخون أخا لي ولو بتروا لساني وفقأوا عينيّ وجرجروني في الشوارع وعلّقوني مصلوبا أمام الملأ وسحلوا جلدي وأدخلوا في بدني خازوق !

اقشعرّ بدنُ سَرّاج من هول ما صُوّر له، فوضع الصغيرُ حَيّان يدَه على فخذه وسأل: أتشعر بعياء ؟ هل أجلب لك شيئا أم أقودك إلى غرفتك لترتاح ؟ تبسّم سَرّاج وربت على اليد يطمئنها لما شعر بها من توتّر وخوف عليه، ثم علّق جابر: لمَ يُطيل المأمورُ انتظارَنا هكذا ؟ إذا كان يريد استنطاقنا أفرادا كما قال، وإن كان سيبقى مع كلّ منّا ما بقيَه مع الحارس، فهذا معناه أننا لن ننتهي قبل الفجر، بل قبل أيام !

قال سَهْل: لا أحد يجبرنا على انتظاره، لكن قرّرنا الاجتماعَ هنا قتلا للوقت.

وقال شمس الدين: والشيخ الأكبر، أيتركنا هكذا عرضة للأسئلة وما أشار علينا بما نكتم وبما نستطيع الإفصاح عنه ؟

وقال ابن عطا: عمّا تراه سيسألنا المأمورُ وقد روينا له مداورة ما كان، حين التقيناه أول مرة. وما ترانا نضيف على ما رواه الحارس سَعْد، ونحن لم نشهد شيئا مما جرى وقد ردّدنا ما أخبرَنا إياه ؟

وقال الحكيم: ربما ينوي استنطاقنا عن أعمالنا وعمّا نمارسه من علوم. بماذا نُجيب والحال هذه، وأين نضع سقفَ الممنوع وما دونه ممّا يُسمح لنا البوح به ؟

وقال ابن مسرّة: قلبي ينبئني بأشياء لن يسرّكم سماعُها.

فسأل جابر: أشياء من أي نوع ؟

فردّ ابن مسرّة: من نوع أن هذا المأمور داهية لا يؤمن له.

وعلّق الحكيم: ومعناه ؟

فتابع ابن مسرّة: معناه أن هذه القصة كلها مؤامرة ملفّقة هدفها إغلاق الأخوية بعد طرد من فيها من إخوان !

قال شمس الدين: ومن حاك هذه المؤامرة برأيك ؟ هذا إن قبلنا الفرضية التي هي أقرب إلى خيال واهِم أكثر منها إلى العقل !

فأجاب ابن مسرّة: أولئك الذين لم يكتفوا بتدنيس حرمة المكان وسرقة المزار، بل جعلوا يفتعلون الحوادثَ والاضطرابات حتى تنبّهت الولاية وجاءت للتحقيق !

قال الحكيم: فهمنا ! لكن، لم تقل لنا من يكونون برأيك من تسمّيهم "أولئك".

فتابع ابن مسرّة: هم الذين هجموا على الحارس فضربوه من الخلف حتى ظنّهم واحدا وهم كثرة...

فقاطعه شمس الدين: كفى يا ابن مسرّة ! إمّا أن تقول كلاما منطقيا وواضحا، وإمّا السكوت وهو خير الحلول !

فسأل ابن مسرّة مستاء: ولفافة الورق وما فيها، أنسيتموه ؟

التفت الإخوانُ بعضُهم إلى النافذة وبعضُهم الآخر إلى الباب، وقد أصيبوا بحالة ذعر تبعها ذهول. كيف تجرؤ ؟ أنّبه شمسُ الدين، فخفض ابن مسرّة صوته وأجاب: سامحوني، لكنها أفلتت مني بعد طول احتباس ! دعوني أفضض قلبي الآن، وقد سبقني وتلفظ بما يثقل عليه.

وجم الإخوانُ حرجا وخوفا وحذرا، إلى أن بادر سَرّاج إلى الكلام: فضفض يا ابن مسرّة ولا تخف، إنما اخفض صوتك فللجدران آذان !

فقال ابن مسرّة: حرف الواو، ألا يذكّركم بشيء ؟

قال الحكيم: هه، عدنا مجددا إلى لغة الألغاز ؟

فأردف ابن مسرّة: واو ... ولاية... ألا تفطنون ؟

واستفهم جابر: تعني أن باب الولاية هو من حاك المؤامرة...

فقاطعه شمس الدين غاضبا: معقول ؟ أوَصَلَ بك الخوف يا ابن مسرّة إلى حدّ الهذيان ؟ وتقول ذلك أمام الصغيرين جابر وحَيّان ؟ أرأيتَ يا سَرّاج أن الشيخ الأكبر كان محقا في منعنا من التطرّق إلى هذا الموضوع ؟

أطرق سَرّاج. فجاء سَهْل إلى نجدته وقال: ما أخطأ سَرّاج، إذ ما النفع من إسكات ما يعتمل في دواخلنا جميعا من نقاط استفهام ؟ كما كان الشيخ الأكبر مصيبا في مطالبتنا بالنسيان، إذ ما جدوى أسئلة ليس لها على ما يبدو جواب !

تمكّنت الحيرةُ من الإخوان، بعضهم متردّد في مواصلة النقاش، والبعض الآخر مستاء مما دار من حديث هو أشبه بإعلان عصيان. وكعادته، كان سَهْل الأكثر جرأة بينهم إذ سأل بصوت لا يخلو من رعشة: أيكون الشيخ الأكبر منعنا من خوض الموضوع تخفيفا عنّا فقط ؟

فانتقض شمس الدين مستنكرا: والله لا أبقينّ بينكم ثانية إضافية ! نظر حواليه يطلب دعما. وحين وجد ألا عضد له بينهم، انسحب وهو يتفتف أنصاف ألفاظ...

حذّر حَيّان: سيشي بنا إلى الشيخ الأكبر !

فطمأنه جابر: لا تخف، إنه أكثر جبنا من أن يواجه غضبه وحيدا.

وسأل سَرّاج: لمَ قلتَ ذلك يا سَهْل ؟

فأجاب سَهْل: لا أدري، ولكن ما سبب استبعادنا وعدم إشراكنا في حلّ لغز لفافة الورق، وتسعة عقول تفكّر وتحلّل أفضل ممّا يفعله عقل بمفرده، لا ؟

ما تكون الواو برأيك، سأله سَرّاج.

فقال: هذا هو السؤال ! لكن، لو عرفنا أين نبحث، لوجدنا ربما الجواب.

والمعنى ؟ سأل الحكيم.

المعنى، ردّ ابن عطا، هو البدء بتعيين منطقة البحث، وإلا ذهبنا في جميع الاتجاهات... ثم علق الكلامُ في حلقه حين رأى الشيخَ الأكبر يظهر في الباب ومن ورائه شمس الدين.

دخل الشيخُ الأكبر البهوَ بعد أن حيّا واتّخذ له مكانا بينهم وقال وعلى وجهه إماراتُ الهدوء والانشراح: لا تتوقفوا ! أكملوا النقاش، فما أنا هنا سوى للمشاركة والاستماع. أردتُ تجنيبكم وجعَ الدماغ واحتكاره لي وحدي، لكن يبدو أنكم مصرّون على مقاسمتي إياه. فليكن، هاتوا ما عندكم ولنتشارك في التفكير فربما عثرنا سوية على ما استعصى عليّ منفردا.

تناوب الإخوانُ التفاتاتٍ توزّعت بين الملامة والشعور بالذنب والتشجيع على الكلام والاستفسار عن كيفية التصرّف الآن. وما انبسّ أحدٌ بحرف. فنظر الشيخُ الأكبر إلى سَرّاج وقال: أرى أنك أصبحتَ أفضل حالا منذ أيام !

ففكّر سَرّاج: يوجّه اللومَ إليّ أنا ويحذّرني بكلام مفخّخ لا شائبة فيه. ثم أجاب: هذا بفضل دعائك أيها الشيخ الأكبر ودعاء الإخوان !

فابتسم الشيخ الأكبر وقال: لا بل بفضل إيمانك أنت وبحسَنة تقواك ! ثم توجّه إلى الإخوان: نُقل إليّ أنكم تتساءلون عن حدود ما يجب الإفصاح عنه ردّا على أسئلة المأمور.

وها أنذا أجيبكم: لا حدود ولا سقف ولا محاذير ! تفوّهوا بالحقيقة واتّبعوا ما تشير به قلوبُكم وتمليه ضمائرُكم، فلا شيء نخجل به ولا شيء نواريه !

نقول كل شيء ؟ سأل شمس الدين، حتى عن عملنا في محترف الكلام على معجم سرائر الحروف ؟!

أجل، أجاب الشيخ الأكبر. إذا اضطررتم إلى ذلك، فلا تُحجموا !

أبمثل هذه الخطورة هي الحال ؟ سأل ابن مسرّة.

فردّ الشيخ الأكبر: هو وحده العليم. نفعل ما علينا ونسلم له الأمر ! ثم وقف وأضاف: هل من أسئلة بعد ؟ فما تفوّه أحد، فأخذ وجهة الباب ثم توقف وتابع: سأبقى في دار الخلوة لوقت... شيء أخير، اعتبروا أنكم في حلّ من واجب كتمان أمر لفافة الورق وما تحويه.

قال هذا، ثم حيّا منصرفا. ففكّر سَرّاج: لقد حلّ لغز اللفافة الورقية ! فليسترنا الربّ ممّا اكتشفه وممّا يزمع عليه في السرّ !

١٢

كانت الشمسُ قد أتمّت نزولَها من قبّة السماء للاستلقاء فوق خطّ الأفق، حين قرّر حَيّان الخروجَ إلى الواحة علّه يجد جابر هناك.

عبَرَ الباحة على عجل مثبتا بصرَه في الأرض ومتفاديا الالتفاتَ إلى النافذة حيث كان المأمورُ يُخضع شمسَ الدين للاستجواب. بعد خروج الشيخ الأكبر، دخل الخفيرُ عليهم وأطلعهم على أسماء من يودّ المأمورُ مقابلتهم، محدّدا بالترتيب بمن سيبدأ على أن ينادي ذاك حين ينتهي استجوابُه، على من يليه. وحدهما جابر وحَيّان استُبعدا، إضافة إلى الشيخ الأكبر. يتركه لجلسة خاصة، فكّر الإخوان، ثم انصرفوا إلى غرفهم وقد ضاقت صدورُهم بكل ما دار من أحاديث كلّلتها توجيهاتُ الشيخ الأكبر التي لم يفقهوا لها معنى، ففاجأتهم حيث لم يكونوا يتوقعون.

ثمة ما يُشعرهم بالاعتداء عليهم وبضربهم في الموضع الأكثر إيلاما، ذاك الذي تعدّى كل ما حدث حتى الآن وأدّى إلى ازدياد لحمتهم وتآزرهم. لكنّ الشيخ الأكبر جعل بابتعاده مؤخرا عنهم، يعرّيهم مما حماهم دائما، بحيث أحسّوا أنهم تضعضعوا بعد أن نُزعت من قلبهم النواةُ وباتوا عرضة لدود الظنون والتساؤلات.

يتصرّف منذ حين وكأنّ المصيبة حلّت به، وكأنهم ليسوا معنيين. أم هو سوء تصرّفهم ما يبعده عنهم ؟ لو كانوا أهلا للثقة، لو أبدوا صلابة وتماسكا بدل ما أظهروه من هشاشة وخوف، لكان أشركَهم ربما في أفكاره وأطلعَهم على ما ينفرد به ويقصره على ذاته حين يبقى حبيسَ دار خلوته لوقت يطول.

حث حَيّان الخطى عندما ظهر له طيفُ جابر مستلقيا تحت جذع نخلة، وقد محا نورُ الشمس الغاربة ملامحَ وجهه فلم يُبق سوى على ما غلظ من الخطوط. لم يتحرّك حين جلس حَيّان بالقرب منه، وما انبسّ بحرف حين حيّاه. لا بأس. بعد قليل يفاتحه بما يشغل باله. الأفضل أن يتركه الآن وإلا أثار غضبَه فازداد صديقُه انغلاقا وهو ضياعا من دون طمأنة جابر ونصائحه التي تُعيد الأمورَ دوما إلى نصابها الصحيح.

هبّت نسمة باردة حرّكت سعفَ النخيل، فتراقصت ظلالٌ برتقالية فوق التربة السوداء، وهمس قلبُ حَيّان لجابر وقد مال عليه: لا يسعني أن أبقى صامتا وأنا أراك على هذه الحال. لقد منحتُكَ فرصة منّي طوال بعد الظهيرة، وها أنا قد جئت في أثرك بعد أن ضاقت بي الجدران. هزّ جابر رأسه وقد ارتسم عند زاوية فمه شبحُ ابتسامة، فاكتفى حَيّان بتلك الإشارة معتبرا أن صديقه يرتضي وجودَه وأنه سيوجّه إليه الكلامَ بعد قليل. أين أصبحوا ؟ سأل، فسارع حَيّان يجيب: ينتهون عمّا قريب. بقي ابنُ مسرّة وهو الأخير. شمس الدين لم يزل مع المأمور وقد أوشك على الانتهاء. صمت جابر. فتابع حَيّان: أرأيتَ؟ لم يُطِل معهم كما مع الحارس سَعْد. على فكرة، لم أره أمام باب المزار وأنا قادم إليك. أتعرف أين يكون ؟ صرفه الخفير، أجاب جابر. حقا ؟ سأل حَيّان، ويحقّ له صرفه من دون إذن المأمور ؟

ارتفعت نبرة جابر واختلطت بشيء من التوتّر وهو يقول: ما هذه الأسئلة التي تطرحها، بالطبع هي أوامر المأمور ! فاطمأنّ حَيّان مزيدا وقد عادت إلى صديقه موسيقى النبرة التي طالما اعتادها منه، فأردف: ويفضلُ المزارُ هكذا سائبا من دون حراسة ؟ فاستقام جابر في جلسته ونظر إليه بغضب يخالطه استهزاء: أيوجد بعد فيه ما يستوجب الحراسة ؟ أم أنك تحبّ الكلامَ هكذا للكلام ؟ حسنا، أجاب حَيّان، لا تغضب، إنما أنا أفكّر بصوت مرتفع، هذا كل ما في الأمر ! وتسمّي هذا تفكيرا ؟ قال جابر. والله إني لأشكّ أحَيّانا أن في رأسك دماغ قادر على إنتاج فكرة وحيدة جديرة بالتعليق عليها أو بالنقاش ! وأتساءل ما الذي دفع الإخوانَ إلى قبولك بيننا، وأنت أهلٌ لأن تكون نزيلا دائما في مصحّ مهابيل !

ضربت الحمرة وجهَ حَيّان وراحت أهدابُه ترتعش بخفقان سريع بعد أن شعر بأن جابر تجاوز بكثير ما اعتاد سماعَه منه من مزاح وتأنيب، فعضّ على شفته السفلى وقد

أنبأته بحركتها أنه مقبل على البكاء. لن يسكت له هذه المرة ولن يسمح له ! لا يحق لك يا جابر أن تعاملني هكذا وأنا ما أذيتك أبدا أو جرحتُ مشاعرَك ! كان بودّه أن يجيبه بهذا لكنّه بقي صامتا، لا مداراةً له، بل ليقينه بأنّ دموعه ستفلت منه ما أن يحرّك شفتيه، وهو مشهد لن يمنّ على صديقه بالتفرّج عليه لأنه يستدعي شفقته، وهذا ما لا يريده حَيّان: أن يعتذر جابر بكبرياء منتصرٍ جبّار تنازل فأظهر رأفة، بعد أن ملّ التلذذَ بسحْق ضحاياه.

شعر حَيّان بالمذلة حين نهض جابر موشكا على الانصراف. وإذن لن يعتذر له ! يتركه ويغادر وهو يراه على هذه الحال ؟ ما الذي أتاه وبمَ تلفّظ ليستحق منه هذا القدر من الضغينة والتحقير ؟ سيلتفت إليه بعد قليل، هذا أكيد، فيراضيه كالعادة بعد أن يتنبّه أنه أذاه.

وجابر يقف ولا يعيره انتباها. وحَيّان يكاد يختنق بالغصّة التي انحشرت في بلعومه كحصاة. ويخطو جابر خطوة، ثم أخرى، ثم خطوات. وحَيّان يريد اللحاقَ به وركبتاه لا تطيعانه بأكثر من الجثوّ عليهما. وجابر يواصل التقدّمَ بحيث ما عادت تفصله عن حدود الواحة سوى أمتار. إن لم يستدِر ويصالحه حالا، فهذا معناه إن الإناء انكسر لا محالة، وأن ما انكسر لن تعاد لحمتُه حتى الممات...

ربما هو حَيّان من بالغ مُظهرا حساسية مفرطة إزاء سلوك درج عليه جابر. فربما كان مستاء من أمر آخر، فزادت على قلبه أسئلةُ حَيّان حتى انفجر كبركان. هو المخطئ في حقه، لا يتركه لحاله أبدا، فيلازمه كظلّه ويبقى ملتصقا به أينما ذهب وكيفما استدار.

حقك عليّ يا جابر، لا أمنحك هدنة منّي وأبقى أرطن على رأسك وأحاصرك بكلامي الفارغ، حتى شعرتَ بالاختناق. وبدلا من مواساتك وسؤالك عمّا بك، ها إني تبعتك إلى الواحة وجلستُ عليك كظلّ ثقيل. وما هي إلا لعبة أمارسها منذ زمن لاعتقادي بأنها تمتعك لما تشعرك به من تفوّق. أقسم لك أني فهمت. ضَعْ ما أردتَ من شروط، لكن عُد. لا أستطيع وحدتي من دونك ولا مبرر لحياتي إن خرجتَ منها...

اندفع حَيّان وراء جابر كالسهْم حتى أدركه فعانقه من الخلف، فدفعه ذاك عنه وتابع طريقه. فأعاد الكرّة ليقينه بأنه إنما يلاعبه، حتى ضربه جابر بمرفقه على الصدر، فحلّ

ذراعيه وكان ما زال يطوّقه. استدار جابر ينظر إليه وعيناه تقدحان شررا، فاقترب ليعانقه مجددا، فما كان منه إلا أن دفعه عنه بعنف وجعل يضربه وهو يقول: إياك أن تقترب منّي أو تلامسني بعد الآن، وإلا قتلتُك بيديّ الاثنتين هاتين !

ابتعد جابر وشعر أنه يكره الجميع، أنه قادر اللحظة على إحراق المزار والخانقاه بمن فيه، وأنهم لو عصروه الآن لما وجدوا في شرايينه نقطة دم، بل خُلاصة مركّزة من سمّ مقطّر زعاف ! لو يستطيع إفلات صوته على مداه، لأطلق صرخة ترتجّ لها السماء ! ولمَ هذا كلّه ؟ لأن حَيّان تبعه وكان يرغب البقاء وحيدا ؟ لا. لأنّ المأمور أقصاه من حلقة المستنطَقين معتبرا أن صغر سنّه وقلّة خبرته لن يفيداه ؟ أيضا لا ! ولمَ إذن ؟ لا يعرف بماذا يجيب. ويزداد رعيدُ العاصفة فيه، فيلمع برقٌ وتهب ريحٌ تقتلع شجرا وتهدم أبنية، ويهدر إعصار.

انعطف نحو المزار ليهدئ من روعه، ثم أمسك بقضبان الباب يهزّها. من أين خرج منه كل هذا العنف فصبّه على رأس حَيّان وما أتى هذا الأخير بما يغضبه ؟ وكيف لا يندم الآن على فعلته وقد عرف أنه طعنه في القلب ثم جعل يحفر بالسكين موضع الجرح ؟ لا يشعر بالندم أو بذرّة ذنب. وما جاء يفعل في الأخوية إن كان يستطيع مثل هذا الشرّ ؟ وأين اختفى حبّه للبشر وإيمانُه بالخير وتوقه إلى الفناء في الربّ ؟ إن كان قادرا على مثل هذا وله فقط خمسة عشرة من الأعوام، فما الذي سيخرج منه متى قسا عودُه وتقدّم في العمر ؟

شعر جابر بالخوف، خوف من نوع آخر جعل يسري فيه متلوّيا كأفعى. تصبّب العرقُ منه غزيرا حين راودته فكرة الرحيل عن الأخوية، فورا وفي الحال. استدار ينظر إلى أسفل الهضبة وقدماه تحثّانه على الجري نزولا، هربا من عدوّ كمن له وفاجأه للتوّ، وهو يقاوم رغبتَه تلك، فيما المساءُ الهابطُ يضاعف مأتميّة ما غشى قلبه من حجاب...

١٣

بدا الجوّ دافئا على صفرة وشحوب طرحهما نورُ القنديل على وجوه انفرجت ملامحُها بعد طول انقباض، كأنما هي قد أسرّت أخيرا بما تحتقن، فتخفّفت وراقت ورجعت إليها وداعة الأطفال.

دخل جابر فوجد الإخوانَ مجتمعين في البهو الكبير، وفوجئ بحضور الشيخ الأكبر بينهم. اتجه إلى حيث كان يجلس سرّاج، فحشر نفسه بالقرب منه وشعر بطمأنينة مباغتة كأنما هو قد عاد إلى البيت بعد غياب.

مضى زمن ولم يرهم على هذه الحال، مرتخي الأبدان، متلاصقي الأطراف في وضعيات أمانٍ وتآخٍ واستسلام. رأس الواحد على خاصرة الآخر أو ذراعه على كتفه، والكلام هادئ، ناعم، يخرخر كالمياه أو يتطاير كرذاذ. الشيخ الأكبر يضحك وعيناه تشعّان، والإخوان يطلقون الكلمات في الهواء، ثم يعاودون اصطيادَها، فيملّسون على أجنحتها ويقبّلون مناقيرَها، متباهين بجمالها وندرتها وبراعتها في الطيران. كأنها مباراة أو سوق تجّار يتبارزون في عرض بضاعتهم، وقد آب كلٌّ منهم بما يثير الدهشة والإعجاب.

انتبه جابر بعد تركيز أنَ موضوعَ الحديث هو المأمورُ وما دار في جلسات الاستنطاق، حيث راح كلٌّ من الإخوان يباهي بما أخرجته قريحتُه من إجابات مفصّلة على المقاس، منضبطة وصائبة وعلى قدْر محكم من الوضوح والغموض، مستنتجا أن المأمور ضائع اللحظة حتما بين تلال ما رموا عليه من معلومات، وأنه يحتاج إلى أيام في أفضل الأحوال، إن لم يكن إلى أسابيع، كي يتمكّن من هضم ما أشبعوه به من أسرار.

مداورة، جعلوا يُثنون ع² حكمة الشيخ الأكبر ويزايدون في المديح وفي الاعتذار وفي تبرير كيف أنهم لم يفهموا إرشاداته في بادئ الأمر، مردّدين كم كان صائبا حين نصحهم بالردّ على أسئلة المأمور وبعدم إخفاء أي شيء، حتى المتعلّق منه بما قطعوه على أنفسهم من عهد لدى انتسابهم إلى الأخوية، بعدم إفشاء سرائر معتقداتهم وعلومهم وما يربطهم من ميثاق. ثم انكبّوا على المأمور يشرّحون أدنى خلجاته، يفصّلون ردود فعله، يحلّلون أقلّ ألفاظه، إلى أن اجتمعت لديهم صورة رجلٍ خرج إلى الغابة مدجّجا بالسلاح بعد أن داعب ما نال من أوسمة تثبت براعتَه في التهديف، فما انطلقت بندقيتُه بأي رصاصة، إذ

لم يلقَ في الطريق أي طريدة، بل هو حتى أضاع الدربَ فما وصل الغابة فعاد من حيث جاء وكأنه ما ذهب البتة في رحلة الصيد تلك، فقرّر أنه حلم، ثم نسي ونام.

قال سَهْل: ثم سألني عن تاريخ الأخويات، فأجبته بما طلب شارحا أن النفوس المتعطشة إلى الوحدة والتقشّف والعبادة والزهد في أحوال الدنيا وُجدت دائما وفي كل زمان، وأنها كانت تجتمع أحَيّانا في حلقة حول معلّم أو شيخ يستمرّ له أتباع بعد وفاته. وأضفتُ أن الأخوية بمعناها الحقيقي لم تظهر قبل عصر السلاجقة، وأن الطريقة القادرية هي التي أسّست أول أخوية ما زالت قائمة إلى اليوم بحيث يُعرف لها أصلٌ واضح وتاريخٌ مديد.

وقال ابن عطا: حين خرج سَهْل وجاء ينادي عليّ، أعلمني أنه جعل يردّ على أسئلة المأمور بشكل عام، فاستلهمتُ منه بدوري وقد فوجئت بأنه لم يقرب موضوعَ السرقة أو ما تبعها من أحداث. ثم صَرَفني، فخرجتُ أنادي على ابن مسرّة وشرحتُ له الأمر، حتى سَرَتْ كلمة السرّ بيننا وذهبنا إليه الواحدُ تلو الآخر ونحن على بيّنة ممّا ستكون عليه جلساتُ الاستجواب، وفي جعبتنا ردود شبه جاهزة على ما سيطرحه علينا من استفسارات.

وقال ابن مسرّة: هكذا استوضحني عن اختلاف ما يطلق من تسميات على الأمكنة التي تقوم فيها الأخويات وعمّا يفصل بينها من فروق. فحدّثته عن الرباط كاسم أطلق في الأصل على حصون كانت تقام في أمكنة يسَهْل حشد المقاتلين فيها عند حدوث هجمات، يمضي فيها المرابطون حياتهم موزّعين بين التدريب على القتال وتمارين روحية وصلوات تُعدّهم للشهادة في سبيل الله. أما الزاوية فهي ما اجتمع حول مقرّ وليّ أو شيخ له أتباع ومريدون، تضمّ مسجدا ومزارا يحوي مقبرة الوليّ، إلى جانب دور أخرى مخصصة لاستقبال الطلبة والمتسوّلين والمسافرين.

تنحنح شمس الدين وقال: أمّا أنا، فخصّني بالسؤال عن أصول تلقّي العلم والانتساب، وصولا إلى خلع الخِرْقة على المريد.

وبمَ أجبتَ ؟ سأل سَهْل.

بالحقيقة، ردّ شمس الدين وقد بانت في صوته إماراتُ حرج وارتباك.

بالحقيقة الحقيقة ؟ أردف سَهْل.

أجل، أجاب شمس الدين، أتريد التحقق ممّا به أجبتُ ؟

ولمَ لا ؟ قال سَهْل، وقد روينا جميعا ما نطقنا به.

أنتم أكثر ذكاء مني، تابع شمس الدين مغتاظا، وقد أجبتم بما لا يُلزمكم وبما هو ضمن دائرة العام. أما أنا، فما عرفت يوما طريقا إلى الرياء، لذلك تراني أجبت بما أعرف وما تلاعبتُ بالردّ.

وعلّق ابن مسرّة: أيعني كلامُك أنك تتّهمنا بالكذب وتقصر على ذاتك براءة الذمّة والصدق ؟ ثم نظر إلى الشيخ الأكبر يطالبه بحسم الخلاف والحكم بما هو حق وبما هو نفاق، فعدّل هذا الأخير في جلسته وقال: أخبر بما تفوّهتَ يا شمس الدين، ولا غبار عليك وقد أشرتُ عليكم جميعا بقول الحقيقة.

تطلّع شمسُ الدين حوله متباهيا بما ناله من دعم، ثم قال: سألني المأمور أن أروي حكاية انتسابي إلى الأخوية. وحين بادرتُه بالحديث عن دوافعي، قاطعني حاصرا الموضوع في مراحل ما نتدرّب عليه من علم، فقلت إنها ثلاث: الأولى وهي تلقين الطالب المريد، والثانية هي مبايعة الشيخ أو أخذ العهد، والثالثة هي ارتداء الخرقة ومنها نوعان: خرقة التبرّك وخرقة الوِرْد.

أهذا كل شيء ؟ سأل ابن مسرّة. أجل، أجاب شمس الدين، فقام بعضُ الإخوان يربتون على ظهره ويمازحونه: أرأيت ؟ تقلق لما لا يحتاج قلقا وتسيء تقديرَ مواهبك، فها أنت قد نفذتَ كشعرة من العجين ! فتابع شمس الدين ضاحكا: الحقيقة، ليس ذكائي هو الذي أنقذني، وإنما دخول الحارس سَعْد وسؤاله المأمور عن سبب صرفه، وخشيته من الرحيل دون إبلاغ الشيخ الأكبر، وهو الذي عيّنه في هذا المنصب وهو الذي يصرفه منه!

قال الشيخ الأكبر: لم تطلعهم على ردّ المأمور. فأردف شمس الدين: نظر المأمور إليه، ثم إليّ، ثم إليه قبل أن يجيب: صاحب المسؤولية والأمر الآن وهنا، هو أنا ! امضِ إلى أهلك وحين تستتبّ الأمور، نرسل في طلبك وتعود إلى مزاولة عملك كحارس للمزار.

استغرب الحكيم فسأل: لِمَ يصرف المأمورُ الحارسَ وهو الشاهد الوحيد على السرقة ؟

فأجاب الشيخ الأكبر: لأنه أفشى سرّ لفافة الورق ولأن المأمور ظنّ أنه يقبض على عنصر مفاجأة يستخدمه ضدّي غدا في التحقيق. لذا تفادى طرح أيّ سؤال عليكم يتعلّق بالحادثة، على أن يخصّني أنا بالموضوع وقد أيقظت شكوكَه بي مطالبتي الحارس بكتمان الأمر. أما المسكين سَعْد، فقد أراد مقابلتي لإطلاعي على ما جرى بعد أن استبدّ به الندمُ وخاف من عقابي المحتمل له بالطرد.

عاد الحكيم يسأل: والحل ؟

فردّ الشيخ الأكبر: لا لزوم لحلّ إذ لا وجود لمشكلة في الأصل. فلنواصل حديثنا الآن وأطلعكم من ثمة على ما أعددتُه لجلستي غدا مع المأمور.

تلفّت الإخوان يستطلعون من لم يأخذ دورَه في الكلام بعد، وقد أثارت فيهم جملتُه الأخيرة فضولا ونفادَ صبر. ساد صمتٌ تبعته نظراتٌ ملحّة موجّهة إليه: ها نحن قد تكلّمنا جميعا، لك أن تحكي أنت الآن. فحكى الشيخ الأكبر وقال: يا سَرّاج، لم تخبرنا ما دار من أحاديث بينك وبين المأمور وقد طالت جلستك معه. فرفع سَرّاج رأسَه كعادة ضعفاء البصر حين يقصدهم الكلامُ وقال: كنت أنتظر انتهاءَ الإخوان من رواياتهم، ثم سرح ذهني بي فغاب عني ما تتبادلونه من حوار. والآن ؟ سأل الشيخ الأكبر، هل أنت معنا ؟ أجل، ردّ سَرّاج، ها أنا قد عدت بينكم. وإليكم ما حدّثتُ المأمورَ به وقد طالعني بالسؤال عن علم الحروف فقلتُ:

توازي الحروفُ مراتبَ الوجود وهي صور حسّية ظاهرة لأرواح الحروف الإلهية. من هنا قوله: " أصل الأشكال الخطّ كما أن أصل الخطّ النقطة. والخطّ هو الألف فالحروف منه تتركّب وإليه تنحلّ فهو أصلها. وأمّا الحروف اللفظية فالألف يُحدثها بلا شكّ كما يظهر الألفُ عن الحرف إذا أشبعتَه الفتح فإنه يدّل على الألف، كما أنك إذا أشبعتَ الحرفَ الضمّ دلّ على ألف الميل وهو واو العلّة "... وسكتُّ. وانتظر المأمورُ برهة قبل أن يقول: تابع، فتابعتُ: والوجود بحسبه هو واو الغيب مضاف إليه الجود، أي أن (و) + (جود) =

وجود... تريّث المأمورُ معتقدا أني ألتقط أنفاسي قبل أن أستأنف، ولمّا اكتشف أنه أخطأ التقدير، سأل: ومن يكون ذاك الذي تستشهد به ولا تسمّيه ؟

فقلت: هو الشيخ الأكبر !

فقال: ولَمَ لا تسمّيه ؟ أخشية أم احتراما ؟

فقلت: لا هذه ولا تلك، بل لأن جميع من انفتحت قلوبُهم على الحقيقة يعرفونه.

فقال: إذن قلبي أنا موصد ؟

فقلت: عساه لا يكون موصدا، وإنما هو ظنّك أني أتحدّث عن الشيخ الأكبر الذي التقيتَ في الأخوية، بينما أنا أتحدّث عن سواه.

فقال: ومن يكون ؟

فقلت: هو الأصل !

فظنّ أنني أهذي ثم احتار: أيواصل استنطاقي، أم يتركني أخرج للحال ؟ وقرّر استبقائي فسألني: وما يكون حرف الواو بحسب شيخك الأكبر ذاك ؟

فقلت: شيخي الأكبر يدعى محي الدين ابن عربي وهو يقول:

" واو إياك أقدس من وجودي وأنفس
فهو روح مكمل وهو روح مسدس
حيث لاح عينه قيل بيت مقدس
بيته السدرة العل ية فينا المؤسس "

نهض المأمور، ثم سار طولا وعرضا ويسارا ويمنة، قبل أن يعود إليّ قائلا: الواو هو إذن رمز بيت مقدس ؟

فقلت: " الواو من عالم المُلك والشهادة والقهر. مخرجه من الشفتين عدده ستة بسائطه الألف والهمزة واللام والفاء فلكه الأول سنيه مذكورة يتميّز في خاصة الخاصة وفي الخلاصة له غاية الطريق مرتبته الرابعة سلطانه في الجنّ طبعه الحرارة والرطوبة عنصره الهواء يوجد عنه ما يشاكل طبعه حركته ممتزجة له الأعراق خالص ناقص مقدس مفرد موحش له من الحروف الألف ومن الأسماء ما تقدّم "...

انفجر المأمور بالضحك. وراح يحاول إمساكَ نفسه، فيزداد قهقهة حتى خلتُ أمعاءه ستتقع. وحين رآني ثابتا متساويا مع ذاتي، لا أثر للسخرية أو للمزاح في ملامحي ولا مكان لاستياء أو لغضب، اعتذر وقال: لا تؤاخذني. إنما هو جهلي التام بما تفوّهتَ به. ألا تنيرني بلغة أتبيّن بعضَ معانيها وتكون على مستوى معارفي ؟

فقلت: تشكّل الحروفُ عالما غير مرئيّ، هو ضعفٌ للعالم المرئي فضلا عن كونه يتحكّم فيه. تساعد معرفتُها على فهم كيفية تأثيرها في العالم المرئي الظاهر، انطلاقا مما يربطها من صلات مع بقية عناصر الكون. من هنا قوله: " الحروف أمّة من الأمم مكلَّفون، منهم الرسل وهم (ا د ر و)، ومنهم العلماء الراسخون وهم (ذ ز) وفيهم (م ن ك)، والصالحون وهم (ب س ط)، والأغنياء وهم (ح ص ل هـ)، والفقراء (ي ت ق)، والأشقياء (ث ش)، وعوام الأمّة ما عدا ذلك... فاعرف أن الرسل والعلماء والصالحين وما خرج من أدوارها عند النطق بالجواب، لا يخطئ أبدا "...

نظر إليّ المأمور، أو خلتُه ينظر إليّ بما تبقّى من شحيح نور في عينيّ، ثم قال وكأنه يأخذني على حجم عقلي: ألهذا تستخدمون الحروفَ في السحر ؟

قلت: أي سحر ؟

قال: ذاك الذي توزّعونه على الناس في أحجبة وطلاسم وتدّعون بواسطته شفاء النفوس ؟

قلت: لا تسخر أيها المأمور ممّا تجهل !

قال: أتتهدّدني ؟

قلت: معاذ الله !

قال: ولمَ لا تعملون لي عملا يودي بي إلى الهلاك ؟

قلت: هذا ما لا نمارسه في الأخوية ! فإنما نحن عبيد صالحون نذرنا حيواتنا للخير وكرّسناها للصلاة ولمساعدة الخلْق.

قال: وما كل هذه الأوراق التي تخفونها في سرداب تحت الأرض ؟

قلت وقد اتّضح لي أنه اكتشف محترفَ الكلام: هي ما رأيتَ !

فسكت لحظة أضاف من بعدها: هذا شأنكم ولا دخل لي به. إنما أنا أطرح أسئلة تساعدني على حلّ المعضلة التي تعرف. ثم تمهّل ثوان قبل أن يردف: قد يكون للحروف مقدرات باطنية خفيّة كما تقول، لكنها مقدرات تضفيها المعرفةُ على عقل من يجيد فكّ الحرف.

قلت: هذا ظاهرها. أما باطنها فلا يجيء عن طريق المعرفة، وإنما عن باب الكشْف.

فقال: وما الكشف ؟

قلت: هو انخلاع حجاب الغفلة عن القلب كي يدرك الحقيقة.

فقال: وما هي الحقيقة ؟

قلت: هي التي يراها قلبُك.

فقال: وما دخل الحروف في حقيقة يراها القلب ؟

فقلت وقد أصابني إعياء: ما تطلب أيها المأمور فهمَه في دقائق، نمضي نحن أعمارَنا لإدراك الجزء اليسير منه. لقد قال كبيرُنا أحمد ابن عطا إن الربّ، عندما خلق آدم، علّمه سبعين لغة وألفَ باب من العلم، وعلّمه ألفَ حرف وبثّ فيه من الأسرار ما لم يبثّه في الملائكة أنفسهم. لذلك جرت الأحرفُ على لسان آدم بفنون الجريان وفنون اللغات، فنطق بسبعين لغة أفضلها العربيّة، ووضع في علم الحروف كتابين تفرّعت منهما سائرُ العلوم الحَرفيّة والأسرار العدديّة بين الناس، أمّة بعد أمة، حتى يومنا هذا...

قال المأمور: سمعت هذه الرواية. وهو ما يقال إن كتاب القضاء والقدر يحويه.

فقلت: هو نسخة وحيدة عنه وقعت لأحد كبار أوليائنا عن طريق الكرامة والكشف.

فسأل: ولمَ يُدعى لوحُ القضاء والقدر ؟

فقلت: لأنه مجموعة صحائف كُتبت بشكل مرموز على طريقة علم الحروف، وذُكرت فيها الحوادثُ إلى انقراض العالم.

فقال: وما شكل اللوح ؟

فقلت: لا أعرف.

فقال: وكيف أبحث عن شيء لا شكل له ؟

فقلت: لم أقل ألا شكل له.

فقال: من يستطيع وصفه لي ؟

فأشرتُ بإصبعي إلى السماء.

فأردف: الشيخ الأكبر، أتراه يعرف ؟

فقلت: ما عليك إلا بسؤاله.

فقال: ألم يتحدّث كبارُكم في أوصاف اللوح ؟

فقلت: أحد كبارنا ويدعى أبو يزيد البسطامي قال: " أخذتم عِلمَكم ميتا عن ميت، وأخذنا عِلمَنا عن الحيّ الذي لا يموت. يقول أحدُكم: حدّثنا فلان عن فلان. وأين فلان ؟ قالوا مات. وأما أحدنا فيقول: حدّثني قلبي عن ربّي " !...

ثم صرفني فانصرفتُ وناديت على شمس الدين ليأخذ دوره. وهكذا كان.

رفع الإخوانُ أبصارَهم عن سَرّاج وحطّوها على الشيخ الأكبر، ينتظرون منه كلمة تنير حيرتَهم حيال سَرّاج: أيحكمون بأنه أسرّ بما يتعدّى اللزوم، أم يعتبرونه حكيما بما تقدّم به من إيضاحات ؟ بيد أن الشيخ الأكبر بقي معقود اليدين فوق فخذيه، مستور الوجه بما يرتسم عليه من ظلال، إلى أن رفع رأسه وما كان ذلك للكلام، بل لسماعه خطى مقبلة في الرواق أفضت إلى ظهور المأمور حاملا بين ذراعيه جسدَ حَيّان وقد بدا ساكنا، منحلا، كأنه لقتيل !

١٤

منعَنا المأمورُ من الدخول لرؤيته وقال: تبقون بعيدين حتى أفهم سببا لما أقدَم عليه. بحلق الجميعُ فيّ، فما رويتُ ما جرى في الواحة بيننا مخافة أن يتهموني بقتله. وصرتُ خائفا خوفين: مرة عليه ومرّة عليّ. وخوفي أنا على ذاتي كان أكثر مشقّة من خوفي عليه.

وما صدّقتُ أنه سيموت، وإن فاجأني الخطُ المحتدمُ حول رقبته، صفرةُ وجهه، احتقانُ عينيه وزرقة شفتيه. وتعاقبني بمثل هذا يا حَيّان وقد بتّ تكرهني أكثر مما كرهتُك في لحظة ضعف ! لو متَّ، ما سامحتُ نفسي أبدا. لكن، ربما نسيتُ ذات يوم. ولو نجوتَ وبقيتَ على قيد الحياة، أفلن تفضحني فأُطرد من الأخوية وقد فهمتُ أخيرا بفضل سَرّاج رغبتي بالبقاء، بل دافعي أصلا إلى المجيء.

" حدّثني قلبي عن ربّي ". هو ذاك ! وما حدّثنا الشيخُ الأكبر من قبل بمثل هذا الكلام البسيط الذي يختصر في جملة كل ما أتوق إليه. وما كان غضبي عليك إلا غضبي على ذاتي، أخرجتُه منّي وصببته عليك في لحظة ذعر، في ساعة تخلّ، اختلطت فيها كل

المعاني داخل رأسي فلم أعد أفقه من قاموس ما نتلقاه من عِلم، سوى مجموعة حروف مفكّكة تخالطت فصارت تنطق بلغة منغلقة، مستعصية، كأنها من صنيع أمم أو جنسيات تسكن أقاصي الأرض، لا يربطني بها أي تاريخ، ولا أملك لفكّ رموزها أو لفهمها أي مفاتيح.

تساءل سَهْل كيف أني لم أفتقدك. فأجبت بأننا كنّا معا في الواحة، ثم شعرتُ بلسعة برد إثر مغيب الشمس، فدعوتُك إلى القيام فقلتَ: اسبقني، سأتأرجح قليلا ثم أتبعك إلى الخانقاه. وأخذني الكلامُ الذي دار بينكم، فنسيتك. وعاد يسأل: لو كان هو مكانك، فهل كان لينساك ؟ زجره سَرّاج. وأكمل عليه الشيخُ الأكبر حين قال: دعوه في حاله، ألا يكفيه ما جرى حتى الآن ؟ حشرتُ وجهي في كتف سَرّاج، فطوّقني بذراعه وطبطب على ظهري هامسا: لا بأس عليك. سترى كيف سيقوم إليك بعد قليل. أجهشتُ بالبكاء. فاقترب سَهْل وكفكف دموعي وقبّل يديّ.

هم يهتمّون بي وأنا تحضرني صورتُك كما وصفها لنا المأمور: خرجتُ للمشي بعد العشاء قال، وكان الجوّ لطيفا، فمضيتُ باتجاه المزار إلى أن سمعتُ صوتا وحشرجة وأنّة اختناق، فركضتُ فوجدتُ الصبيّ متدلّيا من شجرة نخيل وقدماه تخبطان الهواء، فأسرعتُ أرفعه وما تسنّى لي التثبّت من فكرة خطرت ببالي، وهي أنّ السارق قد عاد إلى مكان الجريمة ففاجأه حَيّان فقرّر التخلّص منه.

أعيد في ذهني ما رواه المأمور، ثم أضيف السارقَ فيهرب منّي لمعرفتي بأن أحدا لم يعتدِ عليك سواي، وبأنك علّقتَ نفسَك انتقاما وكراهية، أو يأسا وحزنا ممّا أنزلتُه بك. عقد الإخوانُ حلقةَ صلاة وأدعية وابتهالات كي يخلّصك الربُّ من براثن الموت، بعد أن أمر المأمورُ بحملك إلى غرفته ما أن شهقتَ حين نفث في فمك أنفاسَه، مانعا على أيّ منّا الدخول أو الاقتراب منك.

وما هي إلا ساعة أو أكثر، حتى رجع وقال إنك اعترفتَ. بماذا ؟ سأل الشيخُ الأكبر. بسرقة المزار، أجاب... وجُنّ الإخوان. جُنّوا يا حَيّان. جُنّوا ! وأنا الوحيد الذي بقيتُ متماسكا، هادئا، من دون حراك. حتى أضاف: اخلدوا إلى النوم وغدا، متى أصبح أفضل

حالا، أستوضحه الأمر. فما قبلوا إفلاته قبل أن يطلعهم على ما قاله حَيّان، ومنه أنه سعى إلى الانتحار ندما على ارتكاب فعلته تلك، وأنه من أقدم على السرقة وصاحب لفافة الورق التي فيها حرف الواو...

خرج المأمور وترك الإخوانَ يلوبون على ذواتهم كدواب أصابها مسّ، فراحت تدور على ذنَبها لتقبض عليه. إلى أن وقف سَهْل وقال: ليس حَيّان السارق ! نظرنا جميعا إليه. ليس هو ! كرّر القول. ولمَ لا ؟ باغتَنا شمسُ الدين بالسؤال، ألم يقل المأمورُ بأنه اعترف ؟ أتريدون إثباتا أكبر من كونه حاول الانتحار ؟ فانبرى له سَهْل وهو يكاد يختنق بما انحشر في حلقه من ألفاظ: هكذا أنت، تتحيّن أدنى فرصة كي تتنكّر لنا ! وما أن يواتيك الظرفُ، أيّ ظرف، تقذفنا بحجارة شكّك وترمينا بسهام سوء ظنّك، مباشرة في القلب ! أتسمّي هذا وفاء وأخوّة أن تتخلّى عن طفل بلغ بالكاد أربعة عشرة عاما وأقدَم على ما أقدم لسبب نجهله ؟ لولا الحياء والخوف من ارتكاب إثم، للعنتُكَ لسنين وأجيال، بل حتى انقضاء الدهر !

انتصب ابنُ مسرّة فجأة يجعر كثور يتخبّط في دمائه، ثم شقّ خرقته عند الصدر وهو يلطم رأسه ووجهه وذراعيه. فقام إليه الإخوانُ فثبّتوه في الأرض وهم يبرّدون دمَه بألفاظ تكرّر: معك حق، ليس حَيّان السارق، هذا محال ! اهدأ الآن وصلّي عليه يا ابن مسرّة، وفقّك الربّ !

ارتخت أعصابُ ابن مسرّة وراح يشهق بالبكاء كأمّ ثكلى نزعوا بالقوة من أحضانها جثة ولدها القتيل، وهو يتمايل نائحا: نفذت من حبل الأرجوحة يا حيّان، ولن تنجو من سلاسل المأمور... أردتَ الموتَ وحيدا دون إخوتك، فما نفعنا نحن إذن إن لم نكن أهلا لثقتك وملجأ لضيمك وشكواك ؟

همس الحكيم لابن عطا دامع العينين: هذا لأنه متعلّق به لكثرة ما أمضاه من وقت مع الصغيرين وهما يُعينانه على إعداد الطعام. فردّ ابن عطا: لا شأن لهذا بذاك، فها أنا اشعر قلبي دامٍ يكاد يسقط بين قدميّ. صمت الحكيم. وهدأ ابن مسرّة. وجمد الجميع. وفاجأنا

الشيخُ الأكبر بأن وثب فجأة متّجها نحو الباب. وفاجأنا سَرّاج أكثر حين صرخ به: إلى أين ؟ عُد إلى هنا في الحال ! وذُهلنا، بل صُعقنا عندما رأينا الشيخَ الأكبر، وقد كان دوما هو صاحب الأمر والنهي وإن كان سَرّاج هو الأكبر بيننا إذ لا سطوة للعمر بين الإخوان، يمتثل لأمره.

قال سَرّاج وقد عادت إلى صوته هدأة لا تخلو من حزم: من هو السارق أيها الشيخ الأكبر ؟ أفلا تعتقد أنه قد حان أوانُ إطلاعنا على هويته ؟

علق الهواءُ في حناجرنا. كفّت قلوبنا عن الخفقان. وتوقفت الدماء في شراييننا عن الجريان. ثم طال نزاعُ ثوانٍ صمَتَها الشيخُ الأكبر، فاحتضرت طويلا في فمه قبل أن تبصقها شفتاه: لستُ متأكّدا بعد...

لم يمنحه سَرّاج هدنة إذ سارع يقول: على الأقل، أكِّده لي ذاك الذي لستَ مؤكّدا منه، فأتخلّى عمّا بدأتُ للأسف أتأكّد منه !

ثم ثبّت بصرَه في الشيخ الأكبر وثبّتنا نحن أحداقَنا في سَرّاج لا ندري إن كان قد استعاد الرؤية فجأة، أم أنها ظلال القنديل تصوّر لنا أشياء وأشياء.

تابع سَرّاج: ما عدتُ قادرا على احتمال تعاميّ عن أمور تجري في الخفاء. أنرْني أيها الشيخ الأكبر، بمثل ما أنار الربُّ بصري هذا المساء !

وشعرنا أن سَرّاج يستخدم لغتين: واحدة لنا وأخرى يخاطب بها الشيخَ الأكبر، كأنه بخياره ذاك يترك لخصمه حرية الاختيار. لخصمه أجل ! إذ بات جليّا أن مبارزة خفيّة تدور اللحظة بين رجلين يأخذاننا شهود عيان على ما سيجري بعد قليل، عندما سيصوّبان سلاحيهما ويُطلقان النار.

قال الشيخ الأكبر وقد لحظ أننا لحظنا ما لحظناه: هنيئا لك استعادة البصر يا سَرّاج، والحمد له قد خفّف عنّا حِمْلا ازداد ثقلُه هذا المساء...

ينسحب الشيخ الأكبر، فكّر الإخوان. يلغي المبارزة ويعترف سلفا بتفوّق سَرّاج.

لكنه أضاف: كان في نيّتي الخروج حين وثبتُ واقفا، بالضبط للتأكّد مما أرتابُ به منذ وقت ليس ببعيد...

أهي بدعة لمبارزة جديدة، تساءل الإخوان، أم إقرار نهائي بضرورة الاعتراف ؟

تابع الشيخ الأكبر: أتذكرون أيام امتحان الحراسة وقد مضى عليها شهور ؟
فأجبنا جميعا: أجل نذكر !
فقال: وتذكرون الشبّانَ الثلاثة الذين اصطفيناهم بعد تصفية العشرات ؟
فأجبنا: سَعْد وحسام وخلدون !
فأطرق ثم قال: هو واحد منهم !

صرخنا جميعا وفي آن: خلدون ! وكان لم يزل حاضرا في أذهاننا دخولُه المفاجئ علينا في محترف الكلام، حين اجتاحنا كإعصار ما عرفنا من أين نبت ولا متى أو كيف جاء، إلى أن اندفعنا إليه نمسكه قبل أن يهرب ونمضي به إلي الشيخ الأكبر كي يستنطقه البواعثَ والأسباب.

سأل سَرّاج: وما دافعك إلى اتّهام هذا الشاب ؟
فردّ الشيخ الأكبر: هنا تكمن المشكلة، إذ لا دافع منطقيا لديّ.
فقال سَرّاج: ما دليلك إليه إذن ؟
فأجاب الشيخ الأكبر: لفافة الورق وحرف الواو ! ثم أشار على سَهْل أن يأتيه بقلم وبأوراق، فغاب سَهْل ثوان ثم عاد.

تحلّق الإخوانُ حول الشيخ الأكبر في وسط البهو تحت القنديل، فخطّ هذا الأخير حرفَ الواو مرفقا ذلك بسؤال: ما هي قيمته العددية ؟

ستّة، أجبنا.
فكتب: و = ٦

ثم قال: لو طبّقنا الآن حسابَ الجُمّل على اسم خلدون ؟ ودوّن الاسم حروفا مقطّعة، واضعا تحت كلّ منها قيمته العدديّة:

خ	ل	د	و	ن
٦٠٠	٣٠	٤	٦	٥٠

جمع الإخوان وجاءت المحصّلة ٦٩٠، ثم نظروا إلى بعضهم ومن ثمة إلى الشيخ الأكبر ينتظرون تعليقه. فتدخّل سَرّاج مُطلِقا: صفر زائد تسعة زائد ستّة، تساوي خمسة عشرة. وخمسة زائد واحد، تساوي ستة. والرقم ٦ هو المعادل الرقميّ لحرف الواو !

هلّل الإخوان: ما كنّا نفعل أيها الشيخ الأكبر لولاك ؟ أجل، هو خلدون من سرق المزار انتقاما لأننا فضّلنا عليه سَعْد حارسا ! وقد خلف وراءه ما يشير إليه لكي يرشدنا إلى خطأ خيارنا. كان في نيّته حتما إعادة اللوح، لكنّ الأمور تعقّدت فانفلت زمامُها وحلّت اللعنة بأهل قرية "اليُسر"، فكان أن تحرّك الخفيرُ وتدخّلت الولاية، فخاف الصبيّ وما عاد يجرؤ على الظهور... غدا نُطلع المأمورَ على الحقيقة، فيلقي القبضَ على خلدون، ويبرأ حيّان، وتؤوب الأوضاعُ إلى مسارها الطبيعي !

قال سَرّاج: معنى ذلك أن الصبيّ خلدون يعرف حسابَ الجُمّل ويُتقن علمَ الحروف والأعداد، فمن أين له مثل هذا وأهل "اليسر" برمّتهم لا يجيدون فكّ الحرف ؟ فما التفت أحد إليه لأن أحدا من الإخوان ما عاد يحتمل التشكيكَ في حقيقة اكتشفوها للتوّ.

وفكّر سَرّاج: لقد سمعني الشيخُ الأكبر وما إحجامه عن الردّ سوى ختم مصادقة على ما ينعرني من ظنون. كظنّه أن بوْحي بادّعاء العمى يُضعف موقفي، وظنّي أنه لم يحاسبني على ذلك لأنه ما زال يُواري. واحدة مقابل واحدة، يقول لي ضمنا، وها نحن قد أصبحنا متعادليْن، فلنصفحْ عمّا مضى ولنلتحم ونتعاضد لإنقاذ حَيّان ! ربما كان حكيما أن أوافقه الرأيَ، أقلّه لحين. فاتهام الشاب خلدون منطقيّ. لكنّ غير المنطقيّ هو نوم الشيخ الأكبر على الحقيقة منذ وقت، وإخفاؤها عنّا لسبب أحدسُ أنه على صلة بالعَلايِليّ. أيكون الشيخُ الأكبر على اعتقاد مثلا بأن رابطا ما يقوم بين الاثنين دعاه إلى التريّث قبل افتضاح هوية خلدون، أم أني أنا من يبالغ في عقد علاقة يستحيل وجودها في الأصل ؟ فلم يكن

العَلايِليّ من قرية "اليسر"، ثم أنه غادرنا منذ زمن طويل ولم يكُ خلدون قد ولد بعد، أو أنه كان يدبّ على الأرض. يبقى أمر: ما الذي أعاد ذكرى العَلايِليّ إلى ذاكرة الشيخ الأكبر فجأة، وما هو سرّ تزامن ذلك مع امتحان الحراسة ؟ هذا سؤال لا يستطيع الإجابة عليه سوى المعنيّ الأوّل، وهو خلد...

سمع سَرّاج الشيخَ الأكبر يتلفّظ باسم خلدون في التوقيت الذي تفكّر هو به. ثم سمعه يضيف أنه سيتوجّه للقائه في الحال لإرغامه على مرافقته والاعتراف بالحقيقة أمام المأمور. هراء ! ردّد سَرّاج في سرّه. لا أدري ما هي نواياك أيها الشيخ الأكبر، لكني على ثقة أنها غير ما تدّعيه وأنك لا ريب تبيّت أمرا ما !

غامر سَرّاج بمحاولة أخيرة إذ قال: أليس من الأفضل أن نذهب فورا إلى المأمور فنطلعه على الحقيقة ونوكل إليه مهمّة القبض على خلدون ؟ وخمّن أنه أصاب هدفه لولا أن الغبيّ شمس الدين لم يتبارع متسائلا: ماذا لو ظنّ المأمور أنّ هدفَنا هو تحويلُ انتباهه بغية تسهيل هروب حَيّان ؟ وفي حوزته حجة مُفحِمة: ما سبب كشفكم عن هوية الجاني ليلة اعتراف الصغير ؟

اكتفى الإخوانُ بذلك لكي يُجمعوا على ضرورة التحرّك، وإن اختلفوا فيما بينهم بعد أن تطوّعوا جميعا لإحضار خلدون. إلى أن حسم الشيخُ الأكبر الخلافَ بأن قرّر الذهاب بنفسه ـ بذريعة الخوف عليهم ـ، ووحيدا ـ لعدم لفت الانتباه ـ، وحالا ـ قبل أن يدهمه الوقت ـ .

بُعث الأملُ في صدر سَرّاج إذ خال أن خطة الشيخ الأكبر ستُحبط فعلا بعدما وقف سَهْل وقال: لمَ المخاطرة يا إخوان ونحن نستطيع القيامَ بالأمر نفسه، غدا وبصحبة المأمور، وفي حوزتنا حجّة إقناع هي لفافة الورق وما تتضمّنه من إثبات ؟

فردّ الشيخُ الأكبر وقد ضاق ذرعا باقتراحات تتكاثر وتتضارب: أنسيتم شهادة الحارس عن شخص يرتدي خرقة خرج من الخانقاه، اعترافَ حَيّان، وتكتّمَنا نحن الذي يزيد من خطورة تهمته ؟ اسمعوني جيدا، إنما حضر المأمور للقبض على سارق المزار.

أوَتعتقدون أنه يبالي كثيرا أن يكون اسمه حَيّان أو خلدون ؟ كل ما يطلبه هو مجرم يحمله إلى الحاكم، يسلّمه ويرتاح !

وارتاح الشيخُ الأكبر بعد أن حسم النقاشَ واستعاد زمامَ الأمور بأن وزّع أوامرَه على هذا وذاك. فجاءه شمسُ الدين بالعباءة. وساعده ابنُ مسرّة على لفّ العمامة لاثما بطرفَها الوجهَ كاملا ما عدا العينين. وناوله الحكيم العصا. ثم نظروا إليه جميعا يتأمّلونه: أتحتاج شيئا بعد ؟ لا، أجاب بحركة من رأسه، ثم مشى في الرواق فتبعوه.

أعلن سَهْل أن الطريق سالكة تبيح الانسلالَ بأمان، فخرج الشيخُ الأكبر وكرج باتجاه الطريق العام عند أسفل الهضبة، متخفّيا بزيّ العامّة من الناس، على أن يعود وفي جعبته إنشاء الله، صكّ براءة الصغير حَيّان: لوح القضاء والقدر، مصحوبا باعترافات اللصّ خلدون !

١٥

خمسون عاما وكأنها طرفة جفن !

فها هي القرية لم تزل على حالها بأزقتها وبيوتها وحوانيتها. حتى الناس وكأنهم لم يتغيّروا، لم يكبروا ولم يشيخوا ولم يموتوا، وإنما استُبدلوا كالدمى المعطّلة بأخرى مماثلة لا علاقة لها بالزمن أو بالعمر. وها هي عين الماء بحوضها الحجريّ ووعائها المعدني، تسقي عابري السبيل والمتسوّلين والزوّارَ القادمين من البعيد للتبرّك بالمزار. أمكنة لا يقيم الوقتُ فيها ولا يقلقها تراكمُ السنوات، فتستقرّ آمنة لغدها، موكلة أمرَها إلى ربّها يقيها غدرَ الأيام...

كم كان له من العمر يومها ؟ ما يقارب سنَّ جابر وحَيّان. وقد عبَر الأزقّة نهارا، مدركا أنه لن يعاود المرورَ بها أبدا ما لم يقرّر تركَ الأخوية، وهو ما لم يكن واردا البتّة، حتى في ذهن مراهق تلك الأيام. أوصله أبوه على ظهر حماره حتى مشارف القرية. ولولا حاجته إلى البهيمة، لما رافقه وقد تخفّف منه أصلا منذ أعلمه بنيّته الالتحاق بالأخوية. وما لام أباه أبدا على وداعٍ دام ثوان، وفراقٍ امتدّ عمرا بحاله، إذ كان يعرف أن عدد إخوته الكبير لم يترك لوالديه يوما فرصة التفكّر به أو الافتقاد إليه أو القلق على مصيره، وهما الواثقان أنه الأوفر حظّا لامتلاكه سقفا صلبا ينام تحته، ملآن البطن دافئ الأطراف.

غادره أبوه دون أن يلتفت إلى الوراء، فبقي هو يتأمّله مبتعدا إلى أن غاب. وبعد أن استدلّ من العابرين على الطريق المفضية إلى أخوية الوفاء، قرّر التجوّلَ في القرية لحين، قبل صعود الهضبة وانطباق باب الخانقاه عليه إلى الأبد. مشى لوقت، ثم شعر بالإنهاك،

فجلس إلى عين الماء وأخرج من جرابه ما أعدّته له أمّه من زاد: قطعة خبز ملوّثة بشيء من الزيت. هكذا يصل الأخوية فلا يتهافت على الطعام ويحفظ بعضا من كرامته حتى حلول المساء.

وما كان ولدُ تلك الأيام طامعا بالقوت إياه، وإنما بما يغذي قلبَه وعقلَه، هو الذي أدرك مبكرا توقَه إلى ما يشبع نهمَ روحه المفتوحة المسام، المتعطّشة إلى ماء المعرفة والعلوم، والعالِمة عن لا وعي بأنها ستُصطفى يوما لأداء مهمّة عظمى. هكذا جرى وهكذا كان. أتقن الولدُ العلومَ بسرعة أدهشت شيخَه، ونقلته في وقت وجيز من رتبة مريد إلى رتبة العالِم المُجيد لشتى علوم الباطن. إلى أن انفتح بابُ الكشف، فحلّ شيخا أكبر بين الإخوان، وهو ما لم تشهده أخوية الوفاء منذ عقود.

وخطر للشيخ الأكبر أن القدرة الإلهية لم تصطفِه فقط لتلقين الإخوان ما يمتنع عليهم من علوم بواطن الحروف ولإكمال الدرب التي خطّها من قبله كبارُ الأئمة والعلماء والشيوخ، وإنما أوكلتْ إليه حفظَ الأخوية مّما يحدق بها من أخطار الزوال، بعد أن افتقدت حجرَ الأساس ونواة الإيمان وسببَ التمايز وركنَ الأمان. فكلّ ما اجتازه من محن رسّخ إيمانَه وزاده تصميما وصلابة وعُمقَ اقتناع بأنه ينفّذ مشيئة الربّ فيما يحدّده لعبده المؤمن من مسالكَ تكثر فيها المنعطفات والمنعرجات والعقبات؛ بهدف امتحانه قبل ولوجه الحقيقة المطلقة بعد طول معاناة. وإلا، لما قُدّر له النجاحُ حتى في المرّات التي ظنّ أن ما يصله من أصوات هو من عمل أرواح شريرة، ظهر له من ثمة أنها على العكس من وحي ربّاني.

حتى ولو شعر الإخوانُ بأنه ينفرد في القرار، حتى ولو ملأت الظنونُ قلبَ أقرب الناس إليه وعلى رأسهم سَرّاج، فهو موقن أنه اختار الطريقَ الصواب، ففعل ما يمليه ضميرُه المؤتمِرُ بنوايا التقوى والتورّع والخير. أليس هو الراعي لا يفرّط برؤوس القطيع، وإن اضطرّ إلى قتل الذئب دفاعا عن الأغنام ؟ والذئب ليس واحدا. وفي جعبته العديد من الأحابيل والألاعيب. وقد يتّخذ أحَيّانا مظهرَ الحمَل الوديع، أو الأخ الصديق، أو الشاب البريء. لكن، لا رحمةَ تجوز به. لا رأفة ولا شفقة. لا تلكؤ ولا تردّد. لا استرحام ولا استعطاف. إذ يضرب حيث لا نتوقّع ويُهلك معتمدا شتى الأساليب، فيتحبّب ويُرغّب، يستميل ويُقنع، يتباكى ويتظلّم، يناور ويغدر. وما أن تلين أو تضعف، حتى يُحرقَ في نار

جهنّم، مُنزِلا العذاب إلى أبد الآبدين، حيث لا مكان للندم أو لصرير الأسنان. يعرف الشيخ الأكبر كافة ألاعيبه ويقف له بالمرصاد. وإن اضطرّ في مرّات إلى تبنّي أساليبه، فهو قد تمكّن من دحره وردعه حتى الآن. والإخوان على سذاجتهم ولا يعرفون. وبمَ كانت ستفيدهم المعرفة سوى بزعزعة إيمانهم وإقلاق أفئدتهم وضربهم بعدوى الشكّ بعد أن استتبّ في نفوسهم نورُ الإيمان ؟ لا علاقة لهم بما يجهلون، وهذا أفضل، إذ اختير هو للسهر عليهم لكي يتجنّبوا أوجاعَ التساؤلات، فيسَهل انصرافُهم إلى ما نذروا له حيواتِهم عن كامل وعي واقتناع...

توقف الشيخ الأكبر بعد أن شعر أنه شطّ بأفكاره بعيدا، متناسيا غرض تجواله الليلي: كيف يستخبر عن مكان إقامة خلدون دون أن يوقظ المخاوفَ والشكوك، وقد تقدّم الليلُ وندر العابرون وخلت الأزقة إلا من بعض مارّة متأخّرين يتحايلون على الوقت قبل أن يستثيروا غضبَه، فينهرهم مجبرا إياهم على العودة بعجلة إلى حيث يبيتون ؟ عاودته ذكرى نزولَه إلى شارع الحوانيت سرّا منذ شهور، فطردها حاثا السيرَ لشعوره بأن الوقت لن يجاريه...

انعطف يسارا وفي نيّته طرق أحد الأبواب للاستعلام، مبرّرا رعونة سلوكه بسرّية ملامحه سوف يخفيها اللثامُ وعتمة هذا الزقاق. أعاقه طرفُ عباءته، فاستدار فإذا به رجلٌ سكّير متكوّم في زاوية، بان على شكل حُطام أكثر منه على هيأة بشريّ. شدّ العباءة يحاول سحبها منه، إلا أن الرجلَ استمرّ متمسّكا بها بحزم.

تأمّله الشيخُ الأكبر برهة ثم قال: ما تريد ؟ فبقي السكّيرُ منكّسَ الرأس للحظات، قبل أن يبادر إلى شدّ العباءة إليه عدة مرات. نزل الشيخُ الأكبر حتى أصبح بموازاته، ففتح هذا الأخير عينيه بصعوبة، ثم مدّ قُربتَه وقلَبَها مشيرا إلى ضرورة ملئها بما سيتبرّع به العابرُ المُحسِنُ من نقود. اقشعرّ بدنُ الشيخ الأكبر لرائحة فاحت من فم الرجل كأنها شهب نار، وازداد اشمئزازا من فكرة مساعدته على شراء المزيد من هذا الشراب اللعين. إلا أن خاطرة جاءته جعلته يتريّث قليلا، فيماشي الرجلَ في مطلبه، علّ الرجلَ يماشيه.

قال الشيخ الأكبر: أعطيك مُرادَك إن أنت رددتَ على سؤال.

فهزّ السكّير رأسه موافقا، ثم رفع عينيه وفتحهما على اتسّاعهما كدليل تركيز وإصغاء.

تابع الشيخ الأكبر: أبحث عن خلدون، أتعرفه ؟

فردّ السكّيرُ ضاحكا: خلدون ؟ بالطبع أعرفه ! إنه من أعزّ الأصحاب !

حقا ؟ قال الشيخ الأكبر مسرعا، جئتُ أطلبه في أمر مستعجل، فهلا دللتني إليه ؟

أمر مستعجل، أجاب السكّير وقد طاب له الحديث مع هذا الغريب. مستعجل إلى أي حدّ ؟

تنفّس الشيخُ الأكبر بعد أن أدرك أن الرجلَ استمرأ الكلامَ، ثم قال مرغما: مستعجل إلى حد كبير. إنها قضية حياة أو موت. فربما غيّرت بعضُ الدقائق مصيرَ بشريّ !

كما تغيّر بعضُ القروش مصيرَ رجل مثلي في حالة نزاع ؟ سأل السكّيرُ رافعا كفَّه إلى الشيخ الأكبر الذي وقف يهمّ بالانصراف.

هتف السكّير: وخلدون، أنسيتَه ؟ أما عدتَ تريد لقاءه وهو على شفير الهاوية، يتهادى متأرجحا بين الحياة والموت ؟

تلفّت الشيخُ الأكبر حواليه وقد علا صوتُ السكّير بما يشبه الصراخ، ثم قال: ألا ترى أنك ستوقظ بصياحك النيام ؟ أقسمُ إني لا أملك ما أعطيك إياه، فلا نقود في حوزتي ولا شراب... حسنا، استودُعك في أمان الله.

مشى الشيخُ الأكبر بخطى متعجّلة، فانتصب السكّير مترنّحا مناديا: خلدون ! أين أنت يا خلدون ! أرأيتَ، ها إني سأجده لك !

ضاعف الشيخُ الأكبر من سرعة خطواته. وجعل السكّيرُ يعدو وراءه ويزداد صياحا كلما رأى أن المسافة تطول بينهما: خلدون ! ألا تريد أن أدلّك على خلدون ؟ واللهِ أعرفه خلدون هذا، لكن لو تقول لي أي خلدون بالضبط تريد ؟

انعطف الشيخُ الأكبر ثم اختفى في زنقة معتمة بين بابين. غير أن الصياحَ ازداد حدّة وراح يقترب من المكان المختبئ فيه. تحرّكت مفاتيحُ وأقفالٌ في الأبواب، فأحسّ أن من سيفاجئه على هذه الوضعيّة، كامنا في العتمة ومقنّعا بلثام لا يُظهر إلا عينيه، سيظنّه لصّا

جاء للسرقة. فسارع إلى الخروج للقاء السكّير، ثم وضع كفّه على فمه يُسكته ويجرّه للابتعاد قبل أن يفاجئهما أحدٌ من الناس.

وما صمتَ السكّيرُ، بل بدأ يضحك وهو يخبط على كتفيّ الشيخ الأكبر: أهلا بك. خلتُ أني لن أراك بعد اليوم. اشتقنا يا صاح، فلمَ الأسى وما سببُ كلّ هذا البُعاد ؟ تعالَ، أنت ضيفي هذا المساء. لا يهمّ أن تكون مفلسا، ففي حوزتي ما يكفينا معا... هيّا، لا تعاند. إنسَ خلدون، فهو خائن ولا قيمة عنده لصاحب أو لصديق...

كالعَلَقة، تشبّث السكّيرُ به. وكاللصاق اللزج، راح يتمرّغ عليه وينفث أنفاسَه الملوّثة ويضع يديه المتّسختين، وهو يلغو ويقهقه ويعاتب ويلحّ، إلى أن نزع اللثامَ عن وجه الشيخ الأكبر مختطفا العصا كوسيلة إقناع، متراجعا خطواتٍ وهو يُطلق ضاحكا: هيّا، لا تعاند. نمضي الليلة سويا، وأصحبك غدا إلى خلدون !

اشتعلت نار في رأس الشيخ الأكبر وخرجت من عينيه، فمدّ يده يستعيد عصاه، فتشبّث السكّيرُ بها وهو يزداد ضحكا، فوضع الشيخ الأكبر كامل قوّته وشدّ بعنف، فبقي السكّير متمسّكا بالعصا وقد فارقت الابتسامةُ وجهَه وتحوّلت إلى عضّة على شفته السفلى أعانته على التملّص والقفز إلى الوراء.

رفع السكّير العصا وجعل يلوّح بها كأنها سيف: أترغب بمنازلتي ؟ أرى أنك لم تستوعب بعد من يقف أمامك ! عنترة بن شدّاد، أتعرفه ؟ عنترة بطوله وعرضه أضعه في جيبي الصغير هذا ! ووضع العصا بين فخذيه، ثم طفق يعدو بشكل دائري كأنه يركَبُ مهرا أصيلة، ضاربا على فخذه، مُنشِدا: " ولقد رأيتكِ والرماح نواهل، فوددت تقبيلَ السيوف لأنها، لمعت كبارق ثغرك المتبسّم " ! ثم توقّف عن الدوران، وقبّل العصا وقال: إن تبّسمتِ يا عبلى... ياه، يا لهذا الوجه الغاضب المقفل المحتقن بالدماء ! حسنا، لا تغضب، ها إني أعيدها إليك. لكني أحذّرك: إن أنت غادرتَني، لازمتك كظلّك وعاودتُ الصياحَ حتى أوقظ قريةَ "اليسر" برمتّها، فينزل إلينا الناسُ ويبدأون بضربنا حتى نبصقَ الدمَ وننهار تحت الرفس واللكم واللطم والصفعات! إسألني أنا كيف صاروا يتحوّلون إلى وحوش حين يعنّ لي أن أقلقَ راحةَ نومهم بالشتائم والصراخ والغناء، وقد كانوا يكتفون فيما مضى برميي

بدلو من الماء، أو بزجري برفق وهم يتفرّجون عليّ من النوافذ، كما لو كنتُ أفضل مهرّج أو بهلوان !

لم يُنهِ السكّير كلامه ذاك، حتى انقضّ عليه الشيخُ الأكبر، فدفعه بقوة ثم حشره في الحائط ووضع يده على فمه يُسكته...

لا يدري كم استمرّ هذا. كلّ ما يعرفه هو أن الرجل صمت أخيرا بعد أن فغر فاه وجحظت عيناه وانحلّت قواه، فهوى دفعة واحدة على وجهه. تراجع الشيخُ الأكبر خطوتين. لم يره أحد وما تلوّثت عباءتُه. انحنى يلتقط العصا على عجل، ثم اختفى من الزقاق، قبل أن يرتدَّ طَرْفه إليه.

ولج في أزقّة وخرج من أخرى، وكان ينتقل بخفّة طير، بحذر خِلْد. أيعقل أن السكّير مات ؟ لا. إنما هو جرح طفيف في مؤخرة الرأس أفقده الوعيَ فسقط مغميا عليه. سيفيق بعد قليل، أو في صباح الغد على أبعد تقدير، فينسى من تعرّض له، أو يذكر اعتداءً عليه، فلا يصدّقه أحد وتُنسب الحادثة إلى أعراض الخمر.

أحسّ الشيخُ الأكبر بخنجر خفيّ يضربه أعلى الخاصرة، فتمهّل يلمّ أنفاسه. ثم أصابه ذعر: ماذا إن قضى السكّير ؟ لمَ السؤال وهو اليقين. قتله وانتهى الأمر. لكن، ما ارتكب إثما ! ليس القتلُ دفاعا عن الذات جرما. أفلا يُبرّأ إذن من يقتل دفاعا عن روحه، والروح أغلى منزلة وأرفع مقاما ؟ لم يؤذه السكّيرُ وما تعرّض له بسوء ؟ صحيح. إنما هو الذئب وقد تلبّس...

أجفل الشيخُ الأكبر لسماع خبْطٍ غريب فوق رأسه يرافقه صوتٌ حائر بين الزعيق والصفير، فإذا هو طائر أسود عملاق الجناحين عبَر بسرعة السهم قبل أن يرتفع عاليا فتبتلعه عتمةُ السماء. غراب شؤم ! أطلق هامسا، ثم انخلع قلبُه حين تفكّر بأن إبليس عاد يطارده وبأنه اتخذّ للتوّ هيأة غراب أسود سيعاود الانقضاضَ عليه...

تناهى إليه صراخ وعويل ونحيب جمّدت حواسَه، فأصاخ السمعَ إلى أن لمح أطيافَ نسوة في البعيد يخرجن في الظلام متهافتات، يعدو خلفهن رجالٌ يحملون قناديل، يتبعهم

سربُ أولاد. اجتمعت القناديلُ أمام دارٍ بعينها، فظهرت امرأة في الباب تلطم رأسَها وصدرَها وتنحني وتنتصب وتتلوّى كأفعى، إلى أن أمسكت النسوة بها فأدخلنها، وبقي الرجالُ مجتمعين أمام العتبة.

أطرق الشيخ الأكبر: حدثت وفاة ! أو هو زوج المرأة أو ابنها، لتكون مفجوعة على تلك الحال. ثم رفع نظره إلى السماء وقال: الشكر لك، توافيني بعونك في أحلك اللحظات، وإلا فكيف كنت لأستدلّ، وقد تجاوز الليلُ منتصفَه فبات كثيبا من بزوغ الفجر ؟

تقدّمَ باتجاه تلك الدور، فاصطدم ببئر واطئة يعلوها حبلٌ يتدلّى منه دلو. خلع عباءته وغسل وجهه ويديه، ثم رتّب نفسه وأعاد اللثامَ إلى وجهه ومشى إلى حيث اجتمع الرجال. حيّا بصوت خفيض مسايرة لإمارات الحزن التي ارتسمت على الوجوه، ثم اقترب من أحدهم يستطلعه الأمر، فقيل له إنه طفل رضيع ظنّت أمّه أنه لفظ أنفاسَه مع ما تقيّأ من سائل داكن أشبه بكتل دم.

لم يتوفى بعد. لكنّه لن يقضي الليلَ، أطلق رجل ثانٍ.

فعلّق ثالث: هذا هو غضب الربّ، لم ترَ قرية "اليسر" شيئا منه بعد !

وسأل رابع: ألا نحمله إلى الإخوان علّهم يشفقون فيكتبون له حجابا أو يعطونه عقارا يشفيه ؟

وقال خامس: فات الأوان. ثم إن الإخوان فقدوا كل مقدراتهم بعد سرقة المزار، وإلا لما امتنعوا عن استقبال الزوّار !

التفتَ الجميعُ نحو الشيخ الأكبر ينتظرون منه تعليقا، فسارع يقول: إنما أنا غريب متوجّه إلى قرية "التين"، أسير ليلا لأن سنّي ما عادت تحتمل قيظ النهار.

قرية "التين" ؟ استغرب أحد الحاضرين، لن يسرّك أيها الشيخ أن تعرف أنك تهتَ، فنحوتَ الاتجاهَ المعاكس وبتّ على أطراف قرية "اليسر"...

خرجت امرأة من الباب وقالت: ألا تخفضون أصواتكم، فبالكاد هدأ الصبيّ ! فسألها رجل: كيف حال الولد يا أم خلدون ؟ فأجابت: مشيئة الربّ، هو الوهّاب الأخّاذ ! ثم غابت وأغلقت وراءها الباب.

انتصبت أذنا الشيخ الأكبر وتسارع نبضُه، فاقترب من الرجل هامسا: ألا تكون تلك والدة خلدون الذي كان يعمل صبيّا في حانوت زيدون الورّاق ؟

فأجابه الرجل: أتعرفه ؟ مسكين، هو أيضا مريضٌ طريحُ الفراش منذ أسابيع.

ما به ؟ سأل الشيخ الأكبر.

فردّ الرجل: الربّ وحده هو العالِم. شابٌ له صحّة فحل، لكن تروي أمّه أنه أصبح مختلّ العقل، يبقى حبيسَ الجدران، يخشى الخروج ويرفض الكلام، كأنّ فرقة من الجنّ نزلت فيه... ثم انقطع عن الكلام فجأة مردفا: ولمَ تخفي وجهَك بهذا اللثام ؟ ألا تنزعه فأرى إلى من أتحدّث أيها الغريب ؟

مال الشيخُ الأكبر برأسه إلى الخلف وقال: لا أراك الربُّ منظرا قبيحا !

فحدّق فيه الرجلُ مشكّكا وسأل: قبيح إلى أي حدّ ؟

فأجاب الشيخ الأكبر: إلى درجة أني لا أجرؤ على نزع اللثام حتى أمام المرآة، وقد ألمّ بي داءُ البرَص فتآكل قسم من الأنف والشفاه !

قال الرجل مذعورا: شفاكَ الله !

فسارع الشيخ الأكبر يطمئنه: لا تخف، برئتُ منذ سنين. انظر يديّ، أترى عليهما أيّ آثار ؟

اطمأنّ الرجلُ فعاود طرح السؤالَ: لكن، لم تخبرني من أين تعرف خلدون وأنت غريب عن هذه الديار ؟

فأجابه الشيخ الأكبر: من زيدون الورّاق وكان صديقا لي أعوده في كل فينة للتزوّد بالأوراق.

نظر إليه الرجل مستغربا ثم أردف: وما حاجتك بالأوراق ؟

فقال الشيخ الأكبر: هذا كان فيما مضى، عندما كنت معلّما في كُتّاب. ثم بدّل وجهة الحديث بأن سأل: قيل لي إنه قضى في حريق حانوته منذ شهور ؟

فردّ الرجل: المسكين ! مات غريبا وما عُرف له صاحب سوى خلدون. كلّ اعتقادي أن الشاب سليم العقل، لكنّه أثر الصدمة وقد كان له بمثابة الأب.

تحيّن الشيخ الأكبر فرصة ذِكْر خلدون، كي يتعجّل في السؤال: ظنّي أنه كان يسكن بالقرب من شارع الحوانيت.

فأجاب الرجل: لا، كان يعمل ويبيت في حانوته.

فأردف الشيخ الأكبر: عنيتُ خلدون !

فتعجّب الرجل وأضاف: خلدون ؟ إنه يسكن في التخشيبة التي هناك منذ ولادته... وحتى مماته ربما إذا استمرّ على هذه الحال !

أنهى الشيخ الأكبر المحادثة بأن قال وهو يلفّ العباءة من حوله: شفاه الربّ وخلّصَ هذا الطفل البريء ! أترككم في أمان الله !

ثم مشى وعيناه مثبتتان على الدار التي أشار إليها الرجلُ، تلك التي تقع في طرف البؤرة وتوازيها البئرُ على مبعدة عددٍ محترم من الأمتار. إذا قصد البئرَ، ستلفّه العتمةُ وتخفيه عن ناظريّ الرجال، فيقبع هناك متفكّراً في كيفية سحب خلدون، قبل عودة أمّه إلى الدار.

١٦

بدت السماءُ قصيّة أكثر من المعتاد، أم أنها الوحدة والانتظار في هذا العراء ما جعلاها نائية وعلى حياد ؟

قبع الشيخُ الأكبر خلف حافة البئر الواطئة لوقت، إلى أن جاءه العونُ من الربّ كالعادة، فخرجت امرأة من الباب لم يتمكّن من تبيّن ملامحها عن بُعد، تحادثت والرجال لحين قبل أن تعاود الدخول مؤذنة بانصراف الجميع. بعد انطباق الأبواب، انتظر دقائقَ انطفاءَ القناديل وهو يحسب دقات قلبه، ثانية لكل دقّة، حتى بان له أن التحرّك بات آمنا...

وقف متردّدا: أيطرق على الباب وقد حاول فتحَه فما ارتضى الانصياع، أم يسعى إلى معالجة القفل مجددا تحسبّا لردّ فعل خلدون ؟ دار حول التخشيبة يستطلع وسيلة ولوج أخرى، فإذا به أمام نافذة خلفية مشرّعة دنا منها محدّقا في الداخل، مستكشفا تفاصيل المكان.

كان جالسا على فراشه في الزاوية، مسند الظهر إلى الحائط وذراعاه تحيطان بركبتيه وعيناه تلمعان في الظلام. وإذن رآه ! وكان مستيقظا حين حاول فتح الباب، فما تزحزح من مكانه ولم يأتِ بردّ فعل ! ربما أصبح بالفعل مختلّ العقل، إذ كيف يمكن تصوّر سلوكٍ مماثل من إنسان سويّ ؟ لا ! ينبغي للشيخ الأكبر أن يحيد عن مثل هذا الافتراض، وهو ما يمليه المنطقُ حيال شاب تجرّأ على سرقة لوح القضاء والقدر الذي لم تمسسه أبدا يدُ إنسان.

شوّشت الحيرة أفكارَ الشيخ الأكبر، إلى أن خرج إليه صوتُ خلدون يقول: هي أمّي التي أغلقت بالمفتاح إثر خروجها، وإلا لكنتُ فتحتُ لك !

سأل الشيخ الأكبر حذرا: هل عرفتَني ؟

فأجاب خلدون: منذ أسابيع وأنا أنتظرك. لماذا تأخّرت ؟

ارتبك الشيخ الأكبر برهة، قبل أن يضيف: صدق ظنّي بك. فأنت ابن حلال زلّت قدمُك ولم تنوِ شرّا. ألا تخبرني لما أقدمتَ على ذلك يا بنيّ ؟

للانتقام منك ! أجاب خلدون.

الانتقام منّي ؟ ولمَ ؟ سأل الشيخ الأكبر متيقّظا.

فأجاب خلدون: لأنك فضّلتَ عليّ ذلك "السَعْدان" سَعْد ! أردتُ أن أثبت لك خطأ اختيارك، وأن وجود حارس مثله لا يحمي المزار وما فيه !

أهذا كل شيء ؟ سأله الشيخ الأكبر. أعني، هل خطّطتَ لذلك بمفردك ومن دون أن يُدهى لك ؟

تمهّل خلدون مستغربا، ثم قال: أتعني إن كان لي شريك ؟

أجل هو شيء من هذا، ردّ الشيخ الأكبر مستدركا. ثم اتكّأ بجذعه على حافة النافذة حين جاءه الجوابُ نفيا وقال: أظنّك نادما على ما فعلت.

فقال خلدون: وأي ندم ! بل لقد شعرتُ طوال هذه الأسابيع أني راغب في الموت وكم راودتني فكرةُ الانتحار !

لمَ انتظرتَ كل هذا، سأل الشيخُ الأكبر، فما جئتَ إليّ وأطلعتني على الحقيقة وأرحتَ ضميرك وأعدتَ المسروق ؟ أجل، أعرف. هي الوجهة المفاجئة التي انتحتها الأمورُ وما تبعها من اضطرابات أوصلت القضية إلى باب الولاية وانتهت بقدوم المأمور. وهي أيضا مماطلتي في حلّ الرمز الذي تركتَه في لفافة الورق، ثم خوفي إبلاغ المأمور حين تبدّى لي أنك السارق، خشية أن أعمد إلى اتهام بريء.

والآن، سأل خلدون، وقد تأكدتَ من أنني الفاعل ؟

الآن يا خلدون، أجاب الشيخ الأكبر، لا أرى حلا سوى في إعادة المسروق وتبليغ المأمور بحقيقة ما جرى، على أن أشهد لصالحك فتنال أدنى ما يمكن من عقاب.

حشر خلدون رأسه بين ركبتيه، فتابع الشيخُ الأكبر: لا ريب وأنك تتساءل: لمَ لا أستعيد لوحَ القضاء والقدر وأُبقي سرَّك مكتوما، فتتخلّص من السجن وترجع الأمور إلى سيرها الطبيعي ؟ وأنت محقّ ! ولكنتُ فعلتُ ذلك من دون تردّد لولا أن أمرا طارئا وقع مساء أمس في الأخوية وأجبرَني على النزول إلى القرية بحثا عنك.

رفع خلدون رأسه مستفهِما، فأردف هذا الأخير: أرأيتَ أني أثق بك ؟ وإلا فما حاجتي إلى إطلاعك على الحقيقة، لو لم أكن على يقين بأنك ابن خير وحلال ؟ إنما هو إيماني بأنك تأبى أن يجرَّم مكانك بريءٌ اعترف في لحظة ضعف أنه السارق لسبب أجهله، ما يدفعني إلى طلب مساعدتك، وأنا مدركٌ بأن ثمن ذلك عليك باهظٌ وثقيل.

روى الشيخُ الأكبر ما كان من أمر حَيّان، مستفيضا في التفاصيل، مركّزا على قرار المأمور اصطحابه إلى باب الولاية صباح اليوم ورميه في سجن القضاء المركزيّ وإنهاء القضية بأسرع ما يكون. فما كان من خلدون إلا أن هبّ واقفا، فارتدى ثيابه على

عجل، ثم قفز من النافذة مقترحا الانطلاقَ إلى الأخوية في الحال، وقد بات الفجرُ على مقربة أدنى من ساعتي مسير.

استمهله الشيخُ الأكبر وذكّره بالأهمّ، ألا وهو استرجاع لوح القضاء والقدر. ليس هنا، قال خلدون متعجّلا، أطلعك على أمره في الدرب. ثم انطلقا بخطى حثيثة إلى أن وصلا البئر، فتوقّف خلدون متذرّعا بالعطش، فملأ الدلوَ ماء وشرب وعرض منه على الشيخ الأكبر الذي رفض قائلا إنه ارتوى وهو في طريقه إليه، ثم همّ بمعاودة السير، فإذا به يرى خلدون مسمّرا في مكانه، كتمثال يتأمّل فيه، فسأله: ما بك ؟ أهنا خبّأتَ اللوح ؟ فما انبسّ الشابُ بحرف، بل بقي مثبت الحدقتين لا يرفّ له جفن. ضرب الشيخَ الأكبر روعٌ، فسارع يستفسر: أرميتَه في الماء ؟ هل أحرقته ؟ ماذا ؟ قُلْ !

فقال خلدون بحلق معقودة ولسان جاف: لم أجده !

فسأله الشيخ الأكبر: ما الذي لم تجده ؟

فقال خلدون: اللوح !

فأنّبه الشيخُ الأكبر كابحا غضبه: ما بك، أتهذي ؟

فقال خلدون: كان الصندوق المحرّم فارغا. ولهول المفاجأة، ركضتُ ونسيتُ استرجاع لفافةَ الورق من عصبة خلدون !

همس الشيخُ الأكبر وقد بدأ صوتُه يترنّح كجريح: تعني أن أحدا سواك سرق اللوح ؟

فقال خلدون: أعني أن اللوح لم يكن في الصندوق !

طفحت نقاطُ العرق من الشيخ الأكبر وجعلت كمسامير ثلجية، تدقّ صدغيه وركبتيه. ثم أحسّ بالدُوار ينزل على عينيه فيُمسك بالبؤبؤين ويقلبهما لكي يغورا، فكاد يهوي لولا أن خلدون تلقاه فأجلسه على حافة البئر يخضّب وجهَه بالماء.

ما الذي تفعله بي يا ربّ ؟ فكّر مطبق الجفنين. هل كان كلّ ما أرسلتَه لي من إشارات، رموزا أخطأتُ فهمَ معانيها فضللتُ الطريقَ إليك وضلّلتَني مزيدا حين رأيتَ أني

في ضلال ؟ ثم نظر إلى خلدون وقال: هو حَيّان إذن من سرق المزار. وما اعترافه ومحاولته الانتحار سوى إقرار بفعلته تلك !

قال خلدون عابسا: ولمَ يسرق حيّان المزار ؟

فأجاب الشيخ الأكبر: وما أدراني أنا ! هو إبليس أوعز إليه، أو أنّ الصبيّ جُنّ فأتى ما لا يُفقه معناه ! ثم تأمّل فيه برهة قبل أن يضيف: أصدقني القول، ألا تكون نواياك التخلّص من السجن عبر الإيقاع به ؟

فردّ خلدون بهدوء: هل أصحبُك والحال هذه إلى المأمور فأعترف أني اعتديت على الحارس بهدف السرقة، ومعلوم أن القضاء يحاكم على الفعل، لا على حصيلته ؟ لا أدري سبب إقدام حَيّان على الانتحار، لكنّي أقول لك بأنه ليس السارق، إذ لا مصلحة له ولا دافع منطقي !

وإذن ؟ سأل الشيخ الأكبر مستنجدا.

وإذن، تابع خلدون، التفسير الوحيد هو أن الصندوق المحرّم كان فارغا...

لأن ثمة من أقدم على سرقته ! أطلق الشيخ الأكبر مستاء. ما بالك تكرّر اللازمة نفسها كأننا اكتشفنا ذلك للتوّ ؟! ثم تفطّن إلى ما تواريه نظراتُ خلدون من كلام مبطّن يخشى التصريحَ به، فأردف بنبرة أرادها مقنعة: لمَ لا تفصح عن مقصدك مباشرة، بدل التحدّث بلغة الرمز ؟

تردّد خلدون ثوان قبل أن يستجمع شجاعته فيقول: لوح القضاء والقدر الذي تبحث عنه أنت، وتبحث عنه الولايةُ بأسرها، ليس موجودا في الأصل !

اصمتْ أيها الكافر ! صرخ به الشيخُ الأكبر وهو ينتفض واقفا، فضغط خلدون بثقله على كتفيه مجبرا إياه على البقاء جالسا فوق حافة البئر: أرجوك ابقَ هادئا واصْغِ إلي، فأنا أفهم أن تُجنَّ وقد أصابني ما يشبه المسُّ حين اكتشفتُ الأمر، وهو ما منعني من التوجّه إليك لإطلاعك على الحقيقة وما عذّبني طوال أسابيع. لكن، هي الحقيقة أرادت أن أكتشفها ولم تُشر عليّ بما أفعل: هل أحتفظ بها سرّا يسمّم روحي، أم أعلنها على الملأ مع علمي المسبق بأنها ستُحدث ما هو أقوى من وقع زلزال ؟ وها أنك قد جئتَ إليّ، أو هو الربّ أرسلك كي يُلقي عن كاهلي حِمْلا ثقيلا. وتستغرب بعد هذا أن يهون عليّ الاعترافُ بأني من أقدم على السرقة ولو كانت عاقبة ذلك السجن ؟ أهلا بالسجن سوف يحرّرني من سياط أفكارٍ أذاقتني

الويل وكادت تودي بي إلى الهلاك أو إلى فقدان العقل... ماذا نفعل أيها الشيخ الأكبر ؟ أرى أن نخبر المأمورَ بالحقيقة كاملة، هكذا يبرأ حَيّان...

وما نفع أن يبرأ حَيّان إذا كانت السفينة ستغرق بجميع من فيها من ركّاب وبحّارة وقبطان ؟ وما نفع حياتي وحياة الإخوان إذا كان المزار سيقوَّض ومعه أخوية الوفاء ؟...

يحكي خلدون والشيخ الأكبر يزداد غيابا وقد سرحت به أفكارُه إلى البعيد...

هل يُعقل أن المزار كان فارغا طوال تلك العقود وأن لوح القضاء والقدر بدعة اجترحها عقلٌ محنّك كي يوحي للخلْق أن ثمّة علما يتضمّن كل العلوم ؟ لا، هذا محال ! لكن، لا يكذب خلدون وإنما قد نطق بما رآه. ولمَ لا يكون قد توهّم فخُيّل إليه بسبب الخوف وتحت وطأة الانفعال، فعُمي عن رؤية ما لا يحقّ لبشري عادي أن يراه ؟ أجل ! هو هذا أيها الأرعن الغبي الجاهل المدّعي ! توهّمتَ فهُيّئ لك أن عينيك أبصرتا وأن لسانك نطق بالحق ! وما الذنب ذنبك، لكنها حال ضعفاء النفوس عُمْي القلوب وموصدي الأرواح ! إذ كيف يُبصِر من كان من أمثالك ما لا يُبصَر، وكيف يفهم ذوو العقل المحدود ما يمتنع فهمُه حتى على النخبة من الخواص ؟ هل إنّ عدم رؤية شيء هو الدليل على عدم وجوده ؟ بالطبع لا. فإن لم تقع على لوح القضاء والقدر في مكانه داخل الصندوق، فهذا لا يعني أنه غير موجود، إنما هو ما أُريد كي تمتنع رؤيتُه على أي إنسان !...

تنهّد الشيخ الأكبر وقال: أخبرني يا بنّي، هل أطلعتَ أحدا سواي على الأمر ؟

فردّ خلدون مطمئنا: وهل أنا مجنون لأفعل ؟ ثم من كان ليصدّق حكاية يستعصي على أخصب خيال أن يصوغ ما هو أدنى منها بكثير ؟

وهو كذلك، فكّر الشيخ الأكبر، ثم قال وهو يقاوم قشعريرة: ما لي أشعر بالبرد فجأة ؟

فردّ خلدون: هو هول الصدمة حتما وإرهاق السهر والسير الطويل. ثم نهض فخلع قفطانه ورماه على كتفيّ الشيخ الأكبر، فبقي في قميص وسروال. هه، أننطلق وقد أضعنا ما يكفي من الوقت ؟

مهلا يا خلدون، أجاب الشيخ الأكبر، دعني ألتقط أنفاسي... ثم، أتدري ؟ ما عدتُ واثقا من أن اصطحابك إلى المأمور واعترافك بالسرقة، سيغيّران شيئا في الوضع. فأنت لا تملك إثباتَ ما يُدينك، وفضحُ خلوّ الصندوق المحرّم من اللوح لن يلقى آذانا مصغية، إلى جانب أنه سيضاعف من خطورة التهم الملقاة عليك. أتعرف يا بنيّ، ليست كل الحقائق جديرة بالقول، وأنا لا أسعى إلى الانتقام منك، حتى أن قلبي غفر لك وقد أدرك براءةَ نواياك في الأصل !

دمعت عينا خلدون حين سمع الشيخَ الأكبر يحدّثه بهذه الطيبة وبهذا الحنوّ، فقام إليه وقبّل يديه واسْتَسْمَحَه، ثم رفع عينيه إليه يسأل: وحَيّان، أنتخلّى عنه ؟

بالطبع لا، ردّ الشيخ الأكبر. لكنّ خلاص نفسه بمنزلة خلاص نفسك بالنسبة إليّ. أعتقد أني وجدت الحلّ المناسب لكما أنتما الاثنين، وللمأمور أيضا كي يمهلني وقتا لإيجاد مخرج معقول.

وهو ؟ سأل خلدون منفعلا.

فأردف الشيخ الأكبر: سأختلق حكاية مفادها أني استيقظتُ والإخوان صبيحة اليوم، فوجدنا اللوحَ ملقىً أمام باب الخانقاه، فأعدناه إلى الصندوق المحرّم وأقفلنا عليه !

قال خلدون: هذا ما سيثبت التهمة على حَيّان وأمرُ إعادة اللوح سَهْل عليه، طالما أنه مقيم في المكان !

فردّ الشيخ الأكبر: مستحيل، لأنه أسيرُ غرفة المأمور وهو في حالة صحّية لا تسمح له بالحركة في أي حال. بل ربما كان هذا إثباتا لبراءته يضاف إلى غياب الدافع أصلا لديه.

سأل خلدون: وإذا ارتأى المأمورُ طلبَ الكشف على الصندوق وما فيه من لوح ؟

فرماه الشيخُ الأكبر بنظرة تفيد ببداهة الجواب، فتفطّن إلى بلاهة سؤاله واللوحُ يُحرَّم لمسُه، بل أن تدنيس حرمة المزار تبيح قتلَ كل فرد، أمن رتبة الأعيان أو حتى ملكا من الملوك كان. صمت متفكّرا للحظات، ثم أضاف: إذن أبقى هنا وتنصرف أنت. ولكن، كيف لي أن أعلم ما ستؤول إليه الأمور ؟

فأجابه الشيخ الأكبر: لا شيء يخفى في قرية "اليسر" والأخبار السيئة تصل كما تعلم، بسرعة الطير.

لا قدّر الله، سارع خلدون إلى القول.

فتابع الشيخ الأكبر: يبقى أن تقطع لي وعدا.

فردّ خلدون: أعرف أيها الشيخ الأكبر، واعتبر الوعدَ مقطوعا عليّ حتى الممات ! لا أخبر أحدا بما جرى ولا أبوح لمخلوق بخلوّ الصندوق المحرّم من اللوح، ولو قطعوا لساني وفقأوا عينيّ وأنزلوا بي كل أنواع العذاب والهوان، حتى تشير عليّ بذلك وتكون قد قرّرتَ أنه قد آن الأوان !

قام الشيخُ الأكبر يربت على رأس خلدون، ثم التقط عصاه يتهيّأ للانصراف، فتذكّر القفطانَ ورفع ذراعه يسحبه من على كتفيه. غير أن خلدون أصرّ وحلف وألحّ أن يبقيه عليه، مبرّرا إلحاحَه ذاك بامتلاكه قفطانا آخر في الدار.

انطلق الشيخُ الأكبر بخطى سريعة تسابق انبلاجَ نور الفجر. ووقف خلدون يشيّعه حتى رآه يرفع عصاه ضاربا بها الهواء مُطلِقا: ألن تحلّ عنّي يا غراب الشؤم ! فما كان من الطائر الأسود الليلي إلا أن صفق بجناحيه مرتفعا في السماء، قبل أن يبسطهما متّجها نحو خلدون الذي تراجع مرتاعا، مدركا بعد حين، أنه بسبب الظلمة وغيابٍ دام أسابيع، كاد لا يتعرّف إلى صقره الحبيب حَرار !

١٧

حين بلغ أسفلَ الهضبة، كان نورُ الصباح قد تمدّد على صدر السماء، مطلِقا أطرافَه على غير هدى.

تأخّرَ. هذا مؤكّد. وتسلّقُ الهضبة لا يخلو من مجازفة، إذ أنّ أحولَ العينين ينام مع الدجاج ويستيقظ مع الديكة، ثم يخرج للتريّض حفاظا على لياقة بدنه. كأنّ له بدن وهو ذو قامةٍ لا تعلو عن الأرض بأكثر ممّا يُفديها التعفرَ بالتراب !

إلتفت إلى الطريق، فإذا بالخفير مقبلا جريا من البعيد وقد بدا صاحيا على غير إرادة منه أو لطارئ أخرجه عنوة من الفراش، فما أمهله أن يرتدي ثيابه على روية، إذ وضع معطفَه على قفاه ونسي اعتمارَ قبّعته.

مشى الشيخُ الأكبر في الاتجاه المعاكس. وما هي دقائق، حتى أبطأ سيرَه بعد أن رأى الخفيرَ يسلك الدربَ المفضية إلى الخانقاه، فقرّر الجلوسَ هنا، في فيء تلك الشجرة، بانتظار خروج المأمور. فأوّلا، لن يترك هولُ المفاجأة التي يحملها الخفيرُ وقتا لأحول العينين كي يتبيّن غيابَه. وثانيا، لن يخطر للمأمور أو لمرافقه، أن هذا العجوز بعمامته وعباءته وعصاه، هو الشيخ الأكبر وقد تخفّى بزيّ عادي ! ها هو في أمان إذن، وفي حوزته وقتٌ للاستراحة من عناء ليلٍ طويل ثريّ بالأحداث والمفاجآت والتطوّرات والتعقيدات والحلول.

كلّ ما جرى، حدث في مدى ساعاتٍ وما كان في البال أو متوقّعا. إنما هي مشيئة الربّ وما خيارُ العبد سوى الرضوخ والامتثال والتسليم بحكمة الخالِق فيما يقرّره لمخلوقاته من مصير. هو الربّ قرّر أن يضع السكّيرَ على دربه فيتشبّث به ذاك ويتبعه كظلّه ويبقى يشاكس ويعاند كي يضطرّه إلى التخلّص منه، ذلك أن الربّ أراد أن يكون لذلك الشقيّ دور فيما حصل وسيحصل. وهو الربّ قرّر سوقه من ثمة إلى خلدون وإلى ما يحفظه من سرّ، لكي يفهمه أن سير الأمور ليس ابنا للصدفة، وإنما هو لغة يخاطب بها عبده كي يهتدي إلى رسمه. منذ البداية، والربّ يقرّر، حادثة تلو الأخرى، كي ينبّهه إلى مشيئته لم تنجلِ إلا بعد أن انكشف باطنُ الصلة التي تربط ما بين الأحداث.

والآن وقد تفطّن أخيرا إلى مراده تعالى، هو السائرُ على قدر ما يقع به الأمرُ الإلهيّ في خاطره لإدراكه بأن الأفعال لا تتفاضل ولا تتناقض إلا في نظر الخلق، كيف تراه لا يستجيب وإن غاب عنه مآلُ الدرب التي سلك ؟ إنها إرادته ولا إرادة لي معه، بل أنا مسلمٌ له أمري وكلّ اتكّالي عليه ومرجعي إليه. هكذا علّمه شيخُه حين كان مُريدا مبتدئا، وهكذا علّم هو الإخوانَ من بعده: وجوب الاسترسال مع الله، أي لا يكون لك اختيار وفعل، بل تترك مشيئةَ الربّ تسيّرك لأن المطلوب هو الخضوع والقبول والاستسلام. فإن تركتَ الاختيارَ له، هدأتَ واسترحتَ...

شاهد الشيخُ الأكبر المأمورَ والخفيرَ يهرولان باتجاه الطريق العام. ورأى المأمورَ سائلَ اللعاب منفعلا لمفاجأة كبرى ستفرش أمامه سجّادةَ الترقية، ومن خلفه الخفيرَ لاهثا واثبا ككلب صيْد، والإخوانَ في أعلى الهضبة مجتمعين وقد أقلقهم أن يكون خروجُ نزيلهم الدخيل على صلة بغياب شيخهم الأكبر الذي طال بما يعدو المحتمَل.

تململ يهمّ بالقيام، ثم عنّ له أن يتمدّد في الظلّ فيغفو متناسيا ما حدث وما زال بانتظاره وهو كثير. لكنه رأف لحال الإخوان، فاستجمع قواه ونهض ومضى في اتجاه الخانقاه، فإذا بهم يتهافتون للقياه وهم يمطرونه بالأسئلة ويستعجلونه بالأجوبة، مسترسلين في وصف ما عانوه قلقا عليه، فما أتاحوا له أن يتفوّه بأكثر من سؤال: أين حَيّان ؟ قبل أن يوافوه بأن المأمور أقفل عليه بالمفتاح وبأنهم حاولوا تفقّدَ حاله والاطمئنان، فقرعوا على زجاج النافذة، فرفض الالتفاتَ إليهم أو التزحزحَ من مكانه على الفراش، حيث استلقى ملصق الوجه في الجدار.

نهر سَرّاج الإخوانَ على قلّة حذرهم، داعيا إياهم إلى الدخول مخافة أن يظهر المأمورُ فجأة بمثل ما خرج. فوافق الشيخُ الأكبر معلنا انسحابه لتبديل ملابسه، وما عليهم سوى انتظاره في البهو حيث سيلتحق بهم...

انتظروه. إلى أن بدأ الانتظارُ يشاكس صبرَهم، فجعلوا يتحايلون عليه بالرواح والمجيء، بطقطقة مفاصل الأصابع، وبالتلاعب بكريات الأسئلة تتقاذفها أعينُهم أو تتفادى الاصطدامَ بها، بخفض الرؤوس وكمّ الأفواه.

قال سَهْل وما عاد قادرا على السُكات: ما باله تأخّر ؟ ألا تذهب يا جابر فتتفقّده ؟

فانبرى له شمس الدين: لا تتحرّك يا جابر ! نتركه يتنفّس قليلا، فربما كان يغتسل من غبار الطريق.

قال ابن مسرّة: حتى لو كان قد استحمّ كاملا، لكان الآن جالسا بيننا منذ حين.

وقال الحكيم: ربما كان يتناول الفطور وقد أمضى الليل ساهرا...

فقاطعه ابن عطا ساخطا: بالله عليك، أتراه وقتا مناسبا للمزاح ؟

فردّ الحكيم: ومن قال إني مازح ؟ أم أن الشيخ الأكبر لا يجوع كسائر البشر الاعتياديين ؟

وقف سَرّاج متجها إلى الباب، ثم جمد عند العتبة مؤذنا بقدوم الشيخ الأكبر وقد رآه مقبلا في الرواق.

جلس الشيخ الأكبر بينهم وكانت آثار المياه بادية على صدر خرقته: اعذروا هذا التأخير. لكنّ الإعياء ومردّه السيرُ والسهرُ طوال الليل، دعاني للاغتسال علّني أستعيد بعضَ النشاط.

فما علّق الإخوان على ما تقدّم من تمهيد مصيره أن يفضي إلى لبّ الحديث.

تابع الشيخ الأكبر: كما تعلمون، نزلت للبحث عن المدعوّ خلدون وأنا لا أعرف له عنوانا. ولم يسَهْل نزولي في وقت متأخّر الأمرَ، إذ لم يصدفني من أسأله أو أستدلّ منه. سرت على قدميّ طويلا، خلال ساعات، حتى نال منّي اليأسُ فقلت: لا حاجة للاستمرار وربما كانت العودة أفضل الحلول بما أني بلغتُ أطرافَ القرية ولم يعترضني إنسان. لكن، رأف الربّ بحالي فإذا بنحيب وعويل وصراخ تشق صدرَ الليل وتنير القناديلَ في مجموعة من البيوت المنتشرة على صدر بؤرة في العراء... أجنّبكم الغرقَ في التفاصيل، التقيتُ بمن أسأله واتّضح أن القدرة الإلهية شاءت أن تسوقني قدماي إلى ذلك المكان حيث كان يحتضر طفلٌ رضيع، على مسافة غير بعيدة من حيث تقوم دارُ خلدون. ودّعتُ الرجالَ المجتمعين متذرّعا بأني على سفر، ثم ذهبت مباشرة للقاء خلدون، بعد أن فهمتُ أن أمّه خرجت تساند جارتَها أمّ الرضيع. طرقتُ على الباب عشرات المرات وليس من مجيب، إلى أن استدرتُ إلى الناحية الخلفية، فكانت نافذة مفتوحة نظرتُ منها فإذا الدار فارغة لا أحد فيها. عاودني اليأسُ وأنا أشعر بدنوّ الفجر، فارتأيتُ أن أغادر فورا قبل أن يفضحني النور.

سِرتُ باتجاه البئر التي كنت قد مررتُ بها قبلا للارتواء، فإذا به هناك في قميص وسروال، منهمك في الاغتسال. استغربتُ الأمرَ وفوجئ هو بظهوري عليه وقد تعرّف إليّ بسرعة وبادرني إلى السؤال: ماذا تفعل هنا، ولمَ أنت متخفّ بهذا الزيّ ؟ ارتبكتُ في البدء ثم رددت على سؤاله بسؤال: وأنت، ما الذي أخرجك ليلا وما يدعوك إلى تضميخ ملابسك على هذه الشاكلة بالمياه ؟ فردّ متعجّلا: هو صراخ جارتنا وحزني على وليدها الذي طالما

حملتُه بين ذراعيّ، ما أخرجني وجعلني أعدو حتى غمرني العرقُ من الرأس إلى أخمص القدمين. ثم حدّق فيّ مؤذنا بأن دوري في الكلام قد حان. فما كان منّي إلا أن أطلعته على سبب سعيي في طلبه، بنبرة خالية من كل تهديد وتأنيب.

وما رفّ له جفن. وما اختلجت ملامحُه بأي رعشة تفضح ارتباكا أو خوفا. وما ارتعش صوتُه البتّة حين أجاب: من أنا لأجرؤ على الاقتراب من الصندوق المحرّم، وكلّنا يعلم أن احتراق اليدين والعينين هو نصيب من تسوّل له نفسُه مسّ ما يحويه ؟ هذا إذا افترضنا أني تمكّنتُ منفردا من التغلّب على الحارس سَعْد وفيه كما تعرف، قوة عشرة ثيران !

ما أردت تصديقَه في بادئ الأمر. وقلتُ لا بدّ وأنه يتحايل عليّ. فقرّرتُ الإيقاعَ به بأن عرضتُ عليه تعيينَه حارسا مكان سَعْد، هذا إذا تأكّد أنه السارق وقد أثبت بفعلته أنه محنّك وجريء وشجاع. فأطرق متفكّرا، ثم قال: إن أنا جاريتُك وادّعيتُ بأني السارق، سيتحقق حلمٌ راودني طوال عمري. لكن، كيف أثبت هذا وأنت ستطالبني بإعادة اللوح، وهو ليس في حوزتي ولا أعرف أين أبحث عنه.

ما اكتفيتُ بإجابته، بل نصبتُ له فخّا آخر علّني هذه المرة أصيب، وقلت: اسمع يا خلدون، لفافة الورق التي تركتَها وفيها ما يشير إلى اسمك، تثبت أنك الفاعل ! فأجاب: إذا كان اسم الجاني يبدأ بحرف (خ)، فقد يكون خلدون كما خالد كما خليل !

عندها تيّقنتُ من أنه بريء، وقد زاد اقتناعي ما أضافه حين قال: ليلة سُرق المزار، كنت مع والدتي في الدار. فقاطعتُه قائلا: ومن يصدّق شهادةَ أمّ ؟ فتابع: معك حق. حتى أنه كان بإمكاني الانسلال أثناء نومها. لكن، في تلك الليلة بالذات، أصيبت والدتي بعارض فأرسلتني أنادي على إحدى الجارات التي بقيت معها حتى الصباح. إذن هناك من يشهد لي. ولو أردتَ، لناديتُ عليها الآن...

أنهى الشيخُ الأكبر كلامَه، وانحنى يسند رأسه بكفّيه. فاستخلص الإخوانُ اندثارَ أملهم الأخير بما أن الخطر عاد يتهدّد حَيّان وهو المتّهم الوحيد. ثم فاجأهم سَرّاج بتعليقه

حين قال: هناك أمر يحيّرني أيها الشيخ الأكبر، فأنا لا أفهم ردّ فعل خلدون حين حدّثتَه بأمر لفافة الورق.

قال الشيخ الأكبر: وأين تكمن حيرتُك يا سَرّاج، وقد فهم أن الحرف إياه هو الحرف الأول من اسمه، أي (خ) ؟

فأردف سَرّاج: لا تتأتّى حيرتي عن مضمون إجابته، بل عن كونه ارتضى الإجابةَ دون أدنى اعتراض.

فسأل الشيخ الأكبر عابسا: يعترض على ماذا ولمَ يا سَرّاج ؟

فردّ سَرّاج: على السؤال من أساسه، كأن يجيبك بأنه لا يجيد فكّ الحرف !

فقال الشيخ الأكبر: كتابة حرف لا تعني بالضرورة أنك تتقن الأبجدية !

فقال سَرّاج: ربما. لكن، حين طرحتَ عليه السؤال، لم تذكر أن في اللفافة حرفا، بل ما يشير إلى اسمه. وقد يكون ذاك توقيعا بالكامل، رسما أو ختما !

صمت الشيخ الأكبر برهة ثم قال: معك حق.

فتابع سَرّاج: وإذا كان الولد يجيد فكّ الحرف، فمن أين له هذا وما في قرية "اليسر" سوى أمّيون أبا عن جد ؟

انتفض جابر هاتفا: هو زيدون !

فسأله سَرّاج مستغربا: من يكون ؟ وما علاقة خلدون به ؟

فأجاب الصغير: هو الورّاق وقد أطلعني خلدون أيام تقديم امتحان الحراسة، أنه يعمل صبيّا لديه.

فقال سَرّاج: وما أدراك أن الورّاق متعلّم ؟

فقال جابر: حين كنت أنزل ليلا وحَيّان لجلب كدس الأوراق، كنا نجده في الحانوت في انتظارنا وفي يده كتابٌ يقرأه على ضوء القنديل.

سأل شمس الدين: وهل كنتما تتحادثان وإياه ؟

فقال جابر: في أحَيّان، كان يطرح علينا أسئلة عن الأخوية والإخوان...

فأردف شمس الدين متوجها بكلامه إلى الحكيم: أرأيت ؟ أما كان من الأفضل أن تبقى أنت على تعاملك مع الورّاق بدلا من إرسال الصغيرين، وأنتَ من أشار علينا بوجوده وبأفضلية اللجوء إليه تخلّصا من تجّار القضاء ؟

فانبرى الحكيم مدافعا: وبمَ أخطأت ؟ ألم يكن تجّارُ القضاء يذيقوننا الأمرّين، فيطول انتظارُنا ويتكرّر انقطاعُ الورق عنّا أحَيّانا لشهور ؟

سأل شمس الدين: كيف دريتَ بوجود الورّاق في قرية "اليسر" يا الحكيم ؟

فأجاب الحكيم: ما بالكم فقدتم الذاكرة ؟ ألم أحدّثكم بأني تنبّهتُ بالصدفة إلى غرابة وجوده وأنا في طريقي للانتساب إلى الأخوية ؟ وأنت أيها الشيخ الأكبر، ألم تقل لي حين حلّت بنا أزمة الورق وأشرتُ أنا بوجوده: انزل وتحقّق إن كان الحانوت قائما بعد وفي هذه الحال، اعقد معه اتفاقا على أن يزوّدنا بالورق مرة كل شهر ؟ وحين قابلتُه وعدت، ألم أخبرك بأنه قبل الاتفاقَ شرط أن أنزل أنا إليه ؟ وهكذا كان، حتى جاء الصغيران جابر وحَيّان، فأوكلتُ المهمّة إليهما. الآن، وقد قضى المسكينُ في حريق، سنضطر للتعامل مجددا مع تجّار القضاء. لكنّي متنازل عن هذه الوظيفة لسواي، هكذا أريح وأرتاح !

قال سَهْل: مهلا يا إخوان، ما بالنا غرقنا في كوب ماء فنسينا المهمّ والأهمّ ألا وهو إثبات براءة حَيّان ! أوشك المأمورُ على الرجوع، الوقتُ يدهمنا ونحن ما زلنا ندور حول السؤال إياه: من سرق المزار ؟ فإن لم يكن السارق هو خلدون ـ وهذا ما تثبّت الشيخُ الأكبر منه بحيث تنتفي فائدة الاسترسال في تحليل تفاصيل ثانوية تبعدنا عن جوهر القضية ـ فمن تراه يكون ؟ إن لم نجد شخصا آخر تشير إليه الشبهات، فاعتبروا أن حَيّان المصرّ على صمته، يحكم على نفسه بالإعدام !...

أدرك سَهْل هولَ ما قاله على الإخوان، وبالتحديد على جابر الذي أسنِدت إليه مأمورية مراقبة النافذة احتياطا من عودة الخفير، عندما رآه وقد انسحبت الدماءُ من وجهه فبدا شاحبا لا لون فيه. وحده شمس الدين بدا قليل التأثّر بما أطلقه سَهْل من تحذير، إذ تنحنح لشدّ الانتباه وقال: وإذا كان حَيّان هو السارق ؟ فصرخ به ابن مسرّة: ما بك، أجننت ؟ فتابع شمس الدين: افهموني. قصدي أن أذهب بهذه الفرضية إلى أقصاها، فعلّ ذلك يومئ لنا بحلّ أو يلفتنا إلى تفصيل أهملناه وقد يكون إثباتا لبراءة حَيّان. أعني، فلنرَ ما يوجد في حوزة المأمور من إثباتات ضده، فنقابلها بما ينفيها ويشهد له.

لحظ شمس الدين أنّ الإخوان، وإن استاءوا من اقتراحه هذا، لم يبدوا أيّ اعتراض إمّا لأنهم اعتبروه منطقيا وصائبا، وإمّا لأن أيا منهم لا يملك ما يقدّمه بديلا، فتشجّع على

المواصلة وقال: ما يجتمع ضد حَيّان هو شهادة الحارس سَعْد الذي أدلى بأن السارق كان يرتدي خرقة وبأنه تصرّف كمن اعتاد تفاصيلَ المكان. هناك أيضا اعتراف الصغير ومحاولته الإقدام على الانتحار وتمسّكه بالصمت ورفضه التحدّث إلينا وإلى جابر نفسه الذي لا يفارقه...

قاطعه سَهْل: هذا ما اجتمع من أدلّة ظاهرية نعرفها عن ظهر غيب ! لكن، يبقى السؤالُ الأساسي ألا وهو: ما باعثُ حَيّان إلى سرقة المزار ؟

قال شمس الدين: لا تستعجل يا سَهْل ودعني أكمل، فمقصدي هو عرض الوقائع وصولا إلى استنتاج الدافع الذي ربما خرج لأعيننا دون أن نسعى إليه. إذن تبقى نقطة غامضة وهي كيف تمكّن حَيّان من قهر سَعْد، وصراعهما أشبه بصراع قزم وعملاق ؟ الاحتمال الممكن الوحيد هو أن يكون حَيّان قد أضعف من قوى الحارس بدسّ بعض المواد في عشائه، من تلك التي نستخدمها في صنع العقاقير...

ساد الذهولُ لصدقية ما تقدّم به شمس الدين من افتراض بما أن حَيّان يساعد ابنَ مسرّة يوميا على إعداد الطعام ويتناوب وجابر على حمله إلى الحارس، ولأن الأمر خطر له ومعناه أنه قادر دونهم جميعا، على كبح عواطفه بلجام عقله. وهذا ما أخذ الإخوانَ على حين غرّة وأشعرهم برغبة ملحّة بتهشيم برودة أعصابه عبر تحدّيه بالمزايدة عليه، وصولا إلى تدمير حججه حجرا حجرا، بانتظار أن ينهار بناءُ اتهاماته عليه.

أصلح سَهْل من قعدته فجثا على ركبتيه مقوّس الظهر، متّكئا بيديه على فخذيه ومثبتا نظرَه في عينيّ خصمه اللئيم: جيدة مرافعتك يا شمس الدين وبارعة بالفعل ! ما عدا أنها من ضروب التخمين ولا أدلّة حسّية عليها ولا شهود. لكني سأماشيك فأفترض أنها تمثّل حقيقة ما جرى، مضيفا أن حَيّان وهو مراهق حسّاس وهشّ وخجول، أقدم على مسّ لوح القضاء والقدر بالرغم ممّا يستدعيه ذلك من جرأة وجسارة لا أرى أنا شخصيا أنه يملكهما...

قاطعه شمس الدين وقال: لمَ لا تضع ذلك على حساب رعونة المراهقة وطيش الشباب وفضول الأولاد، وهي خصال تفضي إلى ارتكاب المعاصي دون التفطّن إلى عواقبها ؟

تدخّل الشيخ الأكبر وقال: ألا تجد أنك تبالغ بعض الشيء يا شمس الدين ؟ ها إنّا تركناك تعرض فكرتك، لكني أرى أنك بدأت تشتطّ فإذا بك تحكم على حَيّان بأسوأ مما فعل المأمور !

حرّك شمس الدين فاه للاعتراض، فرفع الشيخُ الأكبر يدَه يدعوه، بل يأمره بالصمت: ظنّي أنك غير مدرك لعاقبة ما تفوّهت به، إذ يفيد ذلك بأن حَيّان تصرّف مؤتمِرا بنوايا الشرّ ومعناه...

معناه أنه بريء ! صرخ شمس الدين، بما أنه ليس أكثر من أداة توسّلها إبليس كي يسيء إلينا ! أنا لا أتّهم حَيّان وهو بمثابة أخي الصغير وله في قلبي مشاعر يعجز لساني عن وصفها. لكنها الحقيقة ربما، يقضي الواجبُ بمواجهتها حتى ولو كانت مُرّة، صعبة، تفوق الاحتمال !

ضرب سَرّاج كفا بكفّ قائلا: لا حول ولا قوة إلا به ! يا شمس الدين، إذا كان حَيّان قد سرق المزار، فهذا معناه أن اللوح ما زال هنا، طالما أن الصبيّ لم يخرج من دائرة هذا المكان منذ ليلة السرقة !

فتحيّن الشيخُ الأكبر الفرصة وقال: ها نحن قد اجتمعنا لحلّ مشكلة، فإذا بنا نواجه واحدة أخرى هي إقناع شمس الدين بأن ظنونه إزاء حَيّان في غير موضعها الصحيح ! ما تريدنا أن نفعل يا أخانا، أن نفتّش المكان بحثا عن اللوح كي تقتنع ببراءة الصبي ؟

لا، أجاب شمس الدين وقد خنق الارتباكُ صوتَه وعقد الحرجُ أطرافَه وصبغته الحمرة مّما يتعرّض له من تأنيب. فانتفض الشيخُ الأكبر غاضبا وقال: لا بل هو ما سنفعله وقد زرعتَ الشكّ في أفئدتنا الآن ! هيّا يا إخوان، توّزعوا على الأمكنة قبل عودة المأمور، نقبوا ما فوق الأرض وما تحتها بحثاً عن اللوح. أنت يا سَهْل ويا ابن مسرّة، اتّجها إلى

الواحة في الفور ولا تنسيا أركان المزار وزواياه ! وأنت يا ابن عطا وأيها الحكيم، ابحثا في المطبخ وانبشا القففَ والسلالَ والبئرَ والصناديق ! انزل يا شمس الدين مع سَرّاج إلى محترف الكلام. وأنت يا جابر، ابقَ معي لندور على غرف الخانقاه !

١٨

يعرفهم. كم بات يعرفهم !

كأنّ له رَحَمٌ وقد ولدهم فرداً فردا. ولولا خوفه من الكفر لقال إنه خلقهم فوضع في كلّ منهم ملَكة تبيح توقّعَ كيفية تصرّفه إزاء موقف معيّن. لكلّ منهم نقاط ضعفه وقوّته، غير أن شمس الدين يبقى أفضلهم على الإطلاق: لا يأمن إلا لذاته وما أن تطلِق أمامه فكرة، حتى يقترب منها كقطّ برّي، فيبدأ بتقليبها حذِرا بين براثنه قبل أن يتراجع كي تظهر له كافة جوانبها، استعدادا للانقضاض عليها وتمزيق لحمها وصولا إلى العظم.

سَهْل أيضا لا بأس به. عادِلٌ وبه نخوة ومروءة تُلهبان فيه الحماسَ، فإذا به بسيطُ التوريط يرمي نفسَه في النار من دون حساب أو تفكير، دفاعا عن مبدأ. الآخرون أقلّ تمايزا، يحتاجون إلى عقل يسوسهم ويفكّر عنهم. لكن، ما أن تُحدَّد لهم الوجهة، حتى ينشطوا كالنمل الدؤوب فيبرعون في السعي والجمع والتفنيد والتوضيب.

وحده سَرّاج ينفد منه. يبدو مخلصا مطيعا كأفضل الجُند، لكنّه ما يلبث أن يتمرّد، فينعزل ويشاكس ويواري، قبل أن يُظهر، ليعود فيتكتّم. ولا عجب في ذلك، فسَرّاج أقربهم إليه سنّا وعشرة ومعرفة، وله قلب أنصع من الثلج وأخْيَر من الخير. بيد أنه لطيبته وسعة قلبه، يصفح ويحنّ ويرأف، حيث لا يجوز الصفحُ والحنانُ والرأفة. ذلك هو مكمن ضعفه: خطير بتسامحه ومقلق بانفتاح روحه ومرونة عقله وشفافية نفسه. لولا هذه الشوائب فيه،

لفتح له الشيخُ الأكبر قلبَه وأسرّ إليه بما يشغله. لكن، ذلك هو قدره. أن يتكفّل وحيدا بالسهر على انتظام الأمور بحيث لا يُقلق سيرَها حادثٌ من هنا، أو طارئ من هناك.

إنّ من لا يعرف لا يُجرَّب. ومن لا يُجرَّب لا يخطئ. ومن لا يخطئ لا يُدرِك. ومن لا يدرِك يسَهْل عليه التدثرُ بأحمد الصفات والاحتماءُ بإيمان سَهْل بسيط يجهل ما يحتدم كل يوم تحت مظاهر وجود هادئ مستتبّ، من معارك طاحنة تستعر في كل ساعة ودقيقة بين خيارات الخير وخيارات الشرّ ولها من الجانبين جحافلُ تُعدّ بالمئات ووفرةٌ من الأسلحة وأنواع الذخائر والعتاد. لكن، لا يستوي في نظر الربّ من يعلم ومن لا يعلم. لذلك تراه لا يكشف الحقيقةَ إلا على النفوس القادرة على حملها...

خرج الشيخ الأكبر من غرفة ابن عطا، وكانت الثانية إلى اليسار في أقصى الرواق، فرأى جابر يخرج في الطرف المقابل من غرفة سَهْل وهي الأولى من ناحية المدخل الرئيسي، فيرفع كتفيه في إشارة منه إلى أنه انتهى من تفتيشها فما وقع فيها على اللوح. ما زالت أمام جابر غرفتان قبل أن يصل إلى غرفة حَيّان. عساه يكون قد أصاب في تقديراته، فلا يفاجئه المراهقُ بسلوكٍ يُفشل خطتَه ويُذهِب جهودَه هباء. هل يروح إليه فيقترح أن يتعاونا على أثاث كل غرفة ؟ لا، الأفضل أن يتريّث فيترك للصغير أن يقوم بالاكتشاف وحده، وهو ما سيضاعف من صدقية العملية ويزيدها هولا. ماذا لو تحاذق جابر فقرّر حماية صديقه وتوأمه بأن أخفى أداة الجرم وتستّرَ عليها ؟ لا، هذا أكثر ممّا يقدر عليه الصغيرُ، فالتشويشُ على مسألة بمثل تلك الخطورة يفوق الجُرمَ بل يعدو أكبر الإثم...

وقف جابر على عتبة غرفة حَيّان وفكّر بمغادرتها على الفور. عمّا يبحث وهو الواثق من براءة حَيّان ؟ حتى لو كان صديقه هو الجاني، وهذا محال، لما خبّأ اللوحَ في غرفته نظرا لِما يمليه المنطقُ على أي عقل سويّ. لكنّ ظهور الشيخ الأكبر في الرواق، قضى على تردّده ذاك، إذ حثه هذا الأخيرُ على الإسراع بإيماءة من رأسه.

ولج جابر العتبة فانعقد حلقه بغصّة ووقف يتأمّل أثاثَ الغرفة القليل، لا يجاوز فراشا وطاولة وصندوقا خشبيا يحوي أغراضا يحملها المريدون معهم، ثم ينسونها بعد حين، وقد زال عنها أثرُ ما اعتقدوه ذكرياتٍ وحنينا لن تنال منها الأيام. وازدادت الغصّة

صلابة حين اختلطت بحصى الندم والشعور بالذنب وقد قست وتسنّنت وأصبحت جارحة كأفضل النصال. لمَ لمْ يذهب حتى الآن إلى حَيّان فيقنعه بالتراجع عن اعترافه، معتذرا عمّا جرى في الواحة بينهما، مقسِما بأنه لم يزل أخاه وحبيبه الذي لا غنى له عنه ؟ وما الذي يعوزه حَيّان أكثر من هذا، لكي ينقض أقوالَه ويتخلّى عن رغبته في الانتحار ثانية على يد المأمور ؟ اندفعت الدموعُ من مآقي جابر، فراح يمسحها وهو يقاوم جريانها غصبا عنه. يُنهي تفتيشَ الغرف، ثم يذهب مباشرة إليه فيطلب منه السماح وينقذه، حتى ولو وشى به وقال إنه، أي جابر، هو أصل البلاء...

انحنى يفتح الصندوق، ثم دسّ يده يعبث بأغراض اجتمعت من غير ألفة أو مبرّر، فلامس حذاء عتيقا وحصى وريشة مكسورة ودواة فارغة وخرقة بالية وأوراقا وقلنسوة صوفية وعيدانا ومطّاطا... وفي قعر هذا الخليط المتنافر، اصطدمت أصابعُه بجسم صلب ملفوف ببطانية من الصوف، رفعه فإذا به ذو شكل مستطيل ووزن ثقيل كأنه كتاب، وإذا بيديه أخذتا في الارتعاش وقد شعر بسخونة وبوهج راح يلفح وجهه وعينيه.

رمى جابر ما في يده إلى الأرض وخرج ينادي وهو يقفز مذعورا، مولوِلا: إليّ ! لقد احترق وجهي واشتعلت عيناي ! وافاه الشيخُ الأكبر مهرولا، ثم دخل الغرفة يسحب منها غطاءَ الفراش ويرميه على الصبيّ كي يطفئ حريقَ الوهم الذي اشتعل في رأسه فأوحى له أن النار انتشرت فيه كما في الهشيم.

استمرّ جابر يصرخ: عيناي ! عيناي ! إلى أن أخذه الشيخُ الأكبر من وجهه قائلا: أنظر إليّ، افتح عينيك وانظر إليّ ! ظهر الإخوانُ لاهثين وقد سمعوا الصراخَ من بعيد، فسلّمهم إياه قائلا: لقد وجد اللوحَ في غرفة حَيّان ! خذوه من هنا وضعوا على جفنيه ماء باردا، ثم بلسما لشفاء الحروق، وضمّدوهما بمنديل أو بشاش مبلول بمحلول البابونج والورد والشاي.

امتثل قسمٌ من الإخوان، فحملوا جابر وخرجوا به وقد تحوّل روعُه فجأة إلى غضب على حَيّان، إذ راح يشتمه ويلعنه ويتمنّى له الموتَ على يديّ الربّ اللحظة، والاحتراقَ بنار الجحيم كما تسبّب هو باحتراق عينيه.

اجتمع سَهْل وشمس الدين وسَرّاج مع الشيخ الأكبر، فجمدوا متلاصقين في الرواق، وهم يحدّقون إلى الكتاب المرميّ على الأرض في غرفة حَيّان.

قال الشيخ الأكبر بصوت متهدّج خفيض: ما العمل الآن وقد ثبتت ظنونُ شمس الدين ؟

فردّ سَرّاج: قبل كل شيء، نعيد اللوح إلى صندوقه في المزار !

قال شمس الدين: لكنّ المأمور أقفل الباب واحتفظ بالقفل.

فقال سَهْل: نكسره ! فلا يجوز أن يبقى اللوح ملقى هنا في الأرض !

أردف شمس الدين: ومن ذا الذي سيجرؤ على لمسه أو الاقتراب منه، وقد رأينا ما جرى لجابر حين أمسكه على غير دراية منه ؟

فقال سَرّاج: اذهب يا سَهْل إلى المزار، اخلع القفلَ وجئ بالصندوق المحرّم. وأنت يا شمس الدين، ابحث عن عارضة خشبية وعودين صلبيْن نرفع بها اللوحَ دون أن نمسسه... ثم سكت متنبّها إلى أنه لم يستشِر الشيخَ الأكبر، فسارع هذا الأخير يُبدي موافقته: ونِعْم القرار ! هيّا يا أخويّ تحرّكا واقضيا ما أشار به سَرّاج.

انطلق الاثنان، فنظر الشيخ الأكبر إلى سَرّاج وسأل: هل يُعقل أن حَيّان خبّأ اللوح في صندوقه حيث يسَهْل إيجاده ؟

فأجاب سَرّاج: لا تستغرب، فأكثر الأماكن بداهة هي أبعدها عن الشبهة.

لكن يا سَرّاج، تابع الشيخ الأكبر، كيف تمكّن من مسّ اللوح فما أصابه شيء ؟

فلم يجد سَرّاج ما يردّ به، إلى أن قال: ما يقلقني أنا وما لم أتمكّن من فهمه حتى الآن، هو دافعه إلى ارتكاب هذا الإثم. إلا إذا كنتَ محقا أيها الشيخ الأكبر حين قلتَ بأنه إبليس يدهى لبسطاء العقول والقلوب، فيستخدمهم أداة لتنفيذ مآربه في الشرّ.

رجع سَهْل ومعه ابن مسرّة يعينه على رفع الصندوق المحرّم، فدخلا الغرفة به ووضعاه على الأرض. ثم وصل شمس الدين يحمل عصا وعارضة خشبية، قائلا: هذا كل ما وجدتُ. تقدّم الشيخ الأكبر مؤذنا بأنه من سيُنجز المهمّة، فاعترض الآخرون متذرّعين بخوفهم من أن يصيبه مكروه وهم في أمسّ الحاجة إليه. فتطوّع سَرّاج، ثم استُبعد لتقدّم سنّه

ووهن ذراعيه، تبعه شمسُ الدين الذي تراجع من تلقاء نفسه، معترفا بعدم قدرته على إتيان مثل هذا الفعل الخطير...

حسم سَهْل النقاشَ فدخل الغرفة وحشر العارضة الخشبية تحت اللوح، ثم رفعه مستعينا بالعصا وهو يعضّ على شفتيه والعرقُ يتصبّب غزيرا منه، مُبعدا وجهَه وباسطا ذراعيه بأقصى ما يكون... وانزلق لوحُ القضاء والقدر إلى داخل الصندوق، فأسرع يغلق غطاءه. ودخل الإخوان يهنّئونه ويثنون عليه امتنانا وعرفانا بالجميل، بعد أن وقفوا يراقبونه وهم يتلفظون بالصلوات، طالبين الرحمة والعون والغفران.

اجتمع أهلُ الأخوية أمام باب الخانقاه، فرفع اثنان منهم الصندوق على الأكتاف كالنعش، وسارا به يتقدّمهما الشيخُ الأكبر ويتبعهما من بقي من الإخوان، فيما جابر متّكئ على ذراع الحكيم وقد عُصبت عيناه بقطعة من الشاش الأبيض. علت الأصواتُ بالابتهالات وأناشيد الذِكْر احتفاء بعودة اللوح إلى أخوية الوفاء، متناسية حَيّان الذي وقف في النافذة يتأمّل إخوانه يبتعدون دون أن يعيروه أيّ انتباه.

وصلوا إلى منتصف المسافة الممتدة ما بين الخانقاه والمزار، فإذا بابن عطا يلكز ابنَ مسرّة الذي لكز الشيخَ الأكبر منبّها إياه إلى وصول المأمور برفقة الخفير. حثّ الجميعُ الخطى إلى أن وصلوا المزار، فأعادوا الصندوقَ المحرّم إلى موضعه في غرفته، ثم خرجوا واجتمعوا يحرسونه عند الباب.

همس سَهْل وقد أصبح المأمورُ على مقربة: ماذا نقول له ؟

الحقيقة ! ردّ الشيخ الأكبر بحزم. لا تخافوا، فالربّ معنا وهو رحيم لن يتخلّى عن حَيّان.

اقترح شمس الدين بصوت خفيض: ماذا لو ادّعينا أننا وجدنا اللوحَ وراء مبنى الخانقاه بعد خروج المأمور ؟

فرماه الآخرون بنظرة مفادها: الآن تذكّرتَ حَيّان ؟ أم أنك تقول ذلك لغسل اليدين وإظهار براءة نواياك ؟

تكلّم سَرّاج فقال: لا بأس عليك يا شمس الدين. فلا ذنب لك سوى أنك كنتَ أداة للحقيقة كي تُظهر نفسَها. والحقيقة تظهر دوما ولو بعد حين.

استفهم المأمورُ عن سبب اجتماعهم ها هنا وعمّا يفعلون، فأخبروه بما جرى، ملحّين في طلب الرحمة لحَيّان. فقال وهو يُبدي انزعاجا من كثرة الأصوات: نرى ذلك فيما بعد. ثم إن جريمة حَيّان ليست ذات أهمية، يشفع له صغرُ سنّه ومحاولتُه الانتحار. فنظروا إليه مستغربين، غير راضين في العمق عمّا بدا في لهجته من استخفاف بما يُجلّونه هم، ومتخفّفين في الآن نفسه من وطأة القلق على الصغير. أدرك المأمورُ أنه خطا خطوة تعدو اللزومَ، فتقهقر إذ أضاف: يبقى أن أتحقق من صحّة ما رويتموه. لكنّي منشغل الآن بقضية جديدة، وقد وقعت في قرية "اليسر" جريمة قتل !

قال هذا وتحوّل عنهم متّجها إلى حيث أوقف سيارته، فركبها مع الخفير وانطلقا مخلفيْن سحابة غبار أضفت على ذهول الإخوان بعضا من صُفرة الصور العتيقة فضح عيوبَها نورٌ صارخٌ أغدقته بسخاء شمسُ منتصف النهار !

١٩

ـ ألم أُعِد وأكرّر عشرات المرّات، بأني لا أستقبل أحدا يوم الأربعاء ؟!

أطلقت عدلى صوتَها باتجاه مدخل الدار، ثم شدّت حزامَ ردائها الصباحي وانتقلت إلى المطبخ وهي تتساءل: لماذا تُرى الربّ خلق الأربعاءَ، وهو نهار قلّما أمنت له لما يجلبه دوما من سوء أخبار ؟

عاد الطرْقُ خفيفا على الباب، فجمدت في مكانها أمام الحوض، ثم انتظرت. لا بدّ وأنه غريب عن الديار سمع بها من أهل القرى المجاورة، فجاء وفي نيّته عدم المغادرة قبل أن ينعم برؤية حسنها الفتّان ! لا بأس. يعاند قليلا، ثم ييأس ويؤوب إلى حيث كان...

الرجال ! لولا خوفها من غضب الربّ لقالت إنه جبَلَهم على عجلة، فلم يفطن إلى كثرة ما يشوبهم من مساوئ وعيوب. ابتسمت. هي عيوبهم بالذات ما يجعلهم على براءة وسذاجة يخلعون بهما قلوبَ أقسى النسوة !... والنساء ؟ اجتُرحن من ضلع آدم بالفعل، لكن من ذاك المختصّ بمشاعر الغيرة والحسد والنميمة، هنّ اللواتي لم يُظهرن حيالها سوى التعالي والاحتقار مع نعتها بأسوأ الصفات مثال: ابنة حرام ومخرّبة البيوت وسارقة الأزواج ومُفسِدة أخلاق الأبناء والشباب...

تبالغين يا عدلى، همست لنفسها. فباستثناء مداراتك وتجنّب الحديث معك، لم تبادر امرأة في قرية "اليسر" إلى التهجّم عليك من قبل، وما من واحدة بينهن منعت زوجَها من زيارتك. بل أنك كنتِ تشعرين في أحيان، عبر إشارات صغيرة خفيّة، أنهن ممتنّات لما تؤدّينه من خدمات. إلا أنّ الأمور اختلفت منذ سرقة المزار وثمة ما ضرب الناس في عقولهم رجالا ونساء، فأمسوا على حال ثم استيقظوا صبيحة اليوم التالي، وهم على نقيضها التام.

تناهى إلى سمعها صوت متهدّج مخنوق يناديها باسمها، ثم يضيف: افتحي يا عدلى، أنا خلدون ! فوثبت وأصبحت في طرفة عين بمحاذاة الباب حيث ألصقت أذنَها وسألت: خلدون، أهذا أنت ؟ فردّ الصوت متوسّلا: افتحي قبل أن يراني أحد الجيران !

كان في نيّتها ألا تفتح له حين سيجيء ويطرق بابها، وقد تصوّرت الموقفَ هذا في رأسها عشرات المرات، كأن تقول له: عُد إلى حيث كنت، أو، أنا لا أتعاطى مع اللصوص ! لكنّ ما في نبرة صوته من انكسار، لم يمهلها وقتا للتفكير، فإذا بها ترفع المزلاجَ وتفتح على عجل، مرتمية عليه.

اشتاقته. وقد غاب عنها أسابيع. وقد ظنّت أنه خدعها واستعملها وأخفى عنها وما وفى بوعده أن يُطلعها على خفية الأمر. وحين أخذ الخِرقة التي خاطتها له واختفى وذاع في القرية خبرُ سرقة المزار، لم يطل بها الوقتُ حتى أقامت الصلة بين الحدثين، فلعنته ولعنت الظرفَ الذي جعلها تتعرّف به. ها هو الآن عندها، معها، مخطوف اللون، أصفر كالشمع، يرتعد تحت نقاط العرق التي سالت منه، فبلّلت شعرَه وثيابَه والأريكة حيث جلس يلتقط أنفاسَه الفارّة منه.

وما عرف من أين يبدأ وكيف يُطلعها على ما استجدّ. أخبرها عن لقائه بالشيخ الأكبر ليل أمس، وما دار بينهما من حوار، وصولا إلى ما قطعه على نفسه من وعد بعدم إفشاء سرّ لوح القضاء والقدر لأيّ كان. ثم تحدّث عن حَرار الذي جاءه قبيل الفجر، فقرّر اللهوَ معه بعد أن غادر النعاسُ عينيه، وقد دبّ فيه نشاطٌ تراكم حتى انفجر كنبع. ثم روى كم عدا ولعب، وحَرار يحلّق عاليا، ثم ينزل إليه فيحطّ على ذراعه، ثم يعاود الطيران. إلى أن سمع هديرَ محرّك سيارة مقبلة من نواحي قرية "اليسر"، وهو أمر استثار حذرَه وفضولَه لندرته، فإذا به يصعد إلى الشجرة التي لجأ إليها حَرار وقد حدس قلبُه بأمر خطير، كي يرى الخفيرَ مترجّلا من السيارة وبرفقته رجلٌ استنتج سريعا أنه المأمور. وإذا بهما يطرقان على باب داره، فتخرج أمّ خلدون، فيدور بينهما وبينها حديث. وإذا بوالدته تلطم على صدرها، ثم على رأسها، قبل أن تحيد عن الباب كي تسمح بدخول الخفير...

قاطعته عدلى: خانَكَ الشيخُ الأكبر، فأبلغ المأمورَ باعترافك بالسرقة !

فقال خلدون: امهليني وقتا وسوف تفهمين. ثم عاد إلى الشجرة يراقب من البعيد ما يجري أمام باب داره...

ما هي إلا لحظات، حتى خرج الخفيرُ وفي يده كيسٌ تناوله المأمورُ وسحب منه قماشا مكوّرا نفضه، فإذا به قفطان ! خطر لخلدون أن الشيخ الأكبر بدّل رأيَه، فرجع في تلك الليلة ليعيده إليه، فما وجده لأنه كان يلهو خارجا مع حَرار، فرماه من النافذة الخلفية، ثم رحل. لكنّ ردّ فعل أمه، أنبأه بأمر آخر لأنها بدأت بالعويل: ويلي، إنه مضمّخ بالدماء ! وما الذي جرى لولدي ؟ وهاتوا لي وحيدي ! وأين أنت يا خلدون ؟ وهي تبكي وتنوح مفجوعة، والمأمور يحاول تهدئتها بمعية الخفير...

فكّر خلدون بالنزول والركض إليها لكي يطمئنها، لكنه خاف. فأمسك بالصقر وأطلقه في اتجاه الدار علّها تفهم أنه على مقربة ولم يزل على قيد الحياة. حلّق حَرار فوق سقيفة الدار ثم حطّ عليها، فرأته أمّه وجمدت للحظات، قبل أن تطلق صوتَها على مداه وهي تقول: خلدون ليس قاتلا ! كيف يقتل السكّيرَ وهو طريح الفراش لم يغادره منذ أسابيع ؟! أجل، كان معي ليل البارحة، وقد أقفلتُ عليه بالمفتاح حين خرجتُ إلى جارتي للسهر على رضيعها السقيم...

أدركتُ أن أمّي فهمت أني في الجوار، لذلك راحت تصرخ بنبرة مستنكرة غاضبة، لكي يصلني صوتُها فأتنبّه وأهرب قبل فوات الأوان. واستنتجتُ ممّا قالته أن ثمة شهودا سمعوا السكّيرَ في الليل يتحدّث بصوت عال ويتلفظ باسمي عدة مرات. دبّ فيّ الذعر. وعجز عقلي عن التفكير. وكنتُ أتوقّع كلّ شيء، ما عدا اتّهامي بجريمة قتل. وما عرفتُ ما أفعل وأين أذهب، حتى خطرتِ لي. فقلتُ أجيء إليكِ وأسألكِ الاختباءَ عندك لوقت، هذا إذا كنتِ توافقين ؟

صمتت عدلى وقد استحبّت في جملته الأخيرة لهجة السؤال، وودّت لو تجيبه: أخبّئكَ داخل قلبي، في قاع القاع ! لكنها أبت البوحَ واكتفت بإيماءة من رأسها وبكلمتين: الدار دارك ! ثم قامت متذرّعة بعمل تقضيه، فدخلت غرفتها وأطبقت الباب ورفعت يدها إلى صدرها تهدّئ من روعه، وقد طفق يموج ويصخب بشهيق متنافر عنيف. وما فاجأها

ألا يكون مردُّ اضطرابها هو الخوفُ على ذاتها ممّا ستتورّط فيه، بل ما أحسّت أنها تنزلق إليه بشكل محتوم: فرحها الأخرق الشقيّ ببقائه معها لأيام ودّتها لا تنتهي في أعوام !

ركضت إلى المرآة تتفقد ذاتَها التي خرجت منها فتركتها على خواء وامتلاء. أخذت المشطَ وراحت تسرّح شعرَها وما سرح عليه من أفكار. كيف تتعلّق بشاب يصغرها بسنوات، لا صنعة واضحة له سوى سرقة المزارات، وطرّيد ملاحق فوق هذا كلّه من قبل العدالة والقضاء ؟ ما همّ ! فله نظرة تدمي القلبَ وابتسامة تتغلغل في المفاصل حتى تحلّها. وله صوت ينزل على الآذان كغلالة من حرير، ويدان دافئتان حائرتان بين المخمل والعشب النديّ. ويعاند ويحرن. كالمهْر الصغير. ثم ينتصب ويعدو كفرس أصيلة. وله لون سهول القمح في تشرين ورائحة الحمّاض البرّي ينحني فوق ضفاف السواقي ويُسيل اللعاب. وله... عدلى كلّها أرداها قتيلة منذ رأته، هي التي قيل فيها: إنها أبرع النساء على الإطلاق في اصطياد الرجال !

وقفت عدلى مستاءة. لن تتزيّن له ! وما جاء من أجلها، وإنما للاحتماء من خطر يتهدّده. وما بالها ماعت كالعسل الرديء. واصْحِ يا بنت وتفكّري بما يجب عمله لمساعدة هذا الشاب. وتعرف ما عليها القيام به، لكنها تماطل متذرّعة بتطيّرها من الأربعاء. لا بأس، تنتظر حتى الغد، فهم لن يأتوا للبحث عنه في دارها. فلتنهض إذن وتهيّئ له ما يقتات به، وقد تجاوز النهارُ نصفَه بقليل...

سكن خلدون في مكانه دونما حراك، كأنه يخشى إن مال أو اضطرب، انفجارا في رأسه الذي ضجّ بعشرات الأفكار وضدّها، وهو يسعى يائسا إلى الردّ على سؤال يعذبه منذ ساعات: ما الذي دفع الشيخَ الأكبر إلى اتّهامه بقتل السكّير، في حين تكتّم على ما ارتكبه من جرم عندما اعتدى على الحارس وسرق المزار ؟...

فراغ الصندوق المحرّم ! يا لغبائك يا خلدون ! هذا ما يريد الشيخُ الأكبر إخفاءه من خلال استبعادك عن السرقة وتوريطك في جريمة أخرى عقابها الشنق أو السجن لمدى الحياة ! يا الله ! فخّ مدروس محكَم وقد انطبق عليه، فإذا به طريدة سَهْلة ستساق إلى الذبح عمّا قليل... لا مخرج أمامه سوى الهرب. في أسرع وقت. الليلة دون تأخير. إلى أين ؟ إلى

حيث تسوقه قدماه. بعيدا عن هذه القرية الموبوءة الفاسدة. ربما ساعدته عدلى فأعارته ما يتخفّى به ومالا وزادا يمكّنانه من الصمود لأيام، وربما وافاه الحظّ بوسيلة ما تخرجه من هذه البلاد بأسرها، إلى أقاصي الأرض...

دهم خلدون شعورٌ مريع بالوحدة وبالندم، وودّ لو يضرب رأسه في الحائط، اقتصاصا من تردّده الكريه. هذا كلّه تسبّب به لذاته من تلقاء ذاته، ومن دون عون أحد. فما الذي منعه من كشف الحقيقة وقد ظهرت له، سوى الخوف من خوض مغامرة ستعرّضه لانقلاب الأغلبية عليه ؟ تبّا لك، شجاع وجريء حين يتعلّق الأمر بكبريائك، وجبان نذل متى كان المطلوب منك المجاهرة بالحقيقة والانحياز إلى الحق ولو على قطع رقبتك. أما كنتَ تظنّ أنك الأكثر جرأة وفطنة، فيملؤك ذلك شموخا يرفع رأسك كأنما لتطول السماء ؟ أجرأ ممن يا خلدون، وقد آثرتَ الصمتَ لأنه مسلك الضعيف، فحلمتَ بأمان المعاش واستأتَ لأنهم لم يختاروك لتكون حارسَ الوهم والجهالة والإيمان الأعمى المسيء إلى الربّ بأكثر من إساءته إلى العباد ! والنتيجة ؟ حكم بالموت في مطلق الأحوال ! والأسوأ من هذا هو أنك ستموت فيبصق الجميعُ عليك، وتبصق أنت على نفسك أكثر من الجميع !

خرجت لعينيّ خلدون صورة ورّاقه زيدون، فما جاءه البكاءُ كالعادة، بل شعر أنّ ناراً تنتشر في خلاياه منتزعة إياها من سباتها الطويل. لقد هزمتَني أيها الشيخ الأكبر، لكنّ المعركة لم تنتهِ بعد ! تظنّهم قبضوا عليّ أو سيقبضون وقد هربتُ، وأنت لا تدري أني سأصوّب عليك السلاحَ الذي استهدفتَني به. قد لا أنال منك. لكن ما همّ، ما دمتُ سأقتصّ من جبني الذي هزمني بأكثر ممّا فعلت أنت، فسمّم روحي وأعماها عن قول الحق !

وقف ينادي على عدلى، فجاءته رافعة يديها الملوّثتين بالطحين. شكرها وأعلمها بنيّته الرحيل، فضربت على صدرها وهتفت: إلى أين ؟ فقال إنه لن يهرب مزيدا وقد قرّر مواجهة الوحش. فركضت إلى الباب تمنعه من الخروج، مردّدة: هذا انتحار ! فقال إنه لا يريد توريطها، وإن الورقة الأخيرة في يديه هي تسليم نفسه قبل أن يقبضوا عليه. عاندت هي. وأصرّ هو. فأجهشت بالبكاء وقالت إنها ستكره نفسَها حتى الممات إن وقع له مكروه، إنها اشتاقته وهي لا تني تفكّر به ولا يهمّها أن يكون سارقا أو حتى قاتلا لأنها تحميه بعينيها

وتبذل من أجله الروح. عانقها وقبّل يديها وكفكف دموعَها، ثم دار بها كي يحرّر منها الباب...

جلست عدلى تهدهد ذكرى وجهه، فتضحك ثم تبكي، كمن أصابها مسّ. لماذا لم يقنع فبقي معها فهربت به وخبّأته تحت سابع أرض ؟ قبّلها ومسح دموعها ولم يقل إنها جميلة شهية تقطع الأنفاس وتحلّ الرُكب. بل ضمّها إلى قلبه برفق كما لو كانت ستنكسر بين يديه، فأصاب منها الروحَ وأرداها قتيلة للمرة الثانية في ظرف أسابيع.

نهضت فجأة، فذهبت إلى غرفتها والتفّت بالملاءة ولم تُبقِ مكشوفا منها إلا العينين. تناولت المفاتيحَ عن المسمار في جدار المدخل، ثم دلفت إلى الخارج وفي رأسها لازمة تتردّد: هي التي تعرف من تستشير وكيف تخلّصه !

استلقى شارعُ الحوانيت خائرا في الساعة التي تضرب الشمسُ قويا فتُلهب بسياطها الجلدَ والإسفلت.

إنه أوانُ القيلولة. يطرد الناسَ إلى مواضع الظلّ، فتُسدل الستائرُ وتُقفل الحوانيتُ وتفرغ الأزقة من أي آدميّ، حتى لتبدو القرية ساكنة خاوية كأنّ أهلها اختفوا فجأة بعد أن أُعلِموا بانتشار وباء. وحدها الكلاب تتمدّد متراخية الأطراف، بألسنتها المتدلّية وعيونها الذابلة، لا تقوى على طرد الذباب وقد تحوّل لنحو ثلاث ساعات إلى السيّد المطلق للمكان...

فتح خلدون عينيه على اتساعهما حين ولج الطريقَ العام عند أسفل الهضبة، كي يتثبّت من أن المشهد الماثل أمامه ليس سرابا أو ضرب هذيان. فهذه جارتهم تحمل جثةَ ولدها الرضيع، وهاتيك نسوة الحيّ وأخريات جئن من أزقة متباعدة يسرن وراءها متّشحات بالسواد، وفي الخلف، اجتمع الرجالُ يتبعهم سربٌ من الأولاد المتفاوتي القامات والأعمار. الموكب يسير بانتظام كأنه عسكر نظاميّ، أكثر منه حشد توالدَ في لحظة ذعر أو يأس.

صعد الموكبُ الهضبة صامتا، مستويا، وحين أصبح الكبارُ على بعد كاف، تقدّم خلدون ومشى في أثر الأولاد. لكز أحدَهم يسأله عمّا يجري، فأجابه: أما علمتَ أن اللوح عاد إلى المزار ؟ فأدرك أنه قد أخذ بمجيئه أفضل قرار. فكّر أن يتريّث قليلا قبل مقابلة المأمور، لكنّه عدل خشية ميله إلى التذرّع والمماطلة في أمرٍ ما عاد يحتمل أيَّ تسويف.

تبعثر الموكبُ حول مبنى الخانقاه فأحاطه كالسور، ثم انطلقت الأفواهُ بأناشيد التهديد و والسباب. رمت الجارةُ رضيعَها أمام باب المدخل، فتدحرج ككرة من مطّاط، وانفجر ألمُها فيها بركانا راح يقذف حِمما تُحرق الموضعَ أينما وقعت. هي تعوي وجعا، النساء يُعدن من حولها، والرجال يخبطون على الباب علّه ينصاع فيُخرِج إليهم سببَ شقائهم وما حلّ بهم من اللعنات، وقد قرّروا أن المسؤول عن موت الطفل هو السارق حَيّان.

انفرجت الأكفّ المنقبضة عن حجارة جعلت تتطاير وتتكاثر كالسحر، فتكسر البلّور وتفقع على الجدران كأنها رصاص. ثم صدحت أصواتٌ تطالب باللصّ اللعين وتنذر أنها لا تريد شرّا بالإخوان، إلا إذا قرّر هؤلاء حماية الكلب حَيّان. صرخ أحدهم: لقد وجدتُه ! إنه

في الجانح الآخر من الخانقاه ! فتدافعوا كالسيل الجارف، كسروا زجاجَ النافذة وقفزوا إلى الداخل، ثم أخرجوه وهم يجرجرونه وينعتونه بأسوأ الكلام.

وما صدّق خلدون ما نبت لهم فجأة من أنياب وبراثن تشتاق اللحمَ الحيّ، حتى بدأوا بعضّ الصغير وركله ولكمه في كل مواضع جسمه وبشكل عشوائي. صرخ فيهم: ستقتلونه، إنه بريء ! ثم ارتمى فوقه يحاول حمايته، والنساء والأولاد والرجال يرفعونه عنه ويرمونه بعيدا، كي يستأنفوا الضرب...

انشق بابُ الخانقاه فبان سَهْل ومن ورائه سَرّاج والشيخ الأكبر، غير أن الرجال لم يمهلوهم وقتا للخروج إذ اندفعوا يغلقون الباب متمسّكين به، متابعين التفرّجَ عن بعد على مشهد دخل في أقصى مراحل التشويق.

عاد خلدون يرتمي فوق حَيّان كي يدفع عنه الأيديَ والأرجلَ والبصاقَ، فاجتمعت هذه المرة النسوةُ عليه، وكنّ أكثر شراسة في رفعه ورميه إلى البعيد حيث تولاه الأولادُ فجلسوا عليه يمنعونه من الحراك. رفع رأسَه بالكاد، فلمح وجهَ حَيّان عبر غابة الأذرع والأرجل التي سوّرته. ورآه ينظر إليه. ورآه يقول شيئا دون أن يحرّك شفتيه. وقال حَيّان شيئا لخلدون ! له وحده. كأنهما مجتمعان معا، وحيدين فوق هذه الهضبة، لا رفيق آخر لهما. أراد خلدون أن يجيبه بأنه هنا، معه، وأنه قد سمع نظرته تلك. غير أن الأولاد رزحوا بثقلهم عليه فثبّتوا رأسَه في الأرض وعلّقوا عينيه في السماء.

اخترق سهمٌ قلبَ خلدون، وقد وصله في ثانية كلُّ الكلام الذي قاله حَيّان بنظرته الخاطفة تلك. وغرق قلبُه في بحر من الصقيع والجليد. واحترق قلبُه كأنما دلقوا عليه حامضَ الكبريت. وطقّ قلبُه كبلّور ضُرب بالحديد.

عاد يرفع رأسَه، فإذا بيد الجارة، تلك التي ملّست على شعره وهو صغير، وتلك التي تمسك بها الثديَ لتعطيه لطفلها الرضيع، وتلك التي شاهدها وهي تلعق أصابعَها لتنظيفها من مرق الملفوف وهي تقول لأمّه: أتعرفين بأن الملفوف بالسمْن والثوم، أشهى مذاقا منه باللحم ؟ شاهد يدَها الصغيرة المحنّاة التي تتزيّن بالأساور وتغنج ضاحكة حين

تروي النكات، تحوم فوق وجه حَيّان ثم تنقضّ عليه كطير كاسر جارح، تنشب أظافرَها في المحجر لتقبض على الكرة اللزجة الحيّة فتجتزّها من الجذر... اقتلعت العين ثم قامت تدور بها كالراية، فتراجعت النساءُ وقد انفجرت في فراغ العين نافورةُ دم لوّثت برذاذها وجوهَهن، ثم وقفن ولم تزل في أيديهن خصلُ شعر عالقة في أطرافها قطعٌ من اللحم الحيّ.

أحسّ خلدون وقد جمد الأولاد من فوقه، أن ثمة ما يحدث ولا يراه. ثم سمع دويَّ طلقٍ ناريّ في الهواء تبعه انفراطُ الموكب الذي انفلت في جميع الاتجاهات، ففهم أن الخفير وصل بصحبة المأمور وكانا غائبين عن الخانقاه.

انتفض واقفا، فانقلبت أحشاؤه فيه وخرجت معدتُه من بين شفتيه، يصحبها سائلٌ أصفرُ من قيء غزير. اندفع الإخوانُ باتجاه حَيّان، فقفز المأمور من سيارته برفقة الخفير، وهو يصرخ فيهم أن يتراجعوا إلى الوراء. ثم انحنى يجسّ نبضَ الصبيّ وكان جثّة هامدة مشوّهة الملامح دامية الأطراف، مخطّطة بالجراح والكدمات.

لمح خلدون الشيخَ الأكبر يرمقه بنظرة خاطفة قبل أن يواري وجهَه بين الرؤوس، فشعر بكراهية الأرض تجتمع فيه متنامية متعاظمة كسيول تنحدر بزخم، فما أحسّ بنفسه إلا وقد قطع بوثبة واحدة عشراتِ الأمتار، مطلقا صرخة ارتجّت لها السماء، قبل أن ينقضّ على الشيخ الأكبر فيمسك بعنقه يودّ نزعَه عن كتفيه.

تشبّث الإخوانُ والمأمورُ والخفيرُ به، يشدّون كي يخلّصوا الشيخَ الأكبر منه، وهو يجعر كالثور ويهيج كأسد جريح، ممعنا في عصر جسم غريب أشبه بأخطبوط سامّ أو بقطعة مطّاط. عينا الشيخ الأكبر تكادان تخرجان من محجريهما كعين حَيّان، وخلدون لا يحسّ بالأيدي التي جعلت تضربه وتدفعه، لتركيزه على هدف خُلق من أجله ولن تستوي حياتُه إن لم يبلغه، ألا وهو القضاء على هذا المسخ المنازع اللحظة بين يديه...

إلى أن سمع المأمورَ يصرخ بالخفير: بعقب البندقية ! ثم غاب عن الوعي...

إلى أن سمع المأمورَ يقول: أوثق يديه ورجليه ! فأحسّ بألم كبير في مؤخرة الرأس، ما لبث أن تلاشى مع ولوجه الإغماءة الثانية...

هكذا، بين يقظة متعثرة وإغفاءات متماوجة، استعاد خلدون وعيَه بتؤدة وبجهد. وحين تمكّن من فتح عينيه، نظر حوله فإذا به في غرفة داخل الخانقاه، موثقَ الأطراف، ملقى على الأرض. قلبَ رأسَه إلى الوراء، فبانت له نافذة سوداء سدّتها العتمةُ التي هبطت وعوارضُ خشبية ثُبّتت بالمسامير كيفما اتّفق، لتحلّ مكانَ زجاجها المكسور. يا للغباء ! أقفلوا المنافذ لمنعي من الفرار، وقد جئتُ إليهم على قدميّ وبملء إرادتي !

حاول استرجاعَ ما كان، فطالعه وجهُ حَيّان، فطرده مغمضا عينيه على غصّة. ثم جاءه وجهُ الشيخ الأكبر وقد ضربته الزرقةُ وسمّمه الاحتقانُ. عساه يكون فارق الحياة ! عساه يكون لفظ آخرَ أنفاسه المنتنة فوقع هامداً لا نبض فيه ! هكذا يستحق خلدون الموتَ إعداما لسبب وجيه، لفعل قتل ارتكبه عمدا، وليس لجريمة مختلَقة ألصِقت به...

أحسّ حركة وراء الباب، وشعر بأنفاس متقطّعة وبعينٍ تسترق النظر إليه عبر ثقب المفتاح. جمد وأصاخ السمع. هل يُخيّل إليه، أم أن أحدا جاء يتفقده ؟ تحرّك مقبضُ الباب. ومن يكون هذا الذي يسعى إليه ليلا ؟ هل يرمون إلى قتله ؟ وهل يعني ذلك أن الشيخ الأكبر لم يزل على قيد الحياة ؟ أم أنه قضى فإذا بالإخوان يريدون الانتقام له ؟ هل يجرؤون والمأمور هنا، وليس بينهم غريب يلبسونه التهمة ؟

جمد المقبضُ في الباب. وانسحبت خطى تسير حافية، متأنّية. ثم خطر لخلدون أن المأمور أقفل عليه، لا لمنعه من الهرب، وإنما لحمايته. فربما اشتمّ في الأخوية رائحة تآمر وخديعة وتورية، استجابة لظنون وشكوك تساوره في الأصل. ربما. وهذا غير أكيد. لكن، قد يكون محتملا. ينبغي لخلدون أن يثبت أنه غير ضالع في مصرع السكّير. كيف ؟ أيقول كنتُ مع حرار، فاذهب واستجوبه ! والشهود الذين ادّعوا بأنهم سمعوا السكّير يتفوّه باسمه عدة مرات ؟ لماذا يذكره السكّيرُ وهو لا يعرفه وما التقى به إلا نادرا، مطفأ الروح مرميا على الرصيف ؟ طبعا ! هو الشيخ الأكبر من نزل يبحث عنه، فما صادفه أحدٌ يستدلّ منه على عنوانه، غير السكّير ! لكن، إذا وجد دارَ خلدون، فلأنّ أحدا ما غير السكّير دلّه إليه. إذن، هناك من رآه في تلك الليلة يجول في قرية "اليسر" ويسأل عن مكان إقامته ! ... لا، لن يطرح الشيخُ الأكبر أسئلة على أهل القرية وكلّهم يعرفه، فيجازف بافتضاح أمره هو الذي لا يغادر الخانقاه أبدا كسواه من الإخوان !

شعر خلدون بالخطى وقد جاءت هذه المرة من وراء النافذة. ثم سمع صوتا هامسا يقول: خلدون، أنا جابر، أتذكرني ؟ وأجل يذكره وقد جلسا يتحادثان مرة خلال أيام الامتحان، وكان المسكين حَيّان معهما. أسرّ جابر بصوت مخنوق: ألا تقترب قليلا من النافذة ليمكنني الكلام معك ؟ فزحف خلدون على ظهره حتى أصبح تحت النافذة، ارتكز إلى يديه الموثقتين في ظهره، ثم جلس مستندا بكتفه إلى الحائط.

قال جابر: لستَ أنت من قتل السكّير !

خفق قلب خلدون: وما أدراك ؟

فقال جابر وقد اختلطت كلماته بالدموع: كيف تكون قاتلا وقد ارتميتَ على حَيّان تحميه وأنت بالكاد تعرفه !

جاءه يطلب عزاء، هذا كل ما في الأمر، فكّر خلدون، ثم خطر له أن يطرح عليه السؤال: والشيخ الأكبر ؟

فردّ جابر: خِلناه فارق الحياة، لكنه باغتنا فاستعاد قواه بعد ساعات... لماذا أردتَ قتله يا خلدون ؟ ألأنه اختار حارسا سواك ؟

هذا ما قاله لكم ؟ سأل خلدون.

لا، أجاب جابر. قل، لماذا تكرهه إلى هذا الحدّ ؟

طرده خلدون غاضبا: هيا، دعني الآن ! ثم خبط رأسه في الحائط بعد أن شعر أنه وقع في حفرة ملأى بالأغبياء والخبثاء. ومن أشد خطرا من خبيث، سوى غبيّ يظن نفسه خبيثا ؟ ردّد في سرّه. عسى الصباح يطلع أخيرا فيأتيه بالمأمور وتقارب محنتُه الطويلة هذه على الانتهاء...

٢١

طلع الصباحُ كما يفعل كل نهار، حليقا نشيطا لا يعرف ما تضمّنه اليومُ السابقُ ولا يدري ما يبيّته له الغد.

تلك هي حال الطبيعة، فكّر المأمور، لا تقف على ذكرى عاصفة، ندوب إعصار أو أوجاع زلزال، بل تواصل سيرَها آمنة، ثابتة، خالدة، كما أراد لها الربّ أن تكون. وحده الآدمي لا مستقرّ له. عميق وهادئ وشاسع كسماء لا منتهى لها. ثم هائج ومزبد وعنيف كأكثر المحيطات حلكة. وذلك الصبيّ الذي انفلتوا عليه فمزّقوه إربا كما لو كان فأرا، أو أدنى من حشرة ! ما هذه القرية التي نامت لدهور، ثم صحت بغتة وقد انقلب أهلُها إلى وحوش ضارية لا تُقيم اعتبارا لقيم أو لناموس ؟! وقيل إنها سُمّيت قرية "اليسر" للسلام الذي عرفته ولسكينة أهاليها. أجل، إنما هي سكينة الموت وسلام الجهل والتخلّف والعيش خارج دائرة الزمن والتاريخ ! لولا الحياء وضميره المهني، لغادر هذه القرية الموبوءة دون تردّد أو تأخير، ولتنطبقْ عليها السماءُ ساعتئذ، وليفنى أهلُها عن بكرة أبيهم فلا يبقى منهم من يذكر أو يخبر عمّا جرى فيها من أحداث يقف لها شعرُ الرأس ولا تصدّقه العقول !

سمع المأمورُ قرعا خفيفا على الباب، فعرف أنه الخفير وقد جاء بسلّة الفطور. لا نفس له على الأكل هذا الصباح. دخل الخفيرُ وكان مجعّد الملامح كأنه ما أطبق جفنَه طوال الليل. أسند بندقيتَه إلى الزاوية، وجاء يجلس في مواجهة المأمور. نظر إليه هذا الأخيرُ وقال: كلْ إن كنتَ جائعا، فأنا لا قابلية لي. هزّ الخفيرُ رأسَه بما معناه: أنا أيضا لا قابلية لي. فأردف المأمورُ وهو يمدّ يدَه بمفتاح: خذ السلّة إلى خلدون، فهو لم يزل على ريق بطنه منذ ظهر أمس.

أما عرض عليه الإخوانُ طعاما ؟ سأل الخفيرُ مستغربا.

فردّ المأمور: ومن خطر له الأكلُ أيها الخفير، بعد كل ما جرى البارحة ؟ ثم أنني ما عدت أثق بأحد، فلا أريد لهم أن يقتربوا منه، أن يطعموه أو أن يسقوه حتى جرعة ماء!

امتثل الخفيرُ فحمل السلّة، ثم خرج، ثم عاد. كيف هو ؟ سأله المأمور. فأجاب: وجدته مستيقظا فحللت وثاقَ يديه كي يمكنه الأكلُ بهما. فما نظر إليّ وما تفوّه بحرف... اعذرني سيّدي المأمور، لكني لا أفهم قلقك عليه، أم أني أسيرُ سوءِ فهمٍ يجعلني أرى أشياءَ لا صحّة لها ؟

عقَدَ المأمورُ حاجبيه، ثم قال: بين كل أهالي قرية "اليسر"، لم يوجد شخصٌ واحدٌ فيه أدنى شعور إنساني ليدافع عن الولد حَيّان، ما عدا خلدون الذي خاطر بحياته حين ارتمى وسط الذئاب الكاسرة ليحميه !

سأل الخفير: ما تفسيرك إذن أنه قتل السكّيرَ ولم يأتِ ذاك ذنبا، وأنه سعى إلى خنق الشيخ الأكبر بيديه العاريتين وكاد يقتله لو لم تأمرني بضربه بعقب بندقيتي حتى سقط مغمى عليه ؟

فأجاب المأمور: استخدم دماغَك أيها الخفير ! أتراه جاء مع الناس وهو يعرف أننا نبحث عنه ؟

فردّ الخفيرُ محرجا: لا... لا أظن.

فقال المأمور: وإذن ؟ ما الذي جاء به إلى الأخوية برأيك ؟

فأجاب الخفير: ربما كان يقصد الشيخَ الأكبر.

فأردف المأمور بنبرة استياء: حقا ؟ هكذا يقصده في وضح النهار مع علمه بأني نزيل الأخوية وهو المطلوب في جريمة قتل ؟!

ثم صمت ووقف واتجه إلى النافذة يحاول السيطرة على أعصابه التي أفلتت منه. وبعد لحظات، عاد يجلس في مواجهة الخفير وقال: اعذرني ! هي قلّة النوم وهذه الأحداث المتسارعة المعقدة التي لا أتميّز لها رأسا من عقب... اسمعني جيدا، إنما جاء خلدون إلى الأخوية لأنه كان ينوي مقابلتي. أما لماذا هجم على الشيخ الأكبر، فلأنه حاقد عليه لأمر خطير. أما قصة أن يكون حَيّان هو السارق، فهذا ما لستُ أكيدا منه، أضف إليه اكتشافَ اللوح في صندوق حَيّان هكذا، فجأة، في اللحظة الأخيرة ومن دون مقدمات ! لا أدري إن كان الإخوانُ متواطئين فيما بينهم، لكني على يقين من أن شيخهم الأكبر يواري أمرا ما. أي أمر ؟ لا أعرف. هذا لا يعني أني أبرّئ خلدون من التهم الملقاة عليه، لكني أشعر أن في القضية سرّا، وأني لن أتمكّن من حلّ ملابسات هذه القضية، ما لم أكتشف كنه ذلك السرّ.

قال الخفير: ربما جاء خلدون يطلعك عليه. أفلا تستجوبه لكي نتبيّن الأمر ؟

فأجاب المأمور: وهو كذلك، لكني أسعى قبلا إلى لمّ شتات أفكاري وقد اختلط عليّ عددٌ من التفاصيل.

قال الخفير: والشيخ الأكبر، متى تقابله ؟

فردّ المأمور: لا أظنّه سيفيدني بأكثر مما أعرفه. على كل حال، على ضوء ما يظهر من استجوابي لخلدون، أقرّر أيَّ أسئلة أطرحها عليه.

سأل الخفير بعد تردّد: ماذا نفعل بقتلة حَيّان ؟

فقال المأمور بنبرة لا تخلو من مرارة: وما تريدني أن أفعل ؟ هل أوقف قرية بحالها وألقيها في السجن ؟

ثم نهض وراح يمشي بالطول وبالعرض، ويداه في جيبه ورأسه منحنٍ على الصدر. فصمت الخفيرُ وقد استشفّ من ذلك رغبته بالتفكير وبالبقاء وحيدا، فقام يستأذن قائلا إنه سيخرج إلى الباحة، وما عليه سوى مناداته حين يقرّر أن وقت استدعاء خلدون قد حان.

مشى الخفيرُ في الرواق، فإذا به ساكن، هادئ، لا صوت لمخلوق فيه، فقدّر أن الإخوان انعزلوا في غرفهم منذ يوم أمس، بعد أن نظفوا جثة الصغير وكفنوها وصلّوا عليها قبل أن يواروها الثرى. لم يبكوا وما سال منهم دمعٌ. وحده سَرّاج أصيب بعارض جعل العرقَ يتصبّب منه، فيما راح جسدُه يهتزّ برجفة عنيفة وهو مطبقُ الشفتين يعضّ عليهما. وحين قام إليه الإخوانُ، رفض أن يقتربوا منه، إنما قبل من يد الخفير إبريقَ الماء الذي ناوله إياه.

ألا تكون قلّة البكاء في أحَيّان دليلَ ما يفوق الحزنَ العادي بكثير ؟ تساءل الخفير. فليس الإخوانُ قساة القلوب، وقد أثبتوا طوال حياتهم أنهم يحنّون على الفقير والضعيف والمريض. بل ما كانت ستكون عليه حالُ القرية من دونهم وهم، لِما يتقنونه من علوم ويمارسونه من صالحات ويكرّسونه من أوقات للتعبّد والصلاة، سرّ أمانها وسبيلُ حفظها من كل السيّئات ؟ فها إن أهلها غرقوا في الفجور والانحلال والفساد، ما أن تخلّى الإخوانُ عنهم بعد سرقة المزار. والآن، بعد أن عاد لوحُ القضاء والقدر إلى موضعه في الصندوق، فلن يطول الوقتُ قبل أن تؤوب الأمورُ إلى سالف عهدها، فيستتّب الأمنُ ويعمّ النظامُ ويُقفل المأمورُ عائدا إلى عاصمة القضاء.

نالت الحيرة من الخفير وقد ضلّ وسط أفكاره المتضاربة عن المأمور. فتارة يشعر إزاءه بجلّ الاحترام والإعجاب لما يبديه من ذكاء وسعة معرفة وحسن تعاطٍ، وطورا يراه أحولَ العقل يذهب في تحليله ذات اليمين بدلا من ذات اليسار، رابطا بين أشياء لا تنعقد بينها صلة ومتشكّكا في مسائل واضحة وضوح النهار. ها هو مثلا يبرّئ خلدون وكل الدلائل تجتمع ضدّه وتشير إليه، بينما يتّهم الشيخَ الأكبر وكاد أن يُقتل خنقا أمام عينيه ! ما له ضدّ الشيخ الأكبر ؟ إذا كان قد كذب بأن أخفى بعض المعلومات والأدلّة، فلأنه يريد حماية الأخوية، وهذا شرعي وطبيعي يندرج في باب ما يسمّى أكاذيب بيضاء. لكن، أن يرى فيه مجرما، فهذا ما يلوّح بمبالغة ويفضح رغبة أذيّة !

طرد الخفيرُ هذه الفكرة من رأسه حين خرج إلى الباحة الغارقة في نور الشمس، بل هو الضوءُ ما طردها بعد أن فضح سذاجتَها وعدمَ ارتكازها إلى أي دليل. ما باله ينقلب

على المأمور فجأة، وفي نيّته تبرئة الإخوان ؟ لا علاقة لهذا بذاك، إذ يصحّ أن يكون الجانبان على نزاهة وصفاء، حتى لو ظهر أنهما فريقان متنازعان.

تناول من جيب معطفه كيسَ التبغ وورقا، ثم اقتعد الأرضَ مستندا بجذعه إلى الحائط، يلفّ سيجارة يقتل بها الوقتَ وفوضى ما احتشد في ذهنه من تساؤلات. ما له ومسائل التحليل والتفنيد والاستنتاج ؟ فليبقَ في إطار مسؤولياته، هو المؤتمِر بأوامر من يفوقه رتبة وأجرا واعتبارا، وليترك للآخرين حيرة الفكر ووجع الدماغ. يقال له: افعل هذا، فيفعل. إذ ليس مطلوبا منه أن يكون له رأي. وهو في الحقيقة لا رأي له. بل كيف يكون له رأي وهو ما تعدّى التفكيرَ بما يتجاوز الأكلَ والشربَ وكفاية احتياجات زوجته والأولاد ؟ وحالُه حالُ سائر أهل قرية "اليسر"، هانئون قانعون بما قدّره لهم الربّ، وهو كثير. فلماذا يُتعبون عقولَهم بما يستحيل فهمُه حتى على النخبة من الخواص، طالما أنهم أوكلوا إلى الأخوان أمرَ الفهم عنهم وتيسيرَ أحوالهم، بحيث يتفرّغون هم لمشاغل الدنيا لا تخلو من المصاعب والمشاق. أيلوم المأمورَ عندئذ إن لم يستوعب ما يستعصي إدراكه على الأغلبية ؟ فهو، مهما كان شديد الذكاء رحب الاطّلاع، يبقى في النهاية غريبا عن هذه الديار لم تعْدُ إقامتُه في قرية "اليسر" فترةً لا تجيز الموضوعيةَ، بقدر ما تثير مشاعرَ الحذر والحيطة والارتياب.

وضع الخفيرُ لفافة التبغ بين شفتيه بعد أن تفّ ما علق على لسانه من شعيراتها، وضرب يدَه على جيوبه يبحث عن عيدان الثقاب، فإذا برجل وبامرأة اختبأت الشمسُ في ظهريهما فشوّشت ملامحَ وجهيهما، يظهران على الدرب عند أسفل الهضبة. لا يُعقل أن يكونا من أهل القرية، وهما حتما غريبان قدما من محلّة بعيدة للتبرّك بالمزار، يجهلان ما دار مؤخرا من أحداث.

افترّت شفتا الخفير عن ابتسامة، فما فهم سبباً لابتسامته تلك سوى ما أشعره به ظهورُ هذين الغريبين من أمان لكون الحياة استعادت بعضا من مظهرها الطبيعي، وودّ لو يستطيع البقاءَ في مكانه، مدخّنا على سجيّته، متأمّلا فيهما. غير أن صورة المأمور شدّته من أذنه للقيام، فإذا به ينفض الغبارَ عن مؤخّرته، يعلّق البندقية على كتفه، ويذهب إلى النافذة ليبلّغ: هناك زائران قادمان !

استعجب المأمورُ وسأل: من يكونان ؟

فقال الخفير: رجل وامرأة.

فسأل المأمور: هل تبيّنتَ من هما وماذا جاءا يفعلان ؟

فردّ الخفير: ظنّي أنهما غربيان قدما للتبرّك.

فسارع المأمور يقول مرسِلا يده في الهواء: ماذا تنتظر إذن ؟ اطردهما !

ترك الخفيرُ الباحة وذهب إلى أعلى الهضبة حيث تسهل على الزائريْن رؤيته. وضع كفّه على عينيه يحجب نورَ الشمس ونادى: المزار مقفل لا يستقبل الزوّار !

تمهّل الزائران برهة قبل أن يعاودا التقدّمَ، فاستغرب الخفيرُ أمرَهما ثم أطلق بنبرة لا تخلو من تهديد: الزيارات ممنوعة ! وها أنا خفير قرية "اليسر" آمركما بالرحيل دونما تسويف ! ثم تناول بندقيته فزرعها في الأرض أمامه كي يراها القادمان فيدركان جدّية الموقف وخطورة عدم الامتثال.

هتف الغريبُ بأعلى الصوت: لم نأتِ للزيارة، وإنما لمقابلة الشيخ الأكبر !

فأجاب الخفير: إنه طريح الفراش وهو يرفض المقابلات.

فتابع الغريب: قل له هو العَلايِليّ وقد عاد !

لم يتمكّن الخفيرُ من مواصلة كلامه، إذ فوجئ بسَرّاج يخرج راكضا يتبعه سَهْل ومن خلفه شمس الدين. تجاوزه الثلاثة ثم وقفوا يسعون إلى استقراء ملامح الغريب المنتصب عند منتصف الهضبة، ترافقه امرأة متّشحة بالسواد.

سأل سَرّاج مائلا على سَهْل: أيكون هو ؟ حدّق فيه جيدا، فأنا قد خانني بصري !

وقال شمس الدين: كيف نتعرّف إليه وقد غادرنا فتيّا، وها هو يعود إلينا وقد تجاوز الأربعين بأعوام ؟

وأطلق سَهْل: مهلا، دعوه يحكي، فاللهجة لا تتبدّل ولا تشيخ.

وكأنما الغريب فهم مرادَهم، فإذا به يتقدّم خطوة ويقول: سَرّاج، أتذكر ابنَ جنّي ؟ فشرّع سَرّاج ذراعيه وقد غرغرت بالدمع عيناه، وجرى بما أوتي له من عجلة على ساقيه

المنحلّتين، وهو يردّد بصوتٍ مرتعشٍ مخنوق: أهلا، أهلا... ها أنتَ لم يصبك مكروه... إليّ بسرعة، وفي الأحضان أيها العَلابِليّ !

٢٢

تشابكت الأقوالُ وتنافرت، فتعادت وتضاربت.

فهذا يحكي عن العَلايِليّ الذي غادر الأخوية منذ دهر لسبب غامض ادّعى الشيخُ الأكبر أنه العجز عن تحمّل الانخلاع من الدنيا؛ وذاك يتكلّم عن زيدون الورّاق الذي قضى في حريق حانوته منذ أسابيع... إلى أن أفتى المأمورُ بخروجهم جميعا، باستثناء الزائر إياه. غير أن المدعوّ العَلايِليّ أصرّ على بقاء من يعرفهم من الإخوان، أي سَرّاج وسَهْل وشمس الدين، كي يستمعوا إلى شهادته فيشهدوا له أو يشهدوا عليه. لم يعترض المأمورُ إذ شعر بأن السرّ الذي لطالما حدس به، قد أصبح في متناول اليد أو أقلّه على مسافة تنبئ بقرب انكشافه أخيرا، بعد طول تنقيب لم يُسفر في نهاية الأمر عمّا يعدو التكهّنات...

عاد العَلايِليّ يخلط ما بين الأحداث ماحِياً ما يفصل بينها من أزمنة ومواقيت، ضاربا نظام تراتبها، غير عابئ بفوضى اتّصالها، هو المأخوذ برغبته الملّحة في حمل المأمور على اكتشاف المجرم الحقيقي وإن تفادى تسميته بشكل صريح.

وعاد المأمورُ يقاطعه لالتباس فيض التفاصيل عليه، ملتجئا إلى الصمت يسائله عن طريقة تساعد الزائرَ على رواية الأحداث بترتيب، وتعينه هو على مواكبته بعيدا عن سراديب اللغط والتيه. فكان أن وافاه الصمتُ بخاطرة ما لبث أن اقترحها على العَلايِليّ: تخيّل حياتكَ كتابا في فصول ستقرأها تباعا عليّ. فهلا بدأتَ بدافع رحيلك عن الأخوية، متناسيا ما تبقى من أحداث نزورها في وقت لاحق ؟

وافق العَلايِليّ وقال: دائما كان للكلمة وقعُ السحر عليّ. تملأ رأسي فأطاردها كما لو كانت من الفَراش أجمع منه المتداوَلَ والنادرَ والغريب. أغفو وأنا أستعيد ما غبّته عيناي طوال النهار من كلمات تشرّبتُها عبر قراءة المعاجم بقديمها وحديثها، وكانت مطالعتُها لسنوات ولعي الوحيد. إلى أن أضحت الكلماتُ كائناتٍ حيّة تقاسمني العيشَ فأحاورها وتخاطبني وتطيب بيننا الأحاديث، واللغةُ مسكني بل عالمي ومملكتي وفيها أنا الملِك والمملوك، أشيّدها ثم أدكّ معمارَها لسبر سرائر هندسة تستعصي بقدر ما تهون، تتعقّد وتتركّب، لكي تستوي من ثمة على انبساط ووضوح. تعمّقتُ في معرفة اللغة متمكّنا من أدواتها وموادها ومختلف التقنيات، من الاشتقاق إلى الإبدال والقلب، ومن الجِناس والطِباق إلى التشبيه والكناية والاستعارة والمجاز، ومن البديع إلى النحو والصرْف والنسب والجمع والتصغير والموازين والأفعال والمصادر، بحيث تحوّلت إلى قارّة زرتُ كلّ بقاعها وتعرّفت إلى بلدانها ومدنها وقراها، ووطئت أصغرَ أحيائها وأزقتها وزواياها التي لا تظهر دوما لعين قارئٍ عاديّ.

لكن، ذات يوم، إذا بي أصحو على مملكة أشبه بمتحف لا أثر للحياة فيه. ثريّ بروائعه، وإنما ناءٍ وعلى برودة وسكون. ضربني الملالُ واستبدّ بي شعورٌ هائل بالخواء، فغادرتُ مملكة اللغة للسلوى بمطالعة كتابٍ شريتُه ولداً قبل انتسابي إلى الأخوية كمريد، حين كنتُ في مرحلة شغفي الأوّل بالألفاظ. في طيّه، وقعتُ على تلميح إلى نقاش دار على عصور ولم يتسنَّ لي السماعُ به من قبل، ويتعلّق بسؤال يمكن إيجازه على هذا النحو: هل اللغة توقيف أي وحي، أم أنها اصطلاح بالتواضع أي من صنيع الإنسان ؟

التفت العَلايِليّ إلى سَرّاج، فابتسم هذا الأخير يهزّ رأسه بما معناه: أجل، لم تزل هذه الذكرى حيّة في دخيلتي كأنها جرت في الأمس أو منذ ساعات. استغرب الحاضرون ما دار بين الرجلين من حوار ضمني قطعه العَلايِليّ بأن تابع يقول:

أرعبني هذا السؤالُ بمثل ما أحَيّاني. فهو من ميل، أيقظ فيّ الفضولَ العلميّ الذي كان على الدوام حافزي ومحرّكَ الدفع في حياتي، وبثّ من ميل ثانٍ الذعرَ في نفسي لإدراكي بأن التوقّفَ عنده والانكبابَ عليه والتعمّقَ فيه، هو بمثابة تنقيب الجَمْر بيدين عاريتين. المهمّ، أحرقتُ السؤالَ ودفنته في تراب الواحة، وعاودتُ الاستلقاءَ على صخرة

إيماني الراسخ بأن اللغة معجزة اجترحها الربُّ وقدّمها هبةً لأبينا آدم. أنِسَتْ روحي لهذا القرار واطمأنّت، لكن لم يحمِها ذلك من استفحال داء الملل فيها، فرأيتُها تدّعي الاهتمامَ بما لا تكترث له في العمق، وتفقد ولعَها بالكلمات بعد أن خسرت تلك ما كانت تمارسه عليها من غواية وافتتان. على هذا النحو، إلى أن تمدّدت اللغةُ جثةً لكائن عجوز امتنع عليه النماءُ وتعذّر توالدُه، فقضى ومات كما تقضي جميعُ الأحياء.

وما وجدتُ طريقا إلى العزاء. وما كان كل الوقت الذي أقضيه مع الإخوان في محترف الكلام إلا وسيلة للهرب من شبح السؤال الذي عاد يطاردني ليل نهار: هل اللغة توقيف أم أنها اصطلاح ؟ إلى أن أيقظني الجنونُ ذات ليلة، فأخذني من يدي إلى محترف الكلام فيما الإخوان كلهم نيام، ووضع أمامي ورقا وريشة ودواة يعالج بها ما ألمّ بي من داء، منتزعا مني الوعدَ بتمزيق ما ستخطّه يدي قبل انبلاج النور...

ليلة بعد ليلة، يصحو العَلايِليّ على غفلة من إخوانه فيمضي الساعات وهو يشرّح أجسامَ المفردات، يفصل جلدَها عن العظام كي يصل إلى دقيق الأوعية الدموية وشبكات الأعصاب. خلال أيام وأسابيع وشهور. حتى اكتملت لديه الرؤية فبدا جليّا له أن اللغة لم تجهز دفعة واحدة، بل بدأت لهجة ترقّت إلى لغة، كالصوت تحوّل قولا والقول كلاما، وكأيّ إنسان حيّ يلهج طفلا بأصوات تعبّر عن حاجات حسّية لديه، ومجموعها هو حروف الهجاء، وصولا إلى اجتماع الأصوات الهجائية في مقاطع ثنائية ثم ثلاثية شكّلت مفردات راحت تتعقّد وتتركّب، فزيدت عليها حروفٌ وأُسقِطت منها أخرى، انتهاءً بمرحلة النضج حيث أصبح الكلامُ حقيقة ومجازا، والحقيقة والمجاز كناية وتجريدا.

ولكي يجتمع لديّ دليلٌ على صحّة ما اكتشفتُ من أحوال اللغة، باشرتُ العملَ على معاني الحروف، متخلّيا عن كل ما تلقيتُه في الأخوية نقلا عن كبار الشيوخ في علم الحروف وقيمها العدديّة ومكنوناتها الباطنية، فتكوّن لديّ جدولٌ بدلالتها يمكّن من استقراء المعنى الأصل، عبر فهم كل حرف، لتحديد المعنى المجموع في أي مفردة...

أدرك العَلايِليّ أن كلامه يعدو قدرة الحاضرين على الاستيعاب، فمدّ يده إلى صدره يسحب ورقة ملفوفة بسطها وناولها للمأمور الذي قرأ:

جدول دلالات الحروف

للشيخ عبدالله العلايلي

١. **الهمز**ة: يدلّ علة الجوفية وعلى ما هو وعاء للمعنى، ويدلّ على الصفة تصير طبعا.
٢. **الباء**: يدلّ على بلوغ المعنى في الشيء بلوغا تاما، ويدل على القِوام الصلب بالتفعّل.
٣. **التاء**: يدلّ على الاضطراب في الطبيعة أو الملابِس للطبيعة في غير ما يكون شديدا.
٤. **الثاء**: يدلّ على التعلّق بالشيء تعلقا له علامته الظاهرة سواء في الحسّ أو المعنى.
٥. **الجيم**: يدلّ على العِظَم مطلقا.
٦. **الحاء**: يدلّ على التماسك البالغ وبالأخص في الخفيّات، ويدلّ على المائيّة.
٧. **الخاء**: يدلّ على المطاوَعة والانتشار، وعلى التلاشي مطلقا.
٨. **الدال**: يدلّ على التصلّب، وعلى التغيّر المتوزّع.
٩. **الذال**: يدلّ على التفرّد.
١٠. **الراء**: يدلّ على الملَكة، ويدلّ على شيوع الرصْف...

نظر المأمورُ إلى العَلايِليّ متبّسما بعد أن قرأ ما استعصى عليه ولوجه، ثم قال: لو تعطيني مثالا ينقذني من الظلام الذي أنا فيه.

فأجاب الأخير: اختر كلمة، أيّ كلمة ترد على بالك الآن !

التفت المأمور إلى النافذة وقال: شجر !

فتناول العَلايِليّ جدولَه، مشيرا إلى معنى كل حرف:

ش: يدلّ على التفشّي بغير نظام، وهو ما يشير إلى تشابك الفروع والأغصان.

ج: يدلّ على العِظَم مطلقا، وهو ما يرمز إلى ضخامة الجذع والفروع.

ر: دلالته الملَكة، وفي ذلك إشارة إلى تمكّن الجذور في الأرض.

ش ـ ج ـ ر: تلك هي صورة الشجرة بدءا بأغصانها، مرورا بالجذع، وصولا إلى الجذور !

ذُهِل المأمورُ من بساطة هذا التمرين اللغوي وودّ المواصلة، لولا أنّ وجوهَ الحاضرين ذكّرته بجدّية الموقف وبضرورة الحفاظ على الطابع الخطير للاجتماع، فقطّب الجبينَ سائلا: ذاك هو إذن سبب رحيلك الغامض عن الأخوية ؟

فقال العَلايِليّ: سببه هو الحنث بوعدي لذاتي تقطيع الأوراق، فكان أن باغتني الشيخُ الأكبر ذات ليلٍ مكتشفا سرّ أعمالي الخفية في محترف الكلام. غنيّ عن القول وقع المفاجأة عليه وهول صدمته بي وروعه ممّا أتيت. انتزعَ مني الأوراقَ فمزّقها ثم أحرقها بصمت، قبل أن يلتفت إليّ فيأمرني بالرحيل على الفور دون وداع أيّ من الإخوان، ذلك أن من كان مثلي كافرا مرتدّا، يستحق أن يُرمى حيّا في النار! ثم أردف وعيناه تقدحان شررا: أمنحك فرصةً واحدة لا اثنتين. فإن أنت غادرتَ وتكتّمتَ على فعلك الأثيم هذا وأبقيت سرّا أمرَ انتسابك إلى أخويتنا، نجوتَ. وإلا، فها أنا أحذّرك أني سأكون لك بالمرصاد. وكالعفاريت، سأطلع لك ولو اختبأتَ تحت سابع أرض، فأهلكك إلى الأبد إن أنت راوغتَ فنكستَ بالوعد وأفشيتَ السرّ !

انبرى شمس الدين غاضبا وما عاد يقوى على السماع: اسكتْ أيها العَلايِليّ ! يكفيك كفرا وضلالا ! ليته أماتك فما سمعنا أبدا ما تفوّه به لسانُك السامّ ! فزجره المأمور بنظرة مقفلة، قبل أن يسأل: ألهذا الحدّ كان خطيرا ما فعلت ؟

فاستولى سَهْل على الكلام قبل أن يفتح العَلايِليّ فاه وقال: وما هو أخطر من أن تنفي عن الحروف قدسيتَها ؟ ومعناه أنها مستباحة للعوام من الناس، وأنها لا تحوي أيَّ أسرار، وأن لوح القضاء والقدر يُلمس كأي كتاب عاديّ لأنه لم يقع لأحد كبارنا عن طريق الكرامة والكشف، ذلك أن علم الحروف ليس موجودا في الأصل، فما تلقاه أبونا آدم على يديّ الربّ، وإذن فالربّ نفسه ليس...

صرخ سَرّاج لاهثا مرتجفا: اقبض على لسانك يا سَهْل، ولا تجعله ينزلق إلى قول ما لم يجرؤ العَلايِليّ بنفسه على التفوّه به !

خطر للمأمور أن يتدخّل، لكنه ارتأى أن يتركهم على سجيّتهم، فيشرحون بشجارهم ما يستعصي عليه. فإذا بهم ينظرون إليه، وإذا به يلتفت إلى العَلايِليّ كأنما يحثّه ضمنيا على الردّ.

قال العَلايِليّ: تتسمّون بأسماء من سبقكم من علماء الحروف، فيمنحكم الاسمُ وحده سلطةً تجيز لكم الحلَّ والربطَ في كلّ ما يخصّ تركةَ العالِم من علمه. فكيف بكم إذا طوّعتم اللغة بالفولاذ والحديد، فسددتم مسامَها وشللتم حراكَها وأنطقتموها بما يحلو لكم وبما تنصاع إليه مرغمة لأنه من بنات أفكارها ولأن لها سعة تحوي كلَّ ما تعيّنه الحروفُ في هذا الكون وتسمّيه ؟ ألا يجدر التمييزُ حينئذ بين السلطة التي للكلام، وبين الكلام الذي ينصّب ذاتَه سلطة ؟...

هدرت أصواتُ الإخوان بعبارات الاستنكار والغضب والاحتجاج، فزاد العَلايِليّ من حدّة نبرته كي يتمم كلامَه: من يُقفل لغةً يرتكب أكبرَ الإثم، لأن من يخرج من لغته يخرج من العالم ! لقد خنتم من تدّعون اتّباعَهم والاهتداء بتعاليمهم، فأخفتم الناسَ من الحروف، روّعتموهم بها، جرّدتموهم من لغتهم وأجلستموهم في العراء، خارج أجسامهم وأرواحهم، خارج الزمن والحياة، في العدم ! وها أنا أقول لكم: اللغة من صنيع الإنسانِ مالكِها ! ذلك أنها مشيئة الربّ وضع فيه العقلَ كي يعقل الأشياءَ وضمّنَ "القدَرَ " معنى القدرة كي يُفهم ابنَ آدم أنه وهبه الإرادةَ، ينبثق منها العزمُ فالاقتدار !

أطلق سَرّاج وهو يزبد غضبا: ومعناه أنه يحقّ لكل آدمي فكّ الحرف وتفسير النصوص بحسب ما يوحى له ؟

فاسترجع العَلايِليّ هدوءه وقال: يا سَرّاج، ما كانت اللغة أبدا ضدّ الإيمان، بل هي مُعينٌ عليه لأنها تستدعي التفكير. وليس التفكيرُ ضدّ الإيمان، وإنما هو أفضل السُبُل المفضية إليه، وإن كانت دربه شائكة محفوفة بالمصاعب والعثرات !

كالدرب التي سلكها خلدون، رمى شمسُ الدين متحدّيا، وقد تعلّم وأنير عقلُه فتحوّل إلى قاتلٍ لا يقيم للتعاليم أيَّ اعتبار ؟!

استاء العَلايِليّ من إقحام خلدون في النقاش، فردّ بلهجة لا تخلو من حزم: دع خلدون جانبا، فلا شأن له فيما جعلَنا دوما على خلاف. ثم بدّل وجهة الحديث، إذ قال: أكمِل حكايتي أيها المأمور، ولك أن تحكم من ثمة من هو المجرم ومن هو البريء:

طردني الشيخُ الأكبر كما لو كنت آفة، جرذا مصابا بالطاعون، وامتثلت أنا لمشيئته لِما كان له من كبير تأثير ونفوذ عليّ. رحلتُ في الظلام بعد أن أمرني بخلع خرقتي كدليل انحدار إلى أحطّ الدركات. كان في نيّتي العودة إلى قريتي ولكن، إلى أين أعود وأنا فقدتُ آخرَ الأهل بعد وفاة والدتي، وقد أصبح الإخوانُ عائلتي وأحبّائي وكلّ الأهل ؟ ابتعدتُ ما استطعتُ ووفّقني الربُّ بعد مشقة وعناء داما سنوات. وحين اجتمع في حوزتي مبلغ من المال وكان الشوقُ قد استبدّ بي، قررتُ الرجوعَ إلى قرية "اليسر" والاستقرارَ فيها تحت اسم مستعار هو زيدون الورّاق. كنت على علم بأننا، أعني الإخوان، يعانون من سوء معاملة تجّار الورق في القضاء. فقلت ربما أسعفني الحظّ فوصلهم خبرُ الحانوت الجديد، فأرسلوا من يكون جسرا للمصالحة أو لتنسّم أخبار من اشتقتُ من الإخوان. وهكذا كان. غير أن من جاءني كان يُدعى الحكيم وكان من رعيلٍ جديدٍ لا يعرفني ولم ألتقِ به. ثم حلّ مكانه الصغيران جابر وحَيّان...

صمت العَلايِليّ، أو زيدون، يبتلع غصّة ألمّت به، ثم رفع نظارتيه يمسحهما وهو يداري دموعا احتقنت في مآقيه. وحين استعاد رباطة الجأش، أردف: قصّتي مع خلدون تعرفها أيها المأمور. لكن ما تجهله هو أن الشيخ الأكبر نزل ذات ليلة إليّ، في ساعة متأخّرة بعد إقفال الحانوت، وكنت كعادتي قد أسدلت الستارة وأشعلت القنديلَ لشيء من القراءة قبل الخلود إلى النوم. سمعتُ قرعا خفيفا على الباب، فقلت هي عدلى حتما، تمرّ بي في بعض الأحَيّان لدى خروجها مساء لتنسّم الهواء، متى خلت الأزقة من المارة وممّا يتسبّبون لها به من ملاحقة وإزعاج، فنجلس ونتحادث قليلا قبل انصرافها إلى المبيت.

فتحتُ. فإذا به الشيخ الأكبر صُعقتُ لرؤيته بمثل ما صُعق هو لمرآي. كأنما جاء لزيارة كان يرجو فيها مقابلةَ شخصٍ سواي. وما ساءني أن أستقبله. بل على العكس. رحّبتُ به وعانقته وسارعت أستعلم عن أحوال بقية الإخوان، وأبوح بشوقي الملتاع إلى رؤية وجوههم وتسقّط أخبارهم.

جلس. فأعددتُ الشايَ وسألته عن سبب مجيئه إليّ. تبدّلت ملامحُه وامتقعت نبرتُه وبدأ يلغط بكلام غريب مفاده أني أرسلتُ إلى الأخوية جواسيس، أني لم أعقل وما زلت أسعى إلى الانتقام، وأن من كلّفتُه بمهمّة التخريب لم يكن على قدر كاف من الحنكة والتأهيل... ثم قال إن الربّ ألهمه أن يجيء للتحقق ممّا حدسَ به قلبُه وأشار إليّ... دار لي الأمرُ، ففهمتُ أنه يتحدّث عن خلدون الذي، بفضوله المعهود، لا بدّ ورّط نفسَه في أمرٍ أيقظ ريبة الشيخ الأكبر.

حاولتُ شرحَ خطئه وتوهّمه، مؤكّدا أن خلدون على جهل تام بماضيّ وأنه تقدّم للامتحان من غير إرادتي، بدافع حلمٍ يراوده منذ الصغر. لكنّه فقد عقله وصار يزبد بأقسى الكلام وأعنف التهديد، حتى قمتُ وقام، فأمسك بما كنت أقرأ من كتاب سميك، وراح يضربني على الرأس ويضرب، إلى أن وقعتُ مغمى عليّ...

أكاذيب ! صرخ شمس الدين، تتّهم الشيخَ الأكبر بقتلك وأنت حيّ يرزق لم يُصبك سوء. ما الدليل على صحّة ادّعاءاتك، إن لم يكن الشرّ الذي تأتمر به !

نظر زيدون إلى المأمور وقال: أتسمح باستدعاء عدلى، وهي شاهدة على ما جرى وباستطاعتها رواية ما تبقى من أحداث ؟

٢٣

وحيدةً في الباحة وقفتْ. لا ظلّ لها ولا ظلّ عليها.

كان بودّها الاحتماء داخل جدران الخانقاه من عين شمسٍ هاذية مبحلقة، غير أن نظرات الإخوان إليها بعد أن عرّف الخفيرُ بها، جعلتها تؤثر البقاءَ خارجا بانتظار أن يستدعيها المأمور. ليتها تستطيع خلعَ هذه الملاءة السوداء التي تلسع جِلدَها الذي لم يخرج إلى النور منذ أعوام، فيسترّب إليه بعضٌ من هواء يغبّ نقاطَ العرق التي غسلتها فألصقت جسمَها بالقماش. لا بأس. المهم أن ينجو خلدون بعد أن يشهد له زيدون وينقذه من هذا الفخّ اللئيم. حمدا لله أنه جاء إليها فأخبرها بما كان من أمره مع الشيخ الأكبر، وإلا فكيف كانت لتفعل ومن كان سيُعلم الورّاق...

المسكين ! هبّ كمن جلس على جمر وما أمهلها وقتا كي تنهي قصّتَها، بل قال ننطلق حالا وتكملين في الطريق. سرنا ونحن نعدو وهو يعضّ على فكّيه ويتوعّد الشيخَ الأكبر بفضح المستور. حتى أمسك زندي فشدّ بقوة آلمتني وهو يقول: ستشهدين يا عدلى على كل ما رأيتِ ! وكيف لا أشهد لأنقذ روحي التي غادرتني لترمي نفسَها في النار ؟ ولا أشهد بما رأيتُ فقط، بل أكذب حتى إذا اقتضى الأمر وأختلقُ كلّ ما يخلّص خلدون، ولو تورّطتُ واتُّهمتُ بالضلوع ! ابتسم زيدون وسأل: أتحبينه لهذا الحد ؟ فما أجبتُ وقد عرفتُ أننا نتقاسم الهلعَ عليه.

مشت عدلى تبرّد ما اشتعل في قلبها، متنهّدة من عمق أعماقها: يا ربّ ! سمعها خلدون وكانت قد أصبحت بمحاذاة نافذته المسيّجة بعوارض خشبية مثبتة بالمسامير، فنادى عليها، فركضت تلصق وجهَها بما تركته الأخشاب من فراغ، عساها تتميّز وجهَه الغارق في عتمة المكان. سألها. فأخبرته. وكاد لا يصدّق أن زيدون لم يزل على قيد الحياة بعد أن سمع صوته هاتفا بأنه العَلايِليّ. حاولت عدلى الإيجازَ قدر المستطاع مخافة أن يباغتها أحد،

فلا تتمكّن من إطلاع خلدون على ما استجدّ لكي يتقن الدفاعَ عن ذاته حين يستدعيه المأمور.

لا تخَفْ، قالت، ها هو جالس مع زيدون منذ وقت، ومعناه أنه يصغي إليه وربما صدّقه. وإذا صدّقه سيبرّئك حتما فتعود إليّ... ليس على الفور. لكن، بعد شهور تقضيها في السجن عقابا على سرقة المزار... وارتدّت إلى الوراء فزعة حين رأت الخفيرَ يخرج لاصطحابها بدعوة من المأمور، فأعادت لفَّ الملاءة من حولها بعد أن مسحت وجهَها المبلول بالعرق والدموع.

وروت عدلى ما أمرَها المأمورُ بروايته، فقالت:

قلّما طلعتُ في وضح النهار... ثم سكتت وقد شعرت أنها بدأت من المكان المغلوط، فانحرفت لتحيد عنه وأردفت: خرجتُ كالعادة إلى نزهتي المسائية في شارع الحوانيت، فرأيت ستارة زيدون مسدلة وقنديله مضاء. قلت: ها هو ساهر. أتابع المشي إذن وفي طريق عودتي، أمرّ به لتناول كوب شاي ولشيء من الدردشة قبل رجوعي للمبيت...

قاطعها المأمور وسأل: منذ متى تعرفين زيدون ؟

فأجابت: ياه، منذ زمن مجيئه إلى حيّ الحوانيت.

فسألها: هل كانت صلتك به...

فقالت: معاذ الله ! زيدون رجل شهم ما تعرّض لي يوما. هو خروجي في المساء بعد خلوّ الأزقة من المارة، ومبيته في الحانوت، ما جعلاني ألتقيه. حتى انعقدت بيننا ألفة وصحبة لا شائبة فيهما ولا مدعاة لحرج أو لحياء.

قال المأمور: حسنا، واصلي.

فواصلت عدلى: رجعتُ من نزهتي الليلية وما أن اقتربتُ من الحانوت، حتى تناهى إليّ صوتٌ غريبٌ ينعت زيدون الورّاق بأسوأ النعوت. خفق قلبي وخطر لي الدخولُ ثم تراجعت، إذ ما تستطيعه امرأة حيال رجل على هذا الغضب والانفعال. ركعتُ على الأرض أسترق النظرَ من أسفل الستارة، فإذا به شيخ متقدّم في العمر. وزيدون الذي يصغره سنا بعقود والقادر إذن أن يتغلّب عليه، واقف أمامه كالطفل يستمع إلى تعنيفه محاولا الردّ

والتبرير. اطمأنّ روعي وقد قدّرتُ أنهما على معرفة قديمة وفي موقف عتاب تطوّر إلى شجار، فقررت الانسحابَ مّما لا يخصّني. وما أن وصلتُ إلى طرف الزقاق، وفيما أنا على وشك الانعطاف، سمعت الستارة تُرفع ثم تُسدل على عجل، تبع ذلك صدى خطوات ابتعدت بسرعة لا تثير الاطمئنان. أبْتُ كي أتبيّن ما جرى وطرقتُ عدة مرات، حتى اشتممتُ رائحة حريق، فأسرعتُ أرفع الستارة لأرى زيدون في الأرض وقد ارتفع اللهبُ من حوله في بعض كدس الأوراق. خلعتُ ملاءتي ورميتُها عليّ وعليه، ثم أمسكتُ بقدميه ورحت أسحبه وأشدّ، حتى أخرجتُه من الحانوت الذي أصبح كبيت الوقيد داخل فرن...

تريّثت عدلى تنتظر تعليقا من المأمور، فإذا به يحوّل نظرَه عنها ويسأل زيدون: لِمَ ادّعيتَ أنك قضيتَ في الحريق ؟

فأجاب زيدون: لخوفي على خلدون ممّا ألمّ بالشيخ الأكبر من عنف مجنون. وفكّرت: إذا كان قد قدم لقتلي، فربما طمأنه خبرُ موتي فتأكّد أن السرّ ذهب معي إلى القبر، فنسيني ثم نسي خلدون. لذلك اتفقتُ مع عدلى أن تشيع نبأَ وفاتي وأوصيتها بالسهر على خلدون وبموافاتي بأخباره أولا بأوّل، مع من أوفده إليها من رُسُل للاطمئنان. واختفيتُ في قرية صغيرة نائية، لا أعرف فيها أحدا ولا يتعرّف فيها أحدٌ إليّ.

تدخّل سَهْل وقال: لنفترض أن ما روته عدلى صحيح، فما الذي يثبت بأن الرجل الذي أشعل الحريق هو الشيخ الأكبر ؟

فأجاب المأمور: هذا أمر يسَهْل التحقق منه. هل ما زلت تذكرين يا عدلى ملامح الرجل إياه ؟

فردّت عدلى بحماس: أتقن وجهَه عن ظهر قلب، كما لو شاهدتُه للتوّ !

فأردف المأمور: هذا ما سنراه بعد قليل... ثم التفت إلى زيدون وقال: كل الذي رويتَه أيها العَلابِليّ، أعني يا زيدون، لا يبرّئ خلدون وإن كان يجرّم افتراضا الشيخَ الأكبر في حادثة إحراق حانوتك.

فقال زيدون: هذا لأن القضية تتضمّن سرا آخر لم تطّلع عليه بعد أيها المأمور، وهو يخصّ خلدون. فكما حاول الشيخُ الأكبر قتلي لإخفاء سرّي معي، سعى إلى توريط خلدون لقتل السرّ الذي اكتشفه، وهو أخطر من أن يحق لي إفشاءه أمام شهود.

قال شمس الدين: هو هذا، تريد استبعادنا لتروي ما يطيب لك ! ألا تخشى الربّ أيها العَلايِليّ ؟!

فردّ زيدون وقد طفح به الكيل: وأنتم ؟ أما خفتم ربّكم حين تخلّيتم عن الولد حَيّان فتركتم الوحوش تمزّقه وصدّقتم لعماكم، ما أراد الشيخ الأكبر أن تصدّقوه ؟! لا والله ! لن أدعكم تستبيحون دمَ خلدون وقد اعتدتم مقابلة الموت متذرّعين أنها مشيئة الربّ. الربّ براء منكم ومن قلوبكم التي حجّرها الجهل ! ملعونون أنتم حتى انقضاء الدهر، وملعون شيخكم الأكبر بارع روحَه لإبليس زاعما أنه أداة انتقام في يد الإله ! فلينتقم الإله منه، وهو سيفعل، لأن الحقّ وإن زُهق، فهو لا يموت !

قام شمس الدين يسعى إلى الردّ، فأسكته سَرّاج وقد تصبب العرقُ منه بعد أن عادت إليه ذكرى الشيخ الأكبر حين وجده غائبا عن الوعي وعلى صدره الطلسم الذي أعدّ لإهلاك العَلايِليّ، ففكّر: أجل، الشيخ الأكبر قادر على ارتكاب السيئات، وإن كان ذلك لمقصدٍ نيّته الخير. ثم التفت إلى زيدون وقال: مهما فعلتَ أيها العلايليّ، يبقى لك في القلب مكان. ومهما فعلنا نحن، نبقى إخوانك ونعزّ عليك. بربّك أصدِقْني القول، هل الشيخ الأكبر ضالع فيما جرى لولدنا حَيّان ؟ أرح نفسي أراحك الله، فأنا أشعر أن الحياة فارقتني بعد أن زُهقت روحُ الصغير، فقضى وحيدا ذليلا كعصفور اجتمعت عليه الضباع...

اختنق سَرّاج بدموعه التي عامت فيه فأغرقته. وبكى لبكائه زيدون. وانعقدت الغصّة في حلق المأمور، فتنحنح بعنف قبل أن ينتفض واقفا متوجها بالكلام إلى شمس الدين وسَهْل: خذاه من هنا واعطِياه شيئا يهدّئ الأعصاب. وأنتِ يا عدلى، اخرجي أيضا. أريد البقاء وحيدا مع زيدون. ثم راح إلى النافذة، فنادى على الخفير مشيرا بإحضار خلدون، واستدار وقال: لا أدري ما هي خطورة السرّ الذي ذكرتَ. لكن، ها إني أمرتُ بخروج الإخوان فعساك لا تكون بالغتَ وعسى خلدون يتلفظ بما يثبت براءته.

ظهر خلدون بعد أن قرع البابَ وسمع إذنا بالدخول. لم يلتفت إلى زيدون الذي همّ بالقيام لاستقباله، بل أبقى نظره مثبتا في المأمور الذي دعاه إلى الجلوس، فاعتذر مبديا رغبته بالبقاء واقفا. طرح المأمورُ أسئلته، فروى خلدون كلَّ ما كان، بدءا بلقائه الأول مع الشيخ الأكبر حين نزل خطأ إلى محترف الكلام، مرورا برغبته في الانتقام منه لفشله في

امتحان الحراسة، وصولا إلى إعداد خطته لسرقة المزار والطلب إلى عدلى أن تخيط له خرقة، وتنفيذ العملية والاعتداء على الحارس سَعْد وترك لفافة الورق في عصبة عينيه... ثم أخذ نفسا عميقا قبل أن يرمي نفسَه في الهوّة السحيقة، كاشفا عن خلوّ الصندوق المحرّم حين خلعه فما وجد فيه لوحَ القضاء والقدر، وإنما فراغا كساه الغبارُ وخيوطُ العناكب...

تقلّصت ملامحُ المأمور وتراجعت أذناه إلى الخلف، فبدا كقطّ برّي أجفل لسماع ما ينذر بخطر كثيب. وازدادت عينُه حَوَلا وهو يبحلق في خلدون، كأنما يريد حفرَ وجهه لتبيّن المستتر وراء ما تفوّه به، وهو يفوق كلَّ ما خطر له من احتمالات تلاعبت بخياله فنفخته ومطّته بأقصى ما يكون. وفكّر: أيعقل أن تستند كلُّ هذه الجرائم إلى ذرّة رمل ؟ أن تنهض قرية بحالها فوق سراب ؟ وأن يغزل الوهمُ حقائق وأحداثا، بل تاريخا كاملا من البشر والحيوات والمصائر والعلاقات ؟

أبى المأمورُ أن يظهر مصدّقا، فسأل بريبة المتشكّك الحرون: لكنّا وجدنا اللوحَ في صندوق حَيّان، وقد التهبت يدا جابر وعيناه حين لمسه سهوا ! فإما أن يكون الإخوانُ متآمرين فيما بينهم على اتهام حَيّان الذي لم أنسَ سعيَه إلى الانتحار واعترافَه، وإمّا أن تكون أنت الكاذب وهو ما يرجّحه كلّ منطق متعقّل يحلّل الوقائعَ ويحاكيها لاستخلاص الممكنَ والواقعي. ثم التفت نحو زيدون وسأل: أتصدّقه أنت ؟ فأجاب هذا الأخير: بل إني مستعدّ للتوجّه فورا إلى المزار للكشف عما يحويه صندوقه المحرّم !

فوجئ المأمورُ باقتراح زيدون وهو مهما كان، قد انتمى إلى أهل الأخوية ذات يوم، ثم عقد حاجبيه متفكّرا قبل أن يضيف: أتدري أنك تؤكّد بذلك اتفاقَ الإخوان فيما بينهم على الإيقاع بحَيّان ؟ انتبه إلى أقوالك يا زيدون، فاتهامُ الآخرين جزافا جنحة تودي بمرتكبها إلى السجن. راجع أفكارَك ولا تدع رغبتك بتبرئة خلدون، توقعك أنت بدلا منه !

تدخّل خلدون فقال للورّاق: دَعْ عنك ! ثم أردف: أيها المأمور، لا أدري ما كان دافعُ حَيّان إلى الانتحار ولستُ واثقا من أن الإخوان ضالعون سوى في أنهم صدّقوا أكاذيبَ الشيخ الأكبر. لكن، كيف لا يصدّقونه وهو سيّد الرياء، متمرّس فذّ في التلاعب بالعقول، وقد خبرتُ بنفسي قدرتَه على المراوغة والتحايل والتحوّل كحرباء ؟ أقسمُ بأني سارق

المزار، وإثباتي هو أني لا أخشى تنفيذ التجربة. فإذا اتّضح أن الصندوق المحرّم خالٍ من اللوح، أكون صادقا ويكون الشيخُ الأكبر مخادعا. لست أخشى الحكمَ عليّ أو العقابَ، وإنما أن ينفد الشيخُ الأكبر فتبقى الحقيقةُ مستترة لأنها وقعتْ بين يديّ جبانٍ مثلي ما تجرّأ على المجاهرة بها، فاستمرّ كائنٌ هو خلاصة السوء بعينه، قابضا عليها، آسرا إياها داخل قضبان قلبه الأعمى وعقله الموتور اللذين صوّرا له أنه يقاتل للزوْد عن مبادئ تتعرّض للانتهاك، في معركة ضارية تُبرّر قتلَ الحقيقة نصرةً للخير !

تنازعت الميولُ المأمورَ فاحتار في أمره: تشكيكه في ما يُنسَب إلى لوح القضاء والقدر من قدرات خارقة، واستحالة إنكار ما رآه بأمّ عينه من حمرة لم تزل بادية على عينيّ جابر. حدسُه المهني الذي ينحو به إلى تصديق خلدون، وخشيته أن تكون رغبتُه بالانتقام للصغير حَيّان وراء انحرافه إلى التجريم والتبرئة تبعا لأهواء عاطفته... حسنا، وماذا يخسر إن نفّذ التجربة سوى مجموعة من الأوهام ستُسقط بعضا من العناصر التي تثقل التحقيقَ وتجعله يراوح مكانه منذ وقت ؟

ثم تصوّر هولَ المفاجأة على الإخوان إن علموا بما سيدور في المزار عمّا قليل. وثبت ظنّه عندما نادى الخفيرَ يطلعه على نيّته تلك، فرآه وقد جحظت عيناه وجفّ ريقه واضطربت ملامحُه وتهدّج صوتُه: سيادة المأمور، أستحلفك بالعزيز عليك أن تعدل. فأنا لا أضمن سلامتك وسلامة الاثنين اللذين معك، إن أنتم أقدمتم على تدنيس حرمة المزار !

كاد المأمور يقتنع لولا أن صمّ أذنيه نفادُ صبره من ادّعاءات هذا ومزاعم ذاك. فإذا به يأمر الخفيرَ بالبقاء أمام مدخل الخانقاه لمنع خروج أيّ من الإخوان، ناهيا إياه عن إطلاعهم على ما ينويه، واعدا بالاستعجال ما أمكن...

٢٤

انقبض قلبُ خلدون لمرأى قضبان باب المزار الحديدية وقد اصطفت كجثث حرَسٍ محنّط قدّدته الشمس. وأحسّ وهو يعبر الباحة برفقة المأمور وزيدون، أنه يدنو من خطّ النهاية في ليلةٍ سبقت ظهورَ الهلال، فامتدّت وتعرّجت متحوّلة إلى سردابٍ طالعه بأشباح وقتلة ولصوص، قبل أن يوافيه أخيرا بمنفذٍ تفصله عن بلوغه قلّةُ أمتار.

ثم خطر له أن السرداب الذي يمشي فيه موجودٌ في داخله، وأنه ما أن يخرج أو يُخرجه منه، حتى يتخفّف. لكنّ خفّته المقبلة تلك أشعرته بالخوف فجأة، إذ تبدّت له موحشة وعلى خواء من كلّ ما عرفه وشكّل المنارة التي تحمله إلى اليابسة متى عصف به النوّ. ما هي إلا دقائق ويصل الميناء. لا ليعود هذه المرة، وإنما لرحيلٍ يودّع معه مستقبلا كان مرتسما لعينيه بوضوح، فإذا به جسر معلّق في الهواء، لا يفضي بقدر ما يصدّ.

التفت إلى زيدون فرآه من على ارتفاع، كأنه ما كان يوما ذلك الورّاق الذي تظلّل به لأعوام. صغر الحانوتي لحظة أطلعته عدلى على سرّ خلافه مع الشيخ الأكبر، فخلا قلبُ خلدون من مشاعر الإعجاب مبقيا على ما يكنّه له من ودّ. لذلك ربما لامه في دخيلته رافضا عناقه حين دخل على المأمور، إذ كان يتمنّى لو كانا وحيدين فيقول له: حتى أنت يا زيدون آثرتَ الصمتَ والانسحابَ فأوصدتَ على الحقيقة طلبا للأمان. ولو لم يتهدّدني صمتُك، لما كنتَ خرجتَ أبدا من الجُحر ! ممتنّ أنا لك بالفعل، لكنّ فضلك عليّ لا يمحو غيابَ أيّ فضلٍ لك وأنت تبوح بحقيقة، لا لإيمانك بضرورة التصريح بها، بل لأنك أُجبِرتَ واضطُررت. أتذكر روايةً حكيتَها لي صبيا فانغلق معناها عليّ وما انكشف سوى منذ لحظات ؟ " حين خلقت الآلهة الإنسانَ يا خلدون، خافت على الحقيقة منه لإدراكها أنه سيعثر عليها ولو بعد حين. ففكّرتْ: أين تراها تخفيها فلا يقع عليها بسهولة ؟ على قمّة جبل شاهق، في قعر المحيط، داخل صندوق مقفل يُحرّم لمسه أو الدنوّ منه ؟ إلى أن وجدت أخيرا الحلّ: نخفي الحقيقة في قلب ابن آدم، فيبحث عنها طويلا ولا يرتاب لحظة أنها تختبئ فيه " !

ها إنّا متساويان إذن في الجبن والتخاذل ومخادعة الذات. لكن، تشفع لي رعونتي وطيشي وسنّي الغرّة التي لم تخبر أمورَ الحياة بعد. ولا يشفع لك علمُك وسعة اطّلاعك وتبصّر عقلك وذكاء قلبك الذي يجيد التمييز. لذلك تراني لم أتقبّل سلوكَك، أو أني أحتاج ربما لوقت كي أراه من خلف نظّارات سيُلقيها العمرُ على أنفي ذات يوم...

رفع زيدون نظّارتيه حين أخرج المأمورُ من جيبه المفتاحَ، فإذا بالقفل مخلوع وقد استُبدل بشريط معدني لُفّ بإحكام حول قضيبين في الباب، وإذا به هناك، في الداخل، منحن

فوق الصندوقَ المحرّم ملصق الجبهة به يحيطه بذراعيه، ينيره مشعلٌ ثُبّت في موضعه داخل المزار !

أمسك المأمورُ بالشريط يسعى إلى حلّه، فتنبّه الشيخُ الأكبر وانتصب مهدّدا: ابتعد أيها المأمور ! فأنا وخشب الصندوق وأرضية المزار ننضح بزيت الوقود !

تقهقر المأمورُ خطواتٍ بعد أن تبيّن نواياه، ثم همس ناحية مرافقيْه: الزما مكانيكما، إنه مجنون !

ابتسم الشيخُ الأكبر ثم قال بصوته الجريح الذي ما زال يحمل آثار قبضتي خلدون: أهلا بابننا الضالّ ! ها أنت قد عدتَ إلى إخوانك بعد طول غياب. إليّ وبين ذراعيّ أيها العَلايِليّ !... وقهقه بما يشبه الرعدَ قبل أن يضيف: أليس هذا ما قابلك به سَرّاج وهو يتهافت للقياك ؟ الغبيّ، الأغبياء ! لا يعلمون أيّ وباءٍ حملتَه إلينا وأيّ ريح منتنة ستخرج منك ! كما تجهل أنت أن الموت يسير في خطاك وأنك ما أن تفتح فاك، حتى تنفث سموما تحرق السماءَ فتنطبق على الأرض ويعمّ ظلام !... لو أضمّك اللحظة إليّ، فأقبّل فمَك حتى ترتدّ إليك أنفاسُك، ونبقى متعانقين أبدا كخلّين محبّين مخلصين... لماذا أيها العَلايِليّ، وما أسأتُ إليك يوما وقد أحببتك ورويتك وداريتك كالزرع النادر الثمين ؟ لمَ هذا الكره ومتى نما فيك ذاك القدر من النكران والتنصّل والغدر ؟ أجل، أعرف. ستقول لي أنت البادئ وقد قمتَ بطردي وسعيتَ إلى قتلي. وأنت محقّ ! لكن، ألا يبرَّر فعلُ القتل متى كان الحبَّ دافعُه وخلاصُ نفس المحبوب هو هدفُ المُحِبّ ؟ كيف أكون إذن قد ربّيتك وعلّمتُك وهذّبتُ روحَك، إن استعصى عليك مثل هذا الفهم ؟

تقدّم الشيخُ الأكبر من الباب فحشر وجهَه بين قضبانه الحديدية وقال: اقترب، أريد أن أراك عن كثب. فخطا زيدون، فسارع المأمور يأمره بالتوقف، فأردف الشيخُ الأكبر وقد مدّ ذراعا: لا تستمع إلى الغرباء أيها العَلايِليّ، وإنما إلى قلبك الذي يدفعك إلى عناق أخيك ! تعال إليّ وبرّد بعضا من توقي إليك...

كالموثق بحبل خفيّ، أفلت زيدون من سطوة المأمور وسار حتى أصبح في مواجهة الشيخ الأكبر لا يحول بينهما سوى بابُ المزار. فأخذه الشيخُ الأكبر من وجهه يتبصّر فيه وقتا، قبل أن يشدّه إليه في عناق حار.

هزّ المأمورُ رأسه لا يصدّق عينيه، وقد رأى ظهرَ الورّاق غارقا في بكاء طويل خارج من الأعماق، ووجهَ الشيخ الأكبر مغتسلا بالدموع فيما هو يهمس بكلام خفيض بقي ممتنعا عليه، ثم أطلق في اتجاه المزار: أرى أنك نادم أيها الشيخ الأكبر تطلب السماح. وهذا أمر محمود، لكن يبقى أن تخرج لننهي القضية بعد أن طالت بما يفوق قدرة الجميع على الاحتمال.

قال الشيخ الأكبر: أتريد اعترافا أيها المأمور ؟ ليكن. ها إني أعترف بإقدامي على قتل السكّير وعلى اتهام حَيّان بما هو منه براء، ذلك أن السارق هو خلدون الماثل إلى جانبك الآن. وها إني أصادق على كل ما رواه لك هذا الشاب، فهو بريء إلا من محاولة السرقة، أقول محاولة لأنه ما سرق شيئا، إذ كان الصندوق المحرّم فارغا من أي لوح !

لم يصدّق خلدون ما سمعه. والمأمور مثله قد أصيب بالذهول. إلا أن الشيخ الأكبر تابع: ها إني خارج إليك بعد قليل. لكن، امهلني لحظات أتحدّث فيها على انفراد مع العَلايِليّ، فأودّعه وأستغفره قبل حضور الإخوان.

أمنحك ما تشاء من الوقت، شرط أن تخرج للحال من المزار ! أجابه المأمورُ وكان ما زال يخشى على زيدون من الانتقام.

فابتسم الشيخ الأكبر وقال: حتى المحكومون بالإعدام، يحقّ لهم طلب أخير... ثم نظر إلى العَلايِليّ الذي التفت إلى المأمور يسعى إلى التدخّل لديه، فأردف بصوت هامس سريع: انسَ المأمور والآخرين والعالمَ كلّه وابقَ معي، فالوقت يضيق والكلام كثير... لقد رأيتَ أيها العَلايِليّ ما حلّ بالقرية إذ ظنّت اللوحَ مسروقا فقط. فتصوّر ما سيقع لأهلها إن علموا أنه غير موجود. لستُ خائفا على الأخوية أو على الإخوان، بل على الناس ستودي بهم إلى الهلاك وتفقدهم الأمانَ وتحرمهم مصدرَ الرحمة الوحيد، إن أنت قتلتَ فيهم إيمانَهم

بوجود اللوح، وهم لا يملكون ما يلتجئون إليه كبديل. فلا ولاية تهتمّ بهم، لا علم ولا مؤهلات لمواجهة شيطان العوز والجهل. لا تنسَ أننا حفظة علوم الحرف أؤتمنّا عليها لسبب لستَ تجهله. الطاعة لأحرف الكَلَم التي هي أحرف المُلْك أيضا، واجبة أيها العلايلي، لأنّ اللغة عرشُ المعرفة. فهل تسلّم العرشَ إلى أمّي، ثم تحاسبه على سوء إدارته الحكم ؟! تذكّر حلمَ سرّاج عن مصرع الحروف. اكشفْ خلوَّ الصندوق المحرّم من أيّ لوح، وسوف تقوّض سلطة الحرف لتؤسّس لسلطة الفوضى والرعاع ! يحتاج الإنسانُ إلى رادع أيها العَلايِليّ. فإن أزلتَ الرادعَ هذا، أبَحْتَ له التحوّلَ إلى وحشٍ يعصى المحرَّمَ ويأتمر بشريعة الغاب...

ارتفع صوتُ المأمور وقد عيل صبرُه يأمر زيدونَ بالابتعاد دون مماطلة أو تأخير. فأخذ الشيخُ الأكبر وجه العَلايِليّ بين يديه وقبّله على شفتيه طويلا، قبل أن يدفعه عنه بقوة هاتفا بأعلى الصوت: تذكّر أيها العَلايِليّ ! تحتاج الناسُ إلى رادع، ولا رادع إلا "هو" !

اندفع المأمورُ وخلدون يرفعان زيدون الذي استلقى على ظهره أرضا بفعل عنف الصدمة التي تلقاها عند الصدر، فما فطنا إلى الشيخ الأكبر وقد تناول المشعلَ عن الجدار ودخل إلى حيث الصندوق المحرّم، حتى سمعاه يطلق صرخة فقعت كالدويّ: يـا ربّ !!! فرأياه وقد تطاولت ألسنة النار عليه، فلعقته من كل جانب، محاولة الإفلاتَ من عقالها، ممسكة بالقضبان تعضّها وتعضّ يديَّ المأمور وهو يسعى يائسا إلى فكّ الشريط المعدني...

إلى أن ساد الهدوء.

وكانت النيرانُ قد أتمّت ثورتَها داخل جدران المزار، فارتدّت على نفسها وكبت فوق ما حوّلته إلى رماد.

(...)

ـ ماذا بعد ؟

ـ في قرية "اليسر، ليس ثمة من "بعد".

ـ أيُعقل أن أهلها نسوا كلّ ما وقع فيها ولهم من أحداث ؟

ـ أجل. نسوا على نار بطيئة حتى نضج فيهم النسيانُ، فأكلوا ذاكرتَهم ثم رقدوا مطمئنّي البال. تلك هي حال ذكرياتهم، خفيفة كالرماد لا يطول الوقتُ بها كثيرا قبل أن يذرّيها الهواء. وبما أن قرية "اليسر" قررّت أن ما شهدته لم يكن سوى أضغاث أحلام شابها كابوسٌ وجيز، فقد تيسّرت عودتُها إلى السبات.

ـ ماذا عن المأمور ؟

ـ غادر في سيارته فسارع الغبارُ يضمّه إليه، بعد أسابيع من الشوق والغياب.

ـ وتقريره إلى حاكم الولاية، هل تغاضى عنه ؟

ـ معاذ الله ! فمأمورنا موظف نزيه مخلص مستقيم. تقريره إلى الحاكم وضعه، فلم يغادر الأخوية قبل الانتهاء منه.

ـ وكيف تطرّق إلى قضية اختفاء اللوح ؟

ـ قال إنه لا يستطيع الجزم بكونه حقيقة أو وهما. لذا تراه نقل الحوارَ الأخير الذي دار بينه وبين زيدون، تاركا للولاية أن تتبيّن بنفسها صعوبة التوصّل إلى استنتاج واضح ومنطقي. فكتب يقول:

" واستخبرتُ زيدون، أو المدعو العَلايِليّ، عمّا أسرّ به الشيخُ الأكبر قبل إحراق نفسه، فأجاب: أطلعني على سبب خلوّ الصندوق المحرّم من لوح القضاء والقدر.

فسألته: وهو ؟

فقال: وهو نقله إلى فرع لأخويتنا في ديار أخرى، تطبيقا لتقليد جرى عليه الإخوانُ بغية ضمان حمايته من السرقة، ويقضي بتبديل موضعه سرّيا، من عام إلى عام.

فسألت: وكم للأخوية من فروع ؟

فقال: كثرة.

فقلت: وإلى أيّ منها نُقل اللوح ؟

فأجاب: هذا ما لا أستطيع البوحَ به.

فقلت: ولمَ لا ؟

فقال: لأنه سرّ !

فعقّبت حانقا: هو ما تجيدون الكلامَ به، فلكم ألسنة لا تلهج سوى بلغة السرّ ! ".

ـ كذب زيدون ؟!

ـ زيدون عاد يُدعى العَلايِليّ، بعد أن ارتدى الخرقة وآثر البقاءَ في الأخوية مع الإخوان.

ـ انتصر عليه الشيخُ الأكبر إذن !

ـ لنقل أنه أعاده إلى واقع أبى دوما الرضوخَ له، فإذا به يصبح الشيخَ الأكبر والعَلايِليّ في آن.

ـ وكيف يجتمع ضدّان ؟

ـ يجتمعان. صدّقني ! وقد يجتمع أحَيّانا عشراتُ الأضداد.

ـ أيحدث ذلك دون إلغاء الضدّ لضدّه ؟

ـ إذا كنتَ ممن يرون أن الشرّ يتأتى عن إلغاء الآخر، تبرئة الذات وتحميل الآخرين كل السيّئات، يحدث ذلك، أجل.

ـ وبقية الإخوان، سَرّاج وسَهْل وشمس الدين وجابر والآخرون ؟

ـ رجعوا إلى محترف الكلام لوضع معجمهم في سرائر الحروف، منتظرين عودة اللوح إلى المزار لاستئناف أعمالهم وما يلزم لتيسير أحوال من يعودهم من زوّار.

ـ وخلدون، بطلك المفضّل، ما حلّ به ؟

ـ رحل عن القرية وما عُرفت له أرض.

ـ وحيدا غادر ؟

ـ وحيدا، أجل. من دون عدلى إن كان هذا ما تودّ معرفته.

ـ انتهت القصّة إذن ؟

ـ نعم. انتهت منذ زمن...

ـ ألا نتعارف قبل الوداع ؟

ـ إذا شئتَ. ما اسمُك ؟

ـ أنا "قارئ". وأنت ؟

ـ أنا "راوي". وبإمكانك أن تدعوني خلدون.

ـ اسمع يا أخ خلدون، نصيحة منّي إليك: إن كنتَ تبغي الأمان، عليك بالنسيان أنتَ أيضا وبإحراق ما رويتَه في هذا الكتاب...

مضى "قارئ".

ودخل خلدون في صفحات الكتاب، فتذكّر أنه أسقط من روايته السطرَ الأخير وقد جاء فيه:

غادر خلدون قريةَ "اليسر" غير ملتفتٍ إلى الوراء. وحين ابتعد ما يكفي، توقّف لبعض راحة مستلقيا على ظهره فوق الحشيش. تأمّل حَرار وقد انطلق في السماء فحلّق طويلا ودار وعلا وانخفض... وللمرة الأولى، شاهده يصيد !

ـ تمّت ـ

صدر للمؤلّفة :

- **المحوّل.** دار مختارات. بيروت ١٩٨٦
- **حياة وآلام حمد ابن سيلانة.** دار الآداب. بيروت ١٩٩٥
- **باص الأوادم.** دار الآداب. بيروت ١٩٩٦

حازت على جائزة أفضل عمل إبداعي للعام ٩٧ من "المنتدى الثقافي اللبناني" في باريس.

- **La locataire du Pot de fer.** Ed. L'Harmattan Paris 1997

حازت على جائزة أفضل عمل مسرحي للعام ١٩٩٩ في مهرجان المسرح في مدينة أميان الفرنسية.

- **يا سلام.** دار الآداب. بيروت ١٩٩٩

Mes plus vifs remerciements au Centre National du Livre, CNL, dont la bourse d'aide à la création m'a permis d'écrire ce roman.

Najwa Barakat